وليم إ. بورجهارت ديبويس

روح الشعب الأسود

ترجمة
أسعد حليم
تقديم
حلمى شعراوى

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومى للترجمة
312

المشروع القومى للترجمة

روح الشعب الأسود

تأليـف : وليم إ. بورجهارت ديبوِيس

ترجمة : أسعـــد حليـــم

تقـديم : حلمى شعراوى



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٣١٢

– روح الشعب الأسود

– بورجهارت ديبويس

– أسعد حليم

– حلمى شعراوى

– الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة الكتاب :

THE SOULS OF BLACK FOLK

تأليف : W.E. BURGHARDT OU BOIS

الصادر عن : THE BLUE HERON PRESS

NEW YORK - 1953

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084 **E. Mail** : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقـــديـــم

وليم إ. بورجهارت ديبُويس

حلمى شعراوى

وليم إدوارد بورجهارت ديبُويس W.E. B. DuBois (*) أفروأمريكى من أصول أفريقية فرنسية، ولد فى بارنجتون- ماساشوسيتس شرق الولايات المتحدة الأمريكية فى ٢٣ فبراير ١٨٦٨، وتوفى فى أكرا- غانا يوم ٢٧ أغسطس ١٩٦٣، عاش أكثر من خمسة وتسعين عاما دارسا وأستاذا فى العلوم الإنسانية؛ الفلسفة والتاريخ والاجتماع، وناشطا فى مجال تحرير الإنسان والشعوب الملونة، ومفكرا ورائدا سياسيا لحركة تحرير الزنوج الأمريكية، وحركة الوحدة- أو الجامعة- الأفريقية Pan Africanism. وهو الذى أعلن فى أول مؤتمر تأسيسى لحركة الجامعة الأفريقية عام ١٩٠٠ "أن القرن العشرين سيكون هو قرن حاجز اللون" ، وأكد ذلك فى عمله الفكرى والأدبى طوال حياته؛ حيث كان من أهمها كتاب "روح الشعب الأسود" عام ١٩٠٣ .

كتب أكثر من عشرين كتابا ، لكن أعماله الكاملة نشرت فى ٣٨ مجلدا بجامعة ماساشوسيتس حتى ١٩٨٦ ، وطبعت بعض أعماله أكثر من عشرين طبعة، كما طبعت مراسلاته فى ثلاث مجلدات. وضمت الأعمال الكاملة كتبه ومقالاته خاصة فى مجلة "الأزمة Crisis. " التى رأس تحريرها لحوالى ربع قرن ابتداء من عام ١٩١٠ .

أقامت حكومة غانا مركزا تذكاريا باسمه فى أكرا عام ١٩٨٦، كما أنشأت جامعة ماساشوسيتس "مؤسسة ديبويس" فى نفس العام برئاسة ابنه بالتبنى "ديفيد جراهام ديبويس". وأسست جامعة هارفارد مركزا باسمه للدراسات الأفريقية، كما

(*) جرت بعض كتاباتنا العربية على نطق اسم Du Bois بالعربية كأصله الفرنسى "ديبوا " لكن والرجل أمريكى فإننا نرى أن نلتزم نطقه كما ينطقه الأمريكيون ديبُويس .

تحتفى به المنظمات الأفروأمريكية فى شهر فبراير الذى ولد فيه "ديبويس" ضمن شهر تاريخ السـود Black History الذى يقام فيه عدد من الأنشطة العلمية والثقافية حول الدراسات والتطورات الأفروأمريكية والأفريقية، وقد رعت زوجته "شيرلى جراهام ديبويس" تراثه وكتبت عنه كتابات كثيرة أهمها "يومه الممتد" His Day Is Marching on ، وذلك خلال جولاتها بين أمريكا والاتحاد السوفيتى والصين، وقد زار "ديبُويس" مصر أثناء مروره إلى أكرا فى شتاء ١٩٦٢ واستقرت شيرلى جراهام بها لفترات بين ١٩٦٨ وحتى وفاتها ١٩٧٧ اعتزازا بحب ديبويس الخاص لمهد الحضارة الأفريقية، كما بدأ تعبيره عن ذلك فى **"روح الشعب الأسود"** ١٩٣٠ حتى كتابته عنها تحية لمعركتها مع الاستعمار فى قصيدة له عن معركة السويس ١٩٥٦ .رغم ذلك كله لم يحظ "ديبويس" بقدر كاف من التعريف به فى الثقافة العربية بما يتناسب مع دوره فى الحياة الثقافية والسياسية الأفريقية، لكن تظل أقرب مصادر التعريف به ما كتبه د. عبد الملك عودة عنه ضمن كتابه عن **"فكرة الوحدة الأفريقية"** عام ١٩٦٥، والترجمة التى قام بها الأستاذ فاروق عبد القادر وراجعها د. محمد أنيس لكتاب صدر بالعربية عام ١٩٦٥ أيضا باسم **"وليم إدوارد دويوا"** لمؤلفه إليوت ردفيك، ثم كتب حلمى شعراوى عن دوره فى مؤتمرات الجامعة الأفريقية ضمن كتاب **"أفريقيا قضايا التحرر والتنمية ١٩٨١"**، ثم ترجمة إبراهيم منصور لدراسة ديفيد ديبويس عن **"تراث ديبوا يتعرض للهجوم"** التى نشرتها مجلة "أفريقيا" غير الدورية عدد ٢ إصدار دار المستقبل العربى ١٩٨٨ ولا تسجل قوائم الرسائل الجامعية فى مصر فى حدود معرفتى دراسة خاصة عنه حتى نهاية القرن العشرين!

لا تكفى بضع صفحات للتعريف بحصاد شخصية بحجم "ديبويس" وإنتاجه الفكرى وتأثيره فى الحياة الثقافية والسياسية على مدى قرن من الزمان هى فترة حياته الممتدة بين قرنين من أخصب قرون التاريخ، وعلى اتساع قارتين هما أمريكا وأفريقيا، لكن يمكن المجازفة فقط إذا صار الهدف هو التعرف على الملامح العامة لهذه الحياة الغنية من نواح محددة قد يقترب بها القارئ من تلك الشخصية من حيث:

١- تكوين "ديبويس" ورحلته داخل مجتمع الزنوج فى أمريكا.

٢- رحلته مع حركة الوحدة الأفريقية.

٣- "ديبويس" فى أفريقيا.

أولاً: تكوينه ورحلته داخل مجتمع الزنوج

كان "ديبويس" يقول بعد تجربته فى الجنوب الأمريكى إنه اكتشف أنه ليس أمريكيا ولكنه "زنجى"، ذلك أن حياته فى الواقع إنما كانت بين "المسألة الزنجية" فى أمريكا من جهة وحركة تحرير الشعوب الأفريقية التى انبعثت لحد كبير بين الزنوج خارج القارة من جهة أخرى، حتى بلورتها حركة النضال الوطنى على أراضيها. وتوحى طبيعة تطوره صبيا ثم شابا وشيخا وكهلا على مدى حوالى القرن بطبيعة اختياراته ومصداقية شعاراته، فهو من أم من وسط الرقيق الذين هجّروا – من بين "بانتو" الجنوب الأفريقى إلى الأراضى الأمريكية – عبيدا للهولنديين فى قرية جريت بارنجتون قرب ماساشوسيتس حتى تزوجت "ألبرت ديبويس"– نازحا فرنسيا مخلطا بدوره جاء من هاييتى واشتغل بالتجارة البسيطة فى ولاية ماساشوسيتس.

وليست هذه الجولة فى أصوله وحدها هى جوهر العلاقة، ذلك أن رحلة عمره بين مولده عام ١٨٦٨ أى عقب الحرب الأهلية الأمريكية وإعلان وثيقة تحرير الرقيق ١٨٦٣ وبين وفاته عام ١٩٦٣ عشية المسيرة الكبرى لحركة الحقوق المدنية الأمريكية فى اتجاه واشنطن، وعقب قيام منظمة الوحدة الأفريقية فى أديس أبابا؛ إنما تكشف عن مساحة العذابات والآمال والإنجازات التى عاشها "ديبويس"، كما أنها تثير قدرا من الأسئلة التى تغطى بعض إجاباتها الكثير عن طبيعة حركة تحرير زنوج أمريكا، بل والحركة الوطنية والاجتماعية على المستوى العالمى من حول قضية تحرير زنوج أمريكا والشعوب الأفريقية.

ففى أمريكا عاش ديبُويس مطلع حياته فى جو هادئ، علمه التأمل والتفكير فى منطقة ليست عنصرية تماما مثل ماساشوسيتس، ولكن جولته فى الحزام الأسود (جورجيا) ثم تعليمه الجامعى الأول فى جامعة "فيسك" التى كانت تسمح بتعليم "الملونين" فى الجنوب مما وضعه أمام أقسى مظاهر التفرقة العنصرية ضد الزنوج خلال السنوات الثلاث التى قضاها هناك (١٨٨٥/٨٨) ، وهو ما عبر عنه بمرارة شديدة فى كتابه "**روح الشعب الأسود**" عام ١٩٠٣ كتاب "**الزنجى**" عام ١٩١٥، و(كان عدد الزنوج حوالى عشرة ملايين من ٧٥ مليون نسمة تقريبا فى أمريكا فى ذلك الوقت حسب روايته)، ولعله لهذا السبب برز ميله وتأكيده على الدراسة العلمية لواقع الزنوج أولا؛ كما اتخذ موقفا مبدئيا حول الحل عن طريق "التسييس" لقضيتهم وليس غير ذلك.

قفز فى المجال العلمى قفزة كبيرة حين جمعت له الكنائس الزنجية فى الجنوب نفقات سفره إلى هارفارد لحصوله على منحة دراسية هناك بسبب تفوقه، فدرس الفلسفة ثم التاريخ، كما تدارس بعضا من العلوم الاقتصادية والاجتماعية الأخرى، بل وأرسلته هارفارد سنة ١٨٩١ إلى ألمانيا لعامين التقى خلالهما بكبار علماء الاجتماع وفى مقدمتهم ماكس فيبر، ومنذ اللحظة الأولى كان اهتمامه بالدراسة الاجتماعية

لأحوال الزنوج، وأعد رسالته للدكتوراه فى هارفارد حول "**القضاء على القهر فى تجارة الرقيق الأفريقى بأمريكا**" وهى التى اعتبرتها هارفارد الأولى فى سلسلة دراساتها فى التاريخ (١٨٩٦)، وحين انتقل للتدريس فى جامعة بنسلفانيا عام ١٨٩٦، أشرف على برنامج دراسى حول "النظام الاجتماعى بين السود" أخرجه فى عمل بحثى أيضا باسم "**زنوج فيلا دلفيا**" (١٨٩٩)، يعتبر من الدراسات السوسيولوجية الأولى والأساسية حتى الآن عن زنوج الولايات المتحدة، واستمر اهتمامه العلمى على هذا المستوى حتى أسس أول قسم لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة بجامعة أتلانتا – جورجيا حيث كان معظم طلبتها من الزنوج، وتبع ذلك إصدار كتاب "**إعادة بناء مجتمع السود**" عام ١٩٣٥ كتحليل اقتصادى اجتماعى للأمة بعد الحرب الأهلية ثم "**الجنس الزنجى فى التاريخ والاجتماع**" ١٩٣٩ أتبعه بكتاب "**غبار الفجر**" كجزء من سيرة حياته فى مجتمع التفرقة العنصرية.

إلى جانب كتب "ديبويس" العلمية والفكرية كان له مصدر أساسى آخر للتعبير عن أفكاره فى مجلة "الأزمة **crisis**" التى ساهم فى تأسيسها عام ١٩١٠، وظلت حتى منتصف الثلاثينات تحت إشرافه باعتبارها أداة "**الرابطة الوطنية لتقدم الملونين NAACP**" فى أمريكا. وقد شهدت هذه المجلة أكبر المعارك الفكرية فى الثقافة الزنجية والأفروأمريكية بالولايات المتحدة.

لم يكن "ديبويس" طوال دراساته عن الواقع الأمريكى، والزنوج من داخله، راضيا عن مجمل الأوضاع فى هذا البلد بسبب سخطه على توجهاته العنصرية التى رآها "ديبويس" متجذرة فيه طالما بقيت تحكمه الرأسمالية، مسببة تجارته فى الرقيق تارة، وحروبه الأهلية تارة أخرى بل ودخوله الحروب العالمية بعد ذلك. وقد اعتبر "ديبويس" هذه الظواهر من نتائج فشل الحضارة الأوروبية، وتعبيرا عن الروح الحقيقية للثقافة البيضاء" .. واعتبر المجتمع الأمريكى ابن أوروبا المحتضرة (الأزمة ١٩١٥). وقد يكون هذا الرد متأثرا بالأوضاع العنصرية التى عاشها "ديبويس" أول القرن، لكنه ظل يتطور بصيغ أخرى نابعة من فهمه الرئيس لجريمة الرأسمالية من وراء هذه الأوضاع حتى صار يتحدث بعد الحرب العالمية الثانية عن "تعاظم قوة الاستعمار" ووقوف أمريكا مع أوروبا وراء الأزمات العالمية حتى أنه يمكن التنبؤ بحرب عالمية ثالثة تقودها هذه الدول. واعتبر مشروع ماريشال الأمريكى نموذجا للمشروع الاستعمارى، وأن تركيبة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ستجعلها تحت سيطرة الدول الاستعمارية. مكررا أن أمريكا تسكرها القوة، وأنها تقود العالم للجحيم بالاستعمار

الجديد وعن طريق نفس أسلوب الاسترقاق القديم الذى دمر العالم من قبل. ولم يكن "ديبويس" هنا يرد علي العنصرية بعنصرية مضادة إزاء تفسيره الاقتصادى السياسى الواضح فى كتاباته، بل إنه رغم تركيزه على مشكلات السود وانطلاقه من آلامهم التى عاشها بنفسه فى الجنوب الأمريكى أثناء دراسته، فإنه كان يتفهم أن الجنس الأسود مجرد جزء من الأجناس الملونة فى العالم والتى لابد أن يكتب لها النصر. وهو لم يكن مجرد أسود فى مواجهة البيض، لأن له الكثير من التعبيرات عن التطور الديمقراطى فى أوروبا. وهو القائل عن الديمقراطية "لقد أنقذناها فى فرنسا، وبعون الله ننقذها فى أمريكا... أو نعرف السبب!" وكان ذلك عقب حضوره مؤتمر فرساى مراقبا عام ١٩١٩، ولم يخف "ديبويس" تأثير زيارته للاتحاد السوفيتى فى العشرينات وتطلعه لما يمكن أن تقدمه الاشتراكية من إنقاذ للجماعة البشرية من البيض والسود على السواء، وكان التزام ديبويس بالتفسير الطبقى السياسى مصدر تفاؤله الوحيد أمام تشاؤمه من المجتمع الأمريكى الرأسمالى، وقد يعتبر كتابه عن "**اللون والديمقراطية**" الصادر عام ١٩٤٥ بعنوان فرعى " **المستعمرات والسلام**" ردا على الاكتساح الأمريكى المتوقع للعالم بعد الحرب العالمية الثانية ، ولذا ضمن هذ الكتاب أيضاً قراءته للحالة الروسية والصينية معا إلى جانب وضع المستعمرات في النظام العالمى وأزمة الملونين، معبرا عن "تحديات السلام فيما بعد الحرب من وجهة نظر الأجناس الملونة " أو ما يعرف الآن بالتفسير الطبقى على مستوى عالمى.

لم تقتصر دراسات "ديبويس" إذن على الزنوج فى المجتمع الأمريكى والقضايا الناتجة عن هذه الدراسات، وإنما يبدو الأمر من مجمل إنتاجه أنه انتقل بسرعة إلى ربط معارفه عن الزنوج بمعرفته بالعالم الخارجى الذى يراه سندا لتحرير الزنوج فى أمريكا نفسها : فضلا عن تحرير الشعوب الملونة من النفوذ الأمريكى – الأوروبى من أجل إنقاذ الحضارة الإنسانية، وكانت الشعوب الأفريقية على رأس قائمة المطلوب تحريرهم لأنهم أصل ظاهرة الاسترقاق الأمريكى. وتعتبر هذه النقطة الأخيرة هامة فى تفسيره للمشهد العالمى الاستعمارى، ومأساة الشعوب الأفريقية داخل المشهد فهو لم ير الاسترقاق ، أو تجارة الرق مسألة عنصرية أمريكية فى ذاتها ، أو لعداء عنصرى يكنه تجاه أمريكا ؛ وإن كان من طرائفه القول " إنه يحمد الله أن ليس به قطرة دم سكسونية "! والحق أنه شرح مسألة الرق فى الحضارات المختلفة دون أن يعنى به ذلك التعسف غير الإنسانى الحديث (**الزنجى ١٩١٥**) ولكنه قدم مبكرا تفسيرا للاقتصاد السياسى الأمريكى وقيام البيض فيه بدور الحكومة والشرطى للمحافظة على الامتيازات الرأسمالية وفق نظرة تفوق خاصة تجاه العبيد العاملين

لإدارة ماكينة هذا الاقتصاد ؛ ولذا كانت الحرب الأهلية الأمريكية، وكان تطوير السود بالتدريب بعد ذلك لنفس أهداف الاستغلال، كما كان النظام الاستعماري والتنظيم الدولي في نفس الإطار ، بل وكانت مخاطر واحتمالات الحرب الثالثة من توقعاته المبكرة .

وقد أدت تحليلات " ديبويس " في فترات مختلفة من عمره الطويل ؛ إلى استنتاجات مختلفة أيضًا بل وإلى مواقف متباعدة أحيانًا، وقد بدأ " ديبويس " مثلاً أواخر القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين برفض الفصل بين مصالح البيض والسود عند البحث في العلاقات العنصرية بينهما، ورأى البدء بتسييس قضية الزنوج واعتبار المشاركة في السلطة السياسية عن طريق التصويت المتساوي للمجالس التشريعية والبلدية هو الحل، وقد أدى به ذلك إلى رفض برامج تنظيمات أخرى للزنوج عن التدريب والتعليم الفني .. إلخ بمعنى التنمية المنفصلة للزنوج على النحو الذي كان يقف عنده بوكر واشنطن في بداية القرن العشرين ، ولهذا السبب نفسه هاجم "ديبويس " الكنيسة البيضاء والسوداء على السواء في مجلة "الأزمة"؛ فالأولى تقوم مباشرة على أساس التفرقة العنصرية ، والثانية تنشر فلسفة " الفصل " بأسلوب آخر حيث "سيقع التحرير عند ظهور الرب " ، أو "أن المسيح سيبعث بين الزنوج لا البيض .. إلخ " فضلاً عن معنى تأكيد وجود كنيسة منفصلة للعنصر الأسود ... ومع ذلك فإن بعض الدراسات تشير إلى عودة "ديبويس" لضرورة تطوير وضع السود ولو وحدهم بعد تجمد الاقتصاد الأمريكي والعالمي فيما بين الحربين نتيجة تحمل السود لأعباء الأزمة العالمية بشكل صارخ، وقد قربه ذلك من مفاهيم "جارفي " نفسه بين الحربين في "الفصل" رغم اختلافه معه في مشروع تهجير السود إلى أفريقيا – عودة إلى الوطن الأم .

فرضت آلام "ديبويس" من واقع المجتمع الأمريكي مراوحته بين التفسير الاجتماعي – الطبقي للمجتمع الأمريكي ككل، وبين القول " بالتنمية المنفصلة" للزنوج ، وهو بلاشك قد تأثر في كل ذلك من جهة بدراسته في أوروبا وخاصة ألمانيا حيث شهد آثار كارل ماركس وماكس فيبر ثم كان اقترابه في فترات مختلفة من حزب العمال الأمريكي ثم جماعات الاشتراكيين ثم الحزب الشيوعي الأمريكي نفسه ، ومن جهة أخرى كان يواجه موقف العمال البيض المنحاز عنصريا كما واجه شعبية أفكار "بوكر واشنطن" " وماركوس جارفي" عن تنمية أو تحرير الزنوج " ، ولذا كان يبحث طوال الوقت عن حزمة من الأفكار في الاقتصاد السياسي تتناول الأوضاع الاجتماعية للزنوج في مزارع القطن والسكر ، وفي نظام المزارعة والمديونية والحرمان

من التمليك ، مما يجعل السود عبيداً "للنظام الاجتماعى" رغم "تحريرهم" من "الرق التشريعى" بإعلان ١٨٦٣، ولم يكن التفسير الطبقى فى تجربة "ديبويس " يجعله يلحظ تطورا في الموقف العنصرى للبيض عموما أو العمال البيض ، بل تزايدت الأوضاع العنصرية ضد الزنوج مع تصاعد "نجم" أمريكا على المستوى العالمى عبر حربين عالميتين ، لذا يراوح بالعودة إلى النظرة العنصرية المضادة مرة، أو الهروب إلى الأمام بالوقوف مع قضايا الملونين والمستعمرات فى العالم مرة أخرى فيما بعد .

أدت كل هذه التطورات والتنوع فى تفكير "ديبويس"إلى مواقف مختلفة أيضاً من القوى الأخرى المتحركة فى الفضاءات الزنجية داخل أمريكا وخارجها، فعلى المستوى الأمريكى دفعه منهج المطالبة "بالقوة السياسية" – وهو ماسمى بعد حركة الحقوق المدنية فى ستينات القرن العشرين "بالقوة السوداء"– إلى الخلاف الحاد مع بوكر واشنطن، الزعيم الزنجى خاصة فيما بين ١٨٩٥–١٩١٠ والذى كان قريبا من البيض، ويرى معهم المسعى التدريجى لتحقيق تحسينات فى وضع السود ولو منفصلين؛ ولذا اشتد الصراع بصدور كتاب "**روح الشعب الأسود**" عام ١٩٠٣ متضمناً آراء "ديبويس" وناقدا واشنطن بشدة ، وتبع ذلك تشكيل "ديبويس" لتجمع يضم السود باسم حركة "نياجارا" عام ١٩٠٦ حاول الانتظام بلقاء لممثليهم عند شلالات نياجارا على الحدود الكندية الأمريكية حيث لم تسمح له السلطات بالاجتماع على الجانب الأمريكى ! وقابل واشنطن ذلك بحشد السود المعتدلين وبعض الليبراليين البيض فى تنظيم باسم الرابطة الوطنية لتقدم الشعب الملون NAACP (١٩٠٩)، ظلت موالية للسلطة الأمريكية حتى خفت صوتها عقب الحرب العالمية الثانية، وتمثل ولاء هذه الرابطة فى قصر اهتمامها على التعليم الفنى والصناعى للسود وتوفير فرص العمل لهم وعدم التنظيم السياسى للسود بل فصل الاقتصاد عن السياسة، بينما كان ديبويس يهتم بالتعليم العلمى العالى وقيادة النخبة الذكية لتنظيمات السود من أجل الحقوق المدنية المتساوية مع البيض، حيث لن يوفر الاقتصار على التعليم الفنى إلا عمال أكفاء فى خدمة البيض مع القبول بحياة القهر .

ومثل خلافه مع بوكر واشنطن كان صراعه مع ماركوس جارفى (١٨٦٨–١٩٤٤) وكان بدوره زعيما غوغائياً أكثر شعبية من بوكر واشنطن ، اشتهر عنه تنظيم المهرجانات والتهييج السياسى وإقامة المشروعات التجارية بحجة تنمية اشتغال السود فى مجال الأعمال لمنافسة البيض، كما دعا السود للعودة لأفريقيا (فيما اسماه جورج باديمور بالصهيونية السوداء) واستأجر أسطولاً تجارياً أغرى به مجموعات زنجية

للسفر إلى السواحل الغربية لأفريقيا – أرض الآباء؛ وأقام لذلك مؤسسة ذات دعاية كبيرة باسم "**المؤسسة العالمية لتحسين أوضاع الزنوج UNIA**" وظل يهاجم "ديبويس" ويفسد عليه تنظيمه لمؤتمرات الوحدة الأفريقية (١٩٢١/١٩٢٣) بحكم شعبيته الغوغائية واتهامه "لديبويس" وصحبه بالنخبوية والانعزالية بل والسخرية منهم أمام جماهير السود بحيث فشلت مشاريعه هو نفسه بدا معزولا لعدة سنوات بل وسجن بسبب قضايا الرشوة والفساد ضده حتى عام ١٩٤١، ليؤسس "ديبويس" من بعده العمل الأفريقي الأكبر فى مؤتمر الجامعة الأفريقية الخامس فى مانشستر عام ١٩٤٥ .

ظل موقف "ديبويس؛ من السلطة البيضاء" فى أمريكا بل وخارجها محكا لوجوده فى مختلف أشكال التنظيم التى شارك فيها حتى وفاته عام ١٩٦٣، فعند فشل مشروعه لإقامة تنظيمه المستقل ذى الطابع السياسى "حركة نياجارا" عام ١٩٠٦ قبل الانضمام لرابطة الملونين NAACP المعتدلة ١٩٠٩ على أمل أن يدفع اتجاهها نحو مفاهيمه، لكنه سرعان ما اختلف مع قيادتها الموالية فى رأيه للبيض ، ورغم تعدد استقالته منها والعودة إليها فإنه قبل فى النهاية إشرافه على مجلتها الشهيرة باسم "**الأزمة Crisis** " حين قبلت الرابطة شروطه بالاستقلال بها كمدير للنشر والأبحاث فى الرابطة، وظل فى رئاستها لحوالى ٢٥ عاما وصل بتوزيعها من ألف نسخة فى بدايتها لحوالى مائة ألف فى العشرينات وأوائل الثلاثينات حين تخلى عنها نهائيا لأنه لم يستطع أن يتكيف مع حركة الرابطة نفسها بأى حال .

تميز اتفاق واختلاف ديبويس مع الاتجاهات اليسارية فى أمريكا وخارجها بوتيرة مختلفة؛ فقد بدأ كما رأينا بتحليلاته الاجتماعية اليسارية عن التكوين الاجتماعى الطبقى واستغلال الرأسمالية الأمريكية للعمال السود أميين أو مدربين ومتعلمين كما شاعت لهم بعض القيادات الزنجية نفسها ، وفى إطار التحليلات الاجتماعية وآثارها على الطبقات الشعبية وخاصة من السود وقعت اختلافات "ديبويس" مع اليسار الأمريكى بدرجات مختلفة مع تمسكه بيساريته بدليل إعلانه رسميا عضويته فى الحزب الشيوعى الأمريكى عام ١٩٦١ أى قبل وفاته بعامين فقط، ولكنه اختلف أكثر من مرة مع اليسار على مستوى عالمى، وبالنسبة للتحالفات فى هذا المستوى؛ كان ديبويس يرى – فى أكثر من مرحلة من حياته – أن الارستقراطية العمالية البيضاء ستفضل دائما الانحياز للطبقة الحاكمة البيضاء ضد الزنوج خوفا على عملها ، وضد الأفريقيين والصينيين والهنود خوفا على الخبز والزبد! -(أتلانتيك

مونتلى ١٩١٥) ، ومع ذلك يرى باحث مثل "إيمانويل جيس " أن "ديبويس" سبق لينين فى تحليله عن "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية " الذى أصدره الأخير عام ١٩١٧ وذلك بتحليله "للجذور الأفريقية للحرب الأولى ومنافسات الرأسمالية ضد الشعوب الملونة، وقد قدر "ديبويس" الثورة الروسية كثيراً وزار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٢٦ وكان قريبا من تنظيمات الكومنترن مع صديقه جورج باديمور انطلاقا من أن الدول الرأسمالية قد أرهقتها الحرب العالمية (الأولى) بما سيتيح فرصة لنهوض الشعوب الملونة، ولذا اتجه سريعا لتنظيم مؤتمر الجامعة الأفريقية الذى اعتبره الأول عام ١٩١٩ مستفيداً من دعم اليساريين فى باريس، ومن العناصر الزنجية التى شاركت فى الحرب وتأثرت بلقائها مع اليسار الأوروبى خلالها، لكن "الكومنترن" تنظيم الأمية الشيوعية غير موقفة من الحركات القومية التى أعلن "لينين" من أجلها "بيان تحرير شعوب الشرق" وفجأة تحول الستالينيون ضدها متهمين إياها بالبرجوازية وعمالة الاستعمار، فابتعد "ديبويس" وصديقه من جزر الهند الغربية جورج باديمور وبدأوا فى تفكير آخر حول "أممية الشعوب الملونة" التى برزت على خريطتها حركة الوحدة أو الجامعة الأفريقية. ورغم أن "باديمور" ذهب بعيدا فى تحولاته عن مكتب الكومنترن فى أوروبا خلال الثلاثينات إلى معسكر العداء للشيوعية تقريبا فى "المكتب الأفريقى" بسويسرا ولندن حتى كتابه عن "الجامعة الأفريقية أو الشيوعية ١٩٥٥ " إلا أن "ديبويس " لم يمض فى هذا الطريق، بل سار الهوينى فى طلب دعم معسكر الاشتراكية لتحرير الشعوب الملونة وخاصة الأفريقية، وشهد إعداده لمؤتمر حركة **الجامعة الأفريقية الخامس فى مانشستر ١٩٤٥**، وبعضويته فى حركة السلام العالمية تقاربا كبيرا مع الشيوعيين واليساريين، كما اقترب من حركات اليسار الأمريكية بأشكال مختلفة- وإن ليس عضويا- وظل ملتزما بالتحليلات اليسارية- وإن ليس ماركسيا- على المستوى العالمى والأفريقى، وهذا الإخلاص للفكر اليسارى فى مواجهة "الرأسمالية الإمبريالية" وفق تحليلاته المختلفة هو الذى جعله عرضه لمحاكمته وفق قانون التخريب المكارثى فى أمريكا فى الخمسينات واتهامه بالعمالة لدولة أجنبية وهو فى الثالثة والثمانين من عمره !

ثانيا: رحلته مع حركة الوحدة الأفريقية

كان لابد "لديبويس" لكى يدافع عن الزنوج فى الولايات المتحدة من جهة، ويستثير همتهم للنهوض المشترك أو المنفصل من جهة أخرى، ولكى يربط هذه النهضة بحقوق كل الشعوب الملونة أمام الاستعمار والرأسمالية العالمية من جهة ثالثة، أن يثبت للجميع حقائق "الحضور التاريخى" والاجتماعى للشعوب الأفريقية على أرض

الآباء، وأن يكشف ضلال مقولة "شعوب بلا تاريخ" التى راجت بين فلاسفة العقلانية الأوروبية الحديثة مثل هيجل وغيره بهدف نفى الشعوب غير الأوروبية من التاريخ وتأكيد حق الغزو والاحتلال والاستغلال "للبيض" وحدهم. وليس صدفة أن بدأ "ديبويس" مسيرته العلمية والنضالية معا فى قلب "هارفارد" بالدراسات التاريخية ثم السوسيولوجية لأوضاع الزنوج منذ عام ١٨٩٦ وأن يبدأ كشفه عن دور شعوب مصر واثيوبيا فى كتاب "**روح الشعب الأسود**" عام ١٩٠٣ ؛ ثم يعمق معارفه بأفريقيا وتقديمه لحضاراتها وتنوع ثقافاتها فى كتاب "**الزنجى**" عام ١٩١٥؛ وفى هذين الكتابين المبكرين تحديدا أكد "ديبويس" أنه لا يمثل "العنصرية المعكوسة" فهو يتحدث عن تراث الزنجى القوى القادم من الماضى السحيق فى أثيوبيا ومصر، وعن معنى ذلك وأثره فى تكوين الكرامة الإنسانية واحترام الذات التى هى الحماية الحقيقية للإنسان، ولذا ينشد أن يحققها الزنوج فى أمريكا بعد "إعلان التحرير" لأنه يشعر بسقوط الزنوج هنا مثل سقوط كوكب مصر وأثيوبيا من قبل. ثم يعود ديبويس فى "**الزنجى**" ليكرر أن اللون لم يكن فى ذاته أساس علاقة العبودية، فاليونانيون والرومان استرقوا الأوروبيين فترة، وكثر السود فى مصر عبيدا ونبلاء، وشاع الاسترقاق فى مراحل كثيرة بين الشعوب البدائية والملونة، وبعثت الأديان الأمل فى التحرير، ولكن السادة حولوا ذلك لكذبة!. هكذا بدأت نظرة "ديبويس" إنسانية منذ أول القرن. ومن هذا المنطلق كان يكرر بالتمجيد ذكر الصين والهند إلى جانب ذكر أفريقيا؛ لأنه تصور أن الحق لابد أن يكون إلى جانب الأغلبية، وهي فى هذا العالم أغلبية الشعوب الملونة. ومع ذلك كان يرى أن الصراع بين الأجناس لابد أن يكون للخير وليس لمجرد البقاء للأصلح، والتنافس بينها فى إطار اتصال الحضارات وليس القهر. ويمكن أن نشعر فى مراحل كثيرة من فكره كيف قدم "تحالف الملونين" ضد البيض كقوى للتحرر مقابل التفسير الطبقى الضيق، الذى قدمه اليساريون واختلفوا معه بشأنه.

وبين كتاب "**روح الشعب الأسود**" ١٩٠٣ و"**الزنجى**" ١٩١٥ وبعد ذلك مقال فى تاريخ وسوسيولوجية الجنس الزنجى ١٩٣٩ ثم "**العالم وأفريقيا**": دور أفريقيا فى تاريخ العالم ١٩٤٦ عقب الحرب الثانية. كان "ديبويس" يدفع بتفكيره عن الشعوب الأفريقية إلي الساحة الدولية ليمهد لضرورة "حصولها على الحكم الذاتى" – فيما بين الحربين ثم لتحريرها واستقلالها عقب الحرب ثم لتوحيدها مع حركة الاستقلال منذ الخمسينات. ولم يكن فهمه المبكر "للحضور الأفريقى" دفاعيا أو عنصريا بل كشف عن معرفة بالدراسات التاريخية حول هذه الشعوب بما جعله يكتب فصولا ممتعة عن الثقافات الأفريقية والفنون والصناعات القديمة، والتفاعلات المتبادلة من حضارات

زيمبابوى إلى لقاءات البربر والمور بالعرب والإسلام ودور نبتة ومروى وإمارة كوش فى وصل مصر بالحضارات الأفريقية، والمحافظة على طابع الممالك الأفريقية رغم وصول الإسلام غربا وشرقا... حتى دمر كل ذلك وصول الاستعمار الأوروبى. ولاشك أن القارئ الحديث سوف يدهش تماما لمعارف ديبويس عن "مناطق أفريقيا الخمس" "وادى النيل – حوض الكونغو ومنطقة البحيرات– بلاد السودان– خليج غينيا ونهر النيجر– جنوب أفريقيا" كمناطق تاريخية متصلة ومتفاعلة. وتدفعه هذه الثقافة الحديث عن حضور الزنوج فى ثقافة بين النهرين وبابل القديمة ومبادئ حامورابى، ويعرج على دلالة نفرتارى وعنترة الزنجيين فى الثقافة الفرعونية والعربية (**الزنجى**) لقد تأثر "ديبويس" كثيرا بفترة دراسته المحدودة فى برلين ١٨٩١ ولكن ذلك فتح له باب العودة لأوروبا مع مطلع القرن العشرين فى إطار حركات الجامعة الناهضة فى ذلك الوقت من السلافية للطورانية للإسلامية والعربية وحتى الصهيونية، وقد أعجب ببعض الحريات المتوفرة للزنوج فى فرنسا، وما أن وقعت الحرب العالمية الأولى حتى رأى تناقض استغلال الأفارقة فى الحرب مع تنامى وعيهم بالاستقلالية، وظهور الأدباء والمثقفين بينهم فى علاقة متطورة مع قرنائهم الأوروبيين، بل وتأثير الثقافة الأفريقية نفسها فى بعض جوانب الثقافة الأوروبية الحديثة والمتحررة... ولعل ذلك هو الذى جعله يرتب مؤتمرات حركة الوحدة الأفريقية فى العواصم الأوروبية وليس فى أمريكا، كما جعل خلافه داخل حركة تقدم الملونين NAACP يكثف حول التحرر الكامل من جهة، وطلب اللقاء بحركة التحرر الأفريقية من جهة أخرى، أو دعم استقلال الشعوب الأفريقية وليس مجرد شعار "العودة لأفريقيا" على نحو ما تاجر به أمثال ماركوس جارفى.

ورحلة "ديبويس" محملا بهذا التراث المعرفى عن أهله وعشيرته الزنجية ثم الأفريقية هى التى أثرت بدورها فى وضع حركة الوحدة الأفريقية فى موضعها من التاريخ الأفريقى الحديث كواحدة من أكثر حركات الوحدة– أو الجامعة– تفاعلا ؛ ورغم أنها عانت الكثير من المشاكل فى بنيتها الداخلية منذ إعلان بوادرها عام ١٩٠٠ حتى بدت شعبية ١٩٥٨؛ ثم أعلنت حكوميا على أرض القارة ١٩٦٣؛ فإنها تظل نموذجا لأهمية الدفاع المستمر والملهم عن روحية الشعوب ومن أجل الأفكار الكبيرة فى التاريخ. وقد يبعدنا استعراض "تواريخ" حركة الجامعة الأفريقية وتشابكاتها مع التطور السياسى فى أفريقيا عامة عن صلب حديثنا هنا عن "ديبويس" نفسه صاحب كتاب "**روح الشعب الأسود**" العلامة البارزة فى تاريخ الفكر الزنجى والأفريقى، وعن الطابع المتميز لحضور ديبويس فى الحركة الأفريقية عموما، وعلى القارئ أن يعود

لتفاصيل حركة المؤتمرات الأفريقية خارج القارة وعلى أرضها ليتابع أبعاد تأثيرات "ديبويس" في هذه الحركة. وتظل لبعض الأعمال الرئيسة عن حركة الجامعة الأفريقية أهمية خاصة في عرض جوانب من "ديبويس" وفق وجهات نظر مختلفة. وقد يكون كتاب جورج باديمور G. Pademore عن **"الجامعة الأفريقية أو الشيوعية"** ١٩٥٥ هوأوثق هذه المصادر مع انحيازه بعيدا عن توجهات "ديبويس" اليسارية، كما أن العمل الجدلي الآخر باشراف الجمعية الأمريكية للثقافة الأفريقية بعنوان pan african-ism reconsidered سنة ١٩٦٠ له أيضا اعتباره بحكم تعبيره عن نظرة الأفروأمريكيين (الزنوج) من جهة وجمعية الثقافة الأفريقية بقيادة إليون ديوب الفرنكفونية من جهة أخرى، وبين هذا وذاك يقف أهم عمل تحليلي جامع لإيمانويل جيس الألماني عام ١٩٦٨ وترجمته للإنجليزية ١٩٧٤ ليقدم أكثر التفاصيل تدقيقا عن حياة "ديبويس". حتى بدأ هجوم الكتابة الأنجلوفونية والفرنكفونية تحت عنوان الجامعة الأفريقية على يد كولين ليجوم أو فيليب ديكران، والقليل الأفريقي مثل كتاب "الجامعة الأفريقية أو الاستعمار الجديد" للكمروني أ. مبوينجا..... الخ.

وقد جرت تقييمات كثيرة حول "ديبويس"ودوره في حركة الجامعة الأفريقية ولذا نوجز هنا في عجالة معالم مؤتمراتها للقارئ العربي بتركيز على دور ديبويس:-

١-**المؤتمر التأسيسي**: عام ١٩٠٠ في لندن؛ وهو أول تجمع يعلن توحيد حركة الزنوج مع التطلع لمشاركة أبناء أفريقيا القارة، وكان انعقاده في لندن إشارة أولى بدورها لغلبة تأثير أبناء المستعمرات البريطانية بالخارج على الحركة. كما كان تزعم المحامي سيلفستر وليامز من أبناء ترينيداد (جزر الهند الغربية) إشارة أخرى لنفس المعنى. وتولى "ديبويس" الشاب وقتها سكرتاريته بدور محدود، ولكن المؤتمر في نفس الوقت كان هو التجمع الذي أعلن فيه "ديبويس" لأول مرة تعبير أن القرن العشرين هو قرن حاجز اللون، كما تحدث عن حقوق الشعوب الأفريقية في الحكم الذاتي وليس مجرد قضايا الزنوج في أمريكا.

٢-**المؤتمر الأول للوحدة أو الجامعة الأفريقية**: عام ١٩١٩ في باريس؛ جمع ممثلي الزنوج في جزر الأنتيل وأمريكا مع أبناء المستعمرات الفرنسية، وقد شارك فيه "ديبويس" بدور أكبر، حيث كان نجمه قد أخذ في الصعود وهو قادم من أمريكا ليضع جمعية تقدم الملونين ضمن المنظمات المراقبة في مؤتمر فرساي بعد الحرب الأولى، وكانت اضطرابات العمال الزنوج في واشنطن تعيش ما سمي "بالصيف الأحمر" بتأثير العائدين من الحرب ولم يجدوا عملا، كما كان بعض أبناء المستعمرات الفرنسية في باريس يتطلعون لدور أكبر بعد مساهمة أكثر من ٨٠ ألف

جندى من السنغال وحدها فى الحرب العالمية، وكوفئ أحد أبناء السنغال "بليزدياني" بترشيحه للبرلمان فاختارته جماعة "ديبويس" لرئاسة المؤتمر، وبهذا بدأت ديناميه "ديبويس" فى أوروبا بين عناصر متطلعة أكثر للتحرر، وترفع معه شعار" أفريقيا للأفريقيين" ، فى مقابل الاعتدال "والتعاون" مع البيض بين معظم القيادات الزنجية فى أمريكا.

٣-المؤتمر الثانى: ١٩٢١ فى لندن؛ حيث دعا إليه "ديبويس" بنفسه كمنظم رئيس، فى جو مواجهة لغوغائية "ماركوس جارفى" وشعار "العودة لأفريقيا"، وقد تمثل فيه أكثر الطابع الأفريقى حيث كان ثلث الأعضاء تقريباً من أبناء القارة مباشرة، وقد تولى سكرتاريته الفعلية الذى جعلها دائمة لمؤتمرات الوحدة. وأصدر "إعلانا عالميا" عن حقوق الشعوب الأفريقية. ولذا حرص"ديبُويس" على العناصر النشطة فى المستعمرات الفرنسية ودور فرنسا المتقدم فى نظرهم تجاه المستعمرات بعد الحرب، ثم انتقل بجلساته إلى "بروكسل" فى محاولة للتأثير على السياسة الأوروبية وخاصة فى الكونغو التى هوجمت سياسة بلجيكا فيها. ثم عاد عقب ذلك إلى باريس مع المجموعة الفرنكفونية المتعاطفة مع "ديبويس".

٤-المؤتمر الثالث: عام ١٩٢٣ فى لندن أولا، إلا أن تأثير أبناء أفريقيا فى البرتغال من خلال تنظيم "الرابطة الأفريقية" وتحت ضغط النظام البرتغالى واستعماله نظام السخرة بشكل صارخ جعل منظمى المؤتمر يتجهون لعقد بعض جلساته فى لشبونة. وقد صدر عن المؤتمر ""مانيفستو" جديد عن حقوق الشعوب الأفريقية تحدث عن حقها فى استعمال القوة والسلاح أمام السياسة الاستعمارية التى تتبع نفس الأسلوب، كما تحدث عن أوضاع التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وعن الحكم الذاتى والتنمية. وكان "ديبويس" فى تلك السنوات يعمق صلته بالاشتراكيين واليساريين فى أوروبا ويبدى إعجابه بالثورة الروسية السوفيتية فازدادت موجة اتهامه بالشيوعية وخاصة من قبل أتباع جارفى.

٥- المؤتمر الرابع: ١٩٢٧ فى نيويورك: كان استمراراً للضعف الذى بدأ يصيب الحركة إزاء عدم تغير السياسات الاستعمارية وقوة الاعتدال فى الجماعة الزنجية بأمريكا من حول "ديبويس". ورغم انهيار حركة جارفى تقريبا وزيارة ديبويس لأفريقيا عام ١٩٢٣ لأول مرة وانتشار مبادئ الحكم الذاتى وتطلع الأفارقة إلى الاستقلالية؛ فإن الخلاف مع حركة الكومنترن والأحزاب الشيوعية كانت أيضا وراء ضعف حركة المؤتمرات الأفريقية. واتهمت الحركة الشيوعية "ديبويس" ومعظم اليسار

الأمريكي بأنهم برجوازيون ولا يقدمون التفسير البروليتاري الأممي على رؤيتهم للوضع الخاص في أمريكا أو عن تحالف الملونين في العالم. وكان "ديبويس" يقدم شعار "يا شعوب المستعمرات والشعوب الملونة.. اتحدوا" على الشعارات الماركسية عن البروليتاريا العالمية التي رأى ديبويس أن ارستقراطيتها تتوحد مع الرأسمالية ضد الشعوب الملونة؛ ولذا أعلن أيضا مصطلح "الحرب ضد حاجز اللون" وليس الحرب الطبقية.

لعل مما يذكر هنا أن الحركة الشيوعية في أوروبا نظمت عام ١٩٢٧ مؤتمرا هاما في بروكسل باسم "الرابطة المعادية للإمبريالية" جمعت فيها بعض أنصار مؤتمرات الوحدة الأفريقية بدون "ديبويس" وعددا من الشخصيات العالمية حتى من غير اليساريين مثل نهرو وأينشتين حيث عالج المؤتمر بعض قضايا العنصرية "والمسألة الزنجية بخط ماركسي لينيني"، إلا أن هذا الخلاف مع الخط الوطني الأفريقي على أنه إطار البرجوازية العالمية أو المحلية قد أحدث انشقاقا طويلا في الحركات الوطنية استمر لما بعد الحرب العالمية الثانية؛ ومع ذلك فإن "ديبويس" ظل على صلة طيبة بدوائر الاتحاد السوفيتي وقام بزيارته عام ١٩٢٧ بل وحد من علاقته بمنظمة تقدم الملونين في أمريكا حفاظا على خطه "اليساري الوطني".

في تلك الفترة من العشرينات والثلاثينات أيضا تعرف "ديبويس" على "محمد على دوس" المصري السوداني الوحدوي الأفريقي (١٨٦٧/١٩٤٤)، وكان بينهما تعاطف محدود مصدره إيمان "دوس" مثل "ديبويس" بقضية الشعوب الملونة نظرا لارتباط "دوس" بالشعوب الإسلامية، وبالعثمانيين.. الخ، ولكن "ديبويس" كان يتحفظ على ميول "دوس" نحو "جارفي" وحركته بل ومنهجه أحيانا، فظل دوس وصحيفته "الأزمنة الأفريقية والشرق" بعيدين نسبيا عن حركة الجامعة الأفريقية بزعامة "ديبويس".

تأثرت حركة الوحدة الأفريقية أيضا- سلبيا- بعزلة الأفارقة في باريس سواء في إطار السياسة الفرنسية المبشرة "بالاندماج"- على وعد بالمساواة العنصرية (بليزندياى)- أو لظهور حركة الزنوج "النجريتيد" والتيار "الثقافاتي" عموما بين الشخصيات البارزة من الفرنكفونيين (سيزير- سنغور) وحتى "شيخ أنتا ديوب" الاستقلالي صاحب "الأصل الأفريقي للحضارة الفرعونية".

وبدرجات مختلفة حال ذلك دون تنظيم مؤتمرات الوحدة الأفريقية بعد مؤتمر ١٩٢٧، رغم محاولة ديبويس عقد المؤتمر الخامس في "تونس" عام ١٩٢٩ ليجمع بين

ميله في عقد أحد مؤتمرات الحركة على أرض أفريقية، ورغبته في ترضية الفرنكفونيين؛ الأمر الذى حالت دونه السياسة الفرنسية نفسها في شمال أفريقيا، خاصة وأن العرب من هذه المنطقة في باريس لم يكونوا بعد قد بلوروا توجهاتهم الاستقلالية عن فرنسا.

المؤتمر الخامس: في مانشستر ١٩٤٥: استعاد هذا المؤتمر كثيرا من عناصر قوة حركة الوحدة الأفريقية وربط مباشرة بين روحيتها وبين حركة التحرر الوطنى في مختلف مناطق العالم عقب الحرب العالمية الثانية، وقد ترك "ديبويس" هنا هامش الحركة لعناصر الشباب الجدد (باديمور- نكروما- كنياتا- أزيكوى..) أبناء المستعمرات الراغبين في التحرر، وليس مجرد حصاره وسط "الزنوج" في أمريكا بعد انعتاقهم الصورى الذى جذبهم للاعتدال مع البيض. وبسبب هذه الروح الشابة والحركية التي بدت في "إعلان المؤتمر" الذى نشر مشروعه مبكراً، لم يحضر أحد من زنوج أمريكا (الأفرو أمريكيين) تقريبا كما لم تحضره جماعة "الفرنكفونية" والنجريتيد من باريس!

لكن في المقابل حضره ٢٦ وفداً من أفريقيا نفسها، غربا وشرقا وجنوبا، كما حضرته مجموعات مراقبة من تنظيمات الملونين في إنجلترا وأوروبا، وكانت الوفود الأفريقية ممثلة لنقابات عمالية وتنظيمات فلاحية ومثقفين بشكل أساسى، وتضمن جدول أعماله برئاسة "ديبويس" موضوعات عن الإمبريالية والسياسات الاستعمارية في مختلف مناطق القارة حتى الشمال منها رغم غياب ممثليها، كما سيطرت نغمة يسارية على تحليله الطبقى والميل إلى حركة السلام العالمية وإن التزم في أساليب النضال بعدم العنف واتباع أساليب الإضراب والمقاطعة، وأكد المؤتمر اتجاه الحركة الوطنى بشعار "يا شعوب المستعمرات ورعاياها في العالم... اتحدوا" التزاما بالتحرر الوطنى وتميزا عن الدعوة السابقة "للشعوب الملونة" واختلافا عن دعوة "يا عمال العالم اتحدوا"، وخدمت غلبة الماركسيين الوطنيين في التخفيف من هجوم الدوائر الشيوعية على المؤتمر خاصة وأن "ديبويس" الأب الروحى لم ينعزل عن حركة" السلام العالمى" ولا توقفت ضده المحاولات الأمريكية لعزله.

ثالثا: "ديبويس" في أفريقيا: انطلق الشباب بعد مانشستر في حركة النضال الوطنى في بلادهم حتى قاد معظمهم حركة الاستقلال فيها ، بل وأصبح معظمهم في قيادة هذه البلاد كما هو معروف؛ ورغم ميل معظمهم للاعتدال إيمانا بالتدرج نحو الاستقلال فقد بقيت دعوة الوحدة الأفريقية على أرض القارة مرتبطة باسم "جورج بادمور" و"كوامى نكروما" بوجه خاص، ولا يحتاج تاريخ الأخير مع هذه

الدعوة لمزيد من بيان. لكن نكروما كان طموحا وورومانسيا أو خياليا إلى حد كبير، كما كان أكثر تأثرا بجورج بادمور الذى بدا انتهازيا وإقصائيا بينما ظل "ديبويس" الذى بلغ منتصف الثمانينات عند استقلال غانا ١٩٥٧، محافظًا على وقاره العلمى الاشتراكى، وقد دعاه نكروما للإقامة فى غانا، ومنحه كل إمكانات تحقيق حلمه لإصدار الموسوعة الأفريقية، بينما تولى "باديمور" مكتب الشئون الأفريقية لمحاولة الاستمرار فى تفعيل حركة الوحدة الأفريقية من الأرض الجديدة المحررة بقيادة نكروما، وفى إطاره هذا رتب لانعقاد "مؤتمر جميع الشعوب الأفريقية" بكرا فى ديسمبر ١٩٥٨ بعد عقد مؤتمر الحكومات الأفريقية في إبريل من نفس العام، وكان "ديبويس" قد أرهقه المرض فأرسل لمؤتمر الشعوب الأفريقية – الذى بدا له وكأنه السادس لحركة الوحدة الأفريقية وإن لم يسمى كذلك – رسالة شهيرة قرأتها زوجته شيرلى جراهام امام المؤتمر وكأنها وصيته إلى جيل الوحدة الأفريقية الصاعد، وهى جديرة فى حد ذاتها بالدراسة كرسالة نهاية العمر، وفى اختصار شديد نجمل منها إشاراتها التى تكشف بعض ما أراد "ديبويس" أن يهمس به للشعوب الأفريقية أو بالأحرى لقادتها المجتمعين فى أكرا: فهو يتساءل عن أى طريق تمضى فيه أفريقيا، ليجيب أنه ليس بالقطع فى اتجاه الرأسمالية وإنما طريق الاشتراكية. وهو يرى أن ذلك هو الطريق الذى أفاد الاتحاد السوفيتى والصين، وتقترب منه الدول الإسكندنافية، وله آثاره فى بريطانيا وفرنسا وحتى فى النيوديل الأمريكى. إنه ليس بالتأكيد تحكم ستين مؤسسة أمريكية رأسمالية فى المجتمع. ثم يصف "ديبويس" وضع القبيلة فى أفريقيا كنموذج بدائى للدولة ولكن الفرد يعتبر حريته من حريتها. ويمنحها جهده ودمه، وهذا ما حدث فى الاتحاد السوفيتى والصين،ويتطلع أن يفعل ذلك الأفارقة. ويحذر بعد ذلك من ارتباط الأفارقة بالبيض الرأسماليين، لأن التحالف ممكن مع البيض بطريقة أخرى على أساس الاشتراكية. فالرأسماليون يستغلون الشعوب فى آسيا والشرق الأوسط وأمريكا الجنوبية، ولا مفر بعد دعوته للتضحية– مثل الذين قاتلوا الاستعمار من قبل– أن يتحد الأفارقة تحت شعار الوحدة الأفريقية الاشتراكية...

واعتقد أن دعوته الاشتراكية هذه هى التى حدت من الدعاية الواسعة له بين النظم الأفريقية الجديدة؛ التى قام معظمها على عدم الاصطدام الحاد بالقوى الاستعمارية وتبنى مضمون اجتماعى أكثر اعتدالاً بعد حصولهم على الاستقلال، وقد ذهب "ديبويس" فى تحديه للنظام الرأسمالى الأمريكى إلى قبوله عضوية الحزب الشيوعى فى أمريكا عام ١٩٦١ بعد أن عزف عن ذلك كثيراً حتى حاكمته المكارثية فى الخمسينات كما رأينا. ولكنه هرب من النظام الأمريكى إلى غانا حيث توفى عام ١٩٦٣ .

يشـهد الكثيـرون أن الدوائر الأكاديمية الأمريكية مثل معظم الدوائر المحافظة الشبيهة خارج القارة لم توف "ديبويس" حقه من الدراسة والاهتمام وإن كانوا قد تأكدوا جميعا من قيمته وثقل تراثه بين المثقفين الأفارقة والحركات الأفريقية المختلفة. بل لقد مات فى نفس الشهر الذى تحركت فيه جموع السود نحو واشنطن فى المسيرة الكبرى الشهيرة للحقوق المدنية. وقد تطلب الأمر بضع سنوات حتى اعترفت صحيفة أمريكية كبرى مثل "وول ستريت" فى ٢٣ فبراير ١٩٦٨ نقلا عن دراسة للخارجية الأمريكية أن "ديبويس" " قد أصبح قبل وفاته بقليل أشهر الشخصيات العامة الأمريكية وأكثرها شعبية فى أوساط المثقفين الأفريقيين"." ومن قبل ذلك قال عنه مارتن لوثر كينج "إن التاريخ لا يستطيع أن يتجاهل "ديبويس" لأن التاريخ لابد أن يعكس الحقائق... وكان "ديبويس" مكتشفا لا يكل للحقائق الاجتماعية عن شعبه.. وقليلون من فعلوا مثله".

وقد انتبه مثقفو الجماعة الأفرو أمريكية فى الولايات المتحدة عقب ذلك لأهمية اسمه لهم رغم سيادة الاتجاهات المحافظة بينهم، فأعلنوا شهر مولده- فبراير ١٨٦٨- ضمن حيثيات كون فبراير شهراً "للتاريخ السود" Black History يحتفى به سنويا فى أنحاء الولايات المتحدة كما قررت جامعة هارفارد إقامة قسم للدراسات الأفريقية باسم "ديبويس" عام ١٩٦٩ ، واشترت جامعة ماساشوسيتس كل أعماله وطبعتها فى ٣٨ مجلدا كما تبنت إقامة مؤسسة "ديبويس" فى إطارها لرعاية تراثه، أما على المستوى الأفريقى... فقد كان لسقوط نظام نكروما فى فبراير ١٩٦٦ أثره فى السكوت عن تراث ديبويس ومشروعه للموسوعة الأفريقية حتى تبنتها حكومة "رولنجز" فى السبعينات وأصدرت منها أعدادا محدودة لا تذكر كثيراً على المستوى الأفريقى.

والآن .. ها نحن فى القاهرة، نعود لنذكره بعد أكثر من ثلاثين عاما مما كتب عنه فى الستينات تاليفا أو ترجمة، لنقدم اليوم ترجمة كتابه "**روح الشعب الأسود** souls "of African Folk الذى نشر عام ١٩٠٣ ، ذلك الكتاب الذى قيل عنه أنه "إنجيل الأفرو أمريكيين وحركتهم للتحرر وفى سعيهم للحقوق المدنية"، فهو صورة اجتماعية حقيقية لواقع الزنوج الأرقاء الذين نقلوا بالملايين من أفريقيا لمزارع "العالم الجديد"، ينتقل فيه من بؤس الفرد الزنجى لوضع الجماعة البائس مع البيض الذين ينكرون- سادة وعاملين - حقوق السود الذين بنوا الحقائق على هذه الأرض. وقد جاءت ترجمة الأستاذ أسعد حليم الأدبية للنص، لتصدر عن نفس الروح الشاعرية بل والغنائية التى كتب بها "ديبويس" فصول كتابه، دراسة فى التاريخ، وتحليلا سوسيولوجيا، ونصوصا شعرية أقرب للتراث الشفاهى الزنجى. بل وتحشد عناوين

فصوله مقاطع من ذلك التراث الأسطورى والرسائل "المشفرة" التى كان العبيد يحملونها للنص لتصل ما بين المسترقين من أقصى الجنوب لقرنائهم فى الشمال.

فالكتاب رحلة فى قلب الواقع الزنجى الذى كافح من أجله وليم "ديبويس" وكتب عنه عام ١٩٠٣ وبقيت صورته قريبة مما يتضمن الكتاب حتى مات من أجله مارتن لوثر كنج عام ١٩٨٦

وإذ يقدر المثقفون العرب للمجلس الأعلى للثقافة فى مصر وأريحية الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس بتشجيعه مشروع ترجمة عدد من الأعمال الأفريقية الهامة ضمن المشروع القومى للترجمة، فإن وضع كتاب "وليم ديبويس" فى مقدمة هذا المشروع إنما يعتبر من إنجازات الثقافة العربية الأفريقية فى مصر الجديرة بكل التقدير والعرفان.

ولأن "ديبويس" لم يكن مجرد مفكر ورائد ثقافى أفريقى وإنما كان أديبا وشاعرا، كتب النصوص الأدبية والشعر، ولأنه فى كل نصوصه الفكرية لم يتجاهل وضع مصر فى قلب حديثه عن الثقافات الأفريقية، فإنه لم ينسها أيضا بشعره فى إحدى لحظاتها الحاسمة، فى معركة السويس، وكتب لها قصيدة **"السويس"** دعماً لمواجهتها القوى الاستعمارية عام ١٩٥٦، ولا يسعنى إلا أن اختم هذا النص بأبيات قليلة من قصيدته تلك، وهو الذى حرص فى كل فصول كتاب **"روح الشعب الأسود"** أن يصدرها بالشعر: وهو هنا يحيى مصر الشابة ويدين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الذين يملؤهم الحقد على نهضة الملونين الذين يعيشون على أرض محمد وموسى وعيسى ليقول بكلمات بسيطة:

نهضت مصر الشابة وأمسكت بقناتها

قالت: ما هو لى.. فهو لى

سخرت منها أوروبا العجوز وصاحت

إن الكلب لابد أن يتعلم كيف يعوى

* * *

صرخت إسرائيل الصغيرة صرخة مدوية

"هل يركب فرعون من جديد؟!

لكن ناصر أشار للغرب بنظرة نافر

"لقد انقلب السحر على الساحر"

* * *

وبعد أن يستعرض ديبويس أطراف المعركة فى خمسة عشر رباعية يقول:

* * *

إلى الشرق... تتجه الطبول بالغناء

وتعلو الشمس المشرقة عالية فى الآفاق

وترفع أفريقيا رأسها... إلى السماء

لترى كل آسيا .... تشتعل... حمراء

* * *

كلمة أولى

هنا ترقد أشياء كثيرة إذا قرئت بصبر وأناة، قد تكشف عن المعنى الغريب لأن يكون المرء أسود اللون هنا عند فجر القرن العشرين، وهذا المعنى ليس بعيداً عن اهتمامك يا عزيزى القارئ، لأن مشكلة القرن العشرين هى مشكلة فارق اللون.

ولذا أرجوك أن تتقبل كتابى الصغير هذا بنية حسنة، وأن تدرس معى كلماتى، وأن تغفر لى أخطائى وضعفى تقديراً لإيمانى واهتمامى، وسعيا إلى تلك الفضلة من الحقيقة المختفية فيها.

لقد حاولت هنا أن أرسم بخطوط عامة غير مؤكدة العالم الروحى الذى يعيش ويجاهد فى ظله عشرة ملايين من الأمريكيين؛ وحاولت أولا– فى فصلين – أن أعرض ما كانت كلمة "الانعتاق" تعنى لهم، وماذا كانت النتائج التى ترتبت عليها. وفى الفصل الثالث أشرت إلى النهوض البطىء للقيادة الشخصية، وانتقدت بصراحة الزعيم الذى يحمل العبء الرئيس لقومه اليوم، ثم رسمت فى فصلين آخرين بخطوط سريعة العالمين القائمين داخل "الحجاب" وخارجه، وبذلك وصلت إلى المسألة الجوهرية وهى تدريب الناس على الحياة ، وبذلك تجاسرت على الدخول إلى تفاصيل أعمق، فدرست فى فصلين صراعات الألوف المؤلفة من الفلاحين السود، وسعيت فى فصل آخر لتوضيح العلاقات الحالية بين أبناء السيد والمسود.

وعلى ذلك فإنى خرجت من العالم الأبيض وخطوت إلى داخل "الحجاب" ورفعته حتى تتمكنوا من إلقاء نظرة عابرة على جوانبه العميقة ومعنى ما ينطوى عليه من إيمان، وعمق الأسى البشرى، ونضال ما يقطنه من أرواح عظيمة، وختمت ذلك كله بحكاية رويت مرتين ولكنها نادراً ما كتبت، ثم أضفت فصلا من الأغانى.

وقد رأى بعض أفكارى هذه النور فى صورة أخرى، وعند التفضل بقبول إعادة نشرها هنا، فى صورة مختلفة وأكثر طولا ينبغى أن أتقدم بالشكر للناشرين .

وقد وضعت فى صدر كل فصل ، فى الطبعة الإنجليزية ، لحنًا من " الأغانى الحزينة" : صدى من الأنغام التى تأخذ بخناقنا من الموسيقى الأمريكية الوحيدة التى نبعت من الأفئدة السوداء فى الماضى المظلم .

وأخيراً هل ينبغي أن أضيف أنني المتحدث هنا انتمي إلى لحم وعظام هؤلاء الذين يعيشون في داخل "الحجاب" ؟ (١)

بعد أن انقضى خمسون عامًا

في أواخر القرن التاسع عشر تكونت في شيكاغو حركة من أجل إنشاء مركز أدبي ودار للنشر في الغرب الأوسط (ميد ويست)، وشرع آل برون ، الأب والأبن ، محررا دار A.C Mc / Clurg وشركاهم في البحث عن مؤلفين من الشبان غير المعروفين، وكنت قد نشرت لتوى أول كتابين لي: "تاريخ قمع الإتجار في العبيد الإفريقيين ونقلهم إلى أمريكا"، الذى نشر باعتباره الجزء الأول من "دراسات هارفارد التاريخية" في عام ١٨٩٦، وقامت جامعة بنسلفانيا بنشر كتابي "زنوج فيلادلفيا" في عام ١٨٩٩، وكنت قد كتبت أيضًا بعض المقالات التي قبلتها مجلتا Atlantic Monthly Dial وبعض الدوريات الأخرى.

وحوالى سنة ١٩٠٠ تلقيت رسالة من محررى M.c. / Clurg يسألان عما إذا لم يكن لدّى مادة جاهزة لكتاب يستطيعان أن ينظرا فى نشره، وكنت فى ذلك الوقت شرعت لتوى فى العمل لدى جامعة أتلانتا والذى كنت آمل أن يكون عمل حياتي وكان هدفي أن يكون دراسة واسعة النطاق وشاملة بشأن "مشكلة الزنوج في الولايات المتحدة، وأرسلت الخطوط العامة لهذا المشروع إلى المحررين، ولكنهما كانا يريدان بطبيعة الحال شيئًا أضيق نطاقًا موجه إلى الجمهور العام؛ وعلى ذلك شرعت في تجميع بعض مقالاتي التي نشرت والتي لم تنشر وأضفت إليها عدداً قليلاً من المقالات الجديدة .

وقد رضيا عن الكتاب المقترح وعرضا علىَّ نشره، وترددت في الأمر، لأني كنت واثق من أنه لو أتيح لى قدر أكبر من الوقت والفكر لاستطعت أن أقدم شيئا أفضل، وكان الكتاب المقترح غير مستكمل وغير مرض من نواح عديدة، ولكني في نهاية الأمر

١- وليام إدوارد بورجرت دبيوا (١٨٦٨-١٩٦٤) أمريكي أسود من قادة حركة الحقوق المدنية، ولد في جريت برينجتون بولاية ماساشوستس، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد (١٨٩٥)، وقام بتدريس الاقتصاد والتاريخ في جامعة أتلانتا (١٨٩٧ - ١٩١٠ثم ١٩٣٢ - ١٩٤٤) وكان من أول الداعين إلى المساواة العنصرية الكاملة والمباشرة، وشارك في ١٩٠٩ في إنشاء "اللجنة القومية للزنوج" التي أصبحت في ١٩١٠ "الرابطة القومية لتقدم الملونين" وقام بتحرير مجلة هذه الرابطة التي سميت "الأزمة The Crisis" حتى سنة ١٩٣٢ وكان في سنواته الأخيرة يدافع عن تحرير السود على النطاق العالمي ويدعو إلى الوحدة الإفريقية، ثم انضم إلى الحزب الشيوعي في سنة ١٩٦١ وانتقل إلى غانا، وقد ألف كتبا عديدة، من بينها سيرة ذاتية نشرت في سنة ١٩٦٨ (المترجم)

استجمعت شجاعتى وأرسلت المخطوطة، وقبل ٥٠ سنة من الآن نُشر هذ الكتاب، وقد استقبله الجمهور استقبالا حسنا، وخلال الجيل التالى نشر فى عدة طبعات .

وأكثر من مرة قررت تنقيح الكتاب وجعله أقرب إلى أفكارى ومراعيًا ما وجه له من انتقادات، ولكنى ترددت فى ذلك أيضًا وقررت فى النهاية أن أترك الكتاب بصورته الأولى باعتباره دليلا على ما كنت أفكر فيه وأشعر به فى سنة ١٩٠٣، وكان لدى أمل أن أتمكن فى كتب أخرى من توضيح ما طرأ من تغيير على الوقائع وردود الأفعال.

وفى هذه " الطبعة التذكارية" تمسكت بهذا القرار ، وهاهى الأفكار التى راودتنى منذ خمسين عامًا تنشر مرة أخرى كما كتبت فى ذلك الوقت، وفى حالات قليلة فقط أدخلت نحو ست أو خمس تعديلات فى العبارة أو الصياغة ولكن دون تغيير لأفكارى كما أوضحتها من قبل ولكن لمجرد ألا يحدث اليوم سوء فهم لما أردت أن أقوله بالأمس.

وعندما أعدت قراءة هذه الرسائل التى كتبت منذ نصف قرن، أشعر بأن هناك أمرين لم يكن تركهما إغفالا لهما من جانبى بقدر ما هما مؤشران عما لم أكن أعرفه فى ذلك الوقت أو لم أكن أدركه: أحدهما تأثير فرويد والعاملين معه فى دراستهم لعلم النفس، والآخر هو الأثر الهائل لكارل ماركس على العالم المعاصر.

وباعتبارى دارسا لجيمس وسانتيانا وروييس، لم أكن على غير استعداد للثورة التى أحدثها القرن العشرون فى علم النفس، ولكن كتابى هذا لا يسمح بالقدر الكافى للأفكار غير الواعية ودور العرف فى نمو وتأثير التحيز العنصرى.

ولم تتجاهل دراستى الجامعية كارل ماركس تجاهلا تاما، فقد كان يشار إليه فى هارفارد ويؤخذ فى الاعتبار فى برلين، ولم يكن الأمر إهمالا لكنه لم يحظ بالاهتمام الواجب أو الإدراك الوافى بين أساتذتى بشأن الثورة فى الفكر والعمل التى أرادها ماركس، ولذا فإنى ربما أنهى هذه النظرة على الماضى بقولى: إنى مازلت أرى اليوم كما كان الحال بالأمس أن مسألة اللون مشكلة كبرى فى هذا البلد. ولكنى أرى اليوم بوضوح أكبر من الأمس أنه فى خلفية مشكلة العنصر واللون هناك مشكلة أكبر تخفيها وتبرزها: وهى حقيقة أن ثمة عددا كبيرا من الأشخاص المتحضرين على استعداد لأن يعيشوا مرتاحين حتى إذا كان ثمن ذلك هو فقر أغلبية إخوانهم وجهلهم ومرضهم، وأنه من أجل الحفاظ على هذا الامتياز شن الناس الحروب، بحيث أصبحت الحرب اليوم شاملة ومستمرة، ومازال مبرر هذه الحرب هو إلى حد كبير اللون والعنصر.

تعليقات

فى إبريل ١٩٠٣ صدر كتاب صغير الحجم نشرته دار A. C. Mc Clurg وشركاه بعنوان" THE SOULS OF BLACK FOLK "اجتذب الانتباه فى كل مكان تقرأ فيه اللغة الإنجليزية، وكان هذا صحيحًا بالرغم من أن الكتاب قد كتبه "شخص من جنس محتقر فكريا ولا يعتد به" فى وقت لم تكن فيه أية مطبوعة أمريكية أو إنجليزية تكتب كلمة زنجى Negro باستخدام حرف N الكبير.

ولم يكن لشروق القرن العشرين أن يفعل شيئًا لتبديد الظلام الكثيف المخيم على الزنوج الأمريكيين، وفيما يتعلق بهؤلاء السود كانت هناك لا مبالاة متجهمة تخيم على البلد، وكان "الانعتاق" الذى دعا إليه أبراهام لينكولن، والوعد بالتشكيل الجديد قد جاء ومضى، وكان الإرهاب والقيود والإذلال تقيد خطى الرجل الأسود، وكان الأمريكيون النشطون قد ضاقوا ذرعا بالمشاكل العنصرية.

ثم ووجه الجمهور غير المتأهب بصدور هذا الكتاب، فأثار الدهشة والإعجاب وكذلك الارتباك والحيرة فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب، وجاء فى أحد التعليقات الأولى "إن عنوان هذا الكتاب لمسة عبقرية !" وأعقبت ذلك تعليقات عديدة على الكتاب تشيد به بعبارات مفرطة، واعترف "الثقات بشأن مشكلة العنصر" الذين أصابتهم الصدمة بأن الكتاب مكتوب "بأسلوب شاعرى" ولكنهم شككوا فى قيمته العلمية، وآخرون هاجموه أشد الهجوم.

لكن الكتاب لم يقابل بالإهمال فى أى مكان، ونشرت مجلة "Atlanta Constitution" الصادرة فى جورجيا ثلاث أعمدة عن الكتاب ومؤلفه، وختمت عرضها بقولها: "ينبغى أن نتذكر أنها أفكار زنجى حاصل على تعليم شمالى وعاش بين أشقائه فى الجنوب، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يشعر تماما بمعنى بعض الأشياء التى يعرفها هؤلاء الأشقاء بالغريزة - والتى يعرفها الأبيض المولود فى الجنوب بغريزة مماثلة - وهى أشياء يتقبلها كلاهما على أنها حقائق واقعة"، وحذرت جريدة صادرة فى تينيسى من أن "هذا الكتاب من الخطر أن يقرأه الزنوج، لأنه لن يفعل شيئا غير إثارة السخط وملء خيالهم بأشياء لا وجود لها، أو أشياء يجب ألا تنطبع فى عقولهم".

ومن خلال المناقشات الواسعة والمريرة التى ثارت فى الصحف ومن فوق منابر الكنائس وبين المعلمين نشأت أسطورة مازالت قائمة بيننا: أسطورة العداء المستحكم بين ديبوا وبوكر واشنطن.(١)

وفى البداية، لم يدخل الزنوج المعمعة. فقد امتلأوا كبرياء. فها هو واحد منهم قد دفع عالم البيض العظيم إلى الحركة ! وكانت عبارات الإشادة وأصوات القلق تسقط على آذانهم كالموسيقى العذبة. وعندما تمكن شباب الزنوج من الحصول على الكتاب كانوا ينصتون إلى صفحاته وعيونهم تلمع بالانفعال. وكانت شفاههم تنطبق وهم يقرأون، وعقولهم تتسع وعضلاتهم تتضخم. وكانوا يتداولونه فيما بينهم بشغف. بالنسبة إليهم كان القرن الجديد قد بدأ لتوه !.

وفى ذلك الربيع من عام ١٩٠٣ كتب فى جريــدة "Commercial Advertis-er" الصادرة فى نيويورك يقول:

"فى هذا الوقت الذى اتخذ فيه التحيز العنصرى فجأة صورة مبالغا فيها، عندما نشهد فى كل يوم تقريبا انفجارا جديدا فى موقع غير متوقع، فإن كتاباً من هذا النوع، كتبه زنجى بإيمان راسخ بالقدرات الموروثة لدى جنسه، لا يمكن إلاّ أن يعتبر أمرا صحيحا ومفيدا".

وقد طبع هذا الكتاب أربعا وعشرين طبعة فى الولايات المتحدة، مع طبعات عديدة أخرى فى الخارج، وكان الرجال السود الذين يحفرون قناة بنما يقرأون الكتاب ويحملونه معهم إلى أوطانهم فى جامايكا أو بربادوس، وكان ذوو البشرة الملونة فى "الجنوب الجوانى" يضعون الكتاب جانبا ويتطلعون إلى حقول القطن الممتدة ويقولون عن يقين "هذه أرضنا ! " وهناك جيلان من الزنوج ظلا يتداولان نسخ الكتاب فيما بينهم حتى اتسخت صفحاته وتمزقت، وفى غضون ذلك نشبت الحروب العالمية، وجاء الكساد، وأصبح صوت الشعوب ريحا عاصفة تهب عبر الأراضى.

(١) بوكر تاليفارو واشنطون (١٨٥٦ – ١٩١٥) من كبار رجال التعليم الأمريكيين السود، ولد فى مدينة فرانكلين ابنا لأحد العبيد واشتغل فى أفران الملح ومناجم الفحم بعد الحرب الأهلية، إلى حين تمكن من دخول معهد هامبتون.وفى سنة ١٨٧٩ أصبح مدرسا بذلك المعهد وأنشأ مدرسة ليلية فى ١٨٨١ ووقع عليه الاختيار لتنظيم مدرسة عادية ومدرسة صناعية للسود فى مدينة تاسكجى، وتحت إدارته أصبح معهد تاسكجى واحدا من أهم معاهد تعليم السود، يركز اهتمامه على التدريب الصناعى باعتباره وسيلة لاحترام النفس والاستقلال الاقتصادى، وكان خطيبا مفوها ولكنه كان موضع معارضة من جانب كثيرين من الزعماء السود، ومن بينهم ديبوا لأنه كان يرى أنه لا يجدى السود أن يطالبوا بالمساواة الاجتماعية قبل أن يحققوا الاستقلال الاقتصادى، نشر مؤلفات عديدة من بينها سيرة ذاتية بعنوان Up from Slavery (١٩٠١).

وعندما نشر هنرى جيمس دراسته الشاملة "THE AMERICAN SCENE"(طبعة سكربنر، ١٩٤٦) قال: كيف جرت الأمور بحيث إن الكتاب "الجنوبى" الوحيد الجدير بالذكر والذى نُشر خلال سنوات طويلة هو كتاب"THE SOULS OF BLACK FOLK" الذى كتبه ذلك العضو المتميز فى الجنس الزنجي، السيد W. E. B. Du Bois

لقد مر خمسون عاما منذ نشر الكتاب لأول مرة (*)، والدورة تدور ببطء، ويبدو المجال الآن أرحب كثيرا. فالعالم كله اليوم مدعو لتقديم الحساب للملونين من أبنائه، ولذا فقد آن الأوان "ونحن نرى فى كل يوم تقريبا شجارا جديدا فى مكان غير متوقع" لأن نعيد نشر هذا الكتاب الذى كتبه زنجى "بإيمان راسخ بالقدرات الموروثة لدى جنسه".

شيرلى جراهام

(*) تشير الكاتبة إلى طبعة ١٩٥٣ التى ترجمنا عنها هذا العمل (المترجم) .

الفصل الأول

عن جهادنا الروحى

بينى وبين العالم الآخر هناك دائما سؤال لم يُسأل: لم يسأله البعض بسبب الكياسة، ولم يسأله آخرون بسبب صعوبة وضع صيغة له، ومع ذلك فإن الجميع يحومون حوله، وهم يقتربون منى بشىء من التردد، وينظرون إلىّ بفضول أو بإشفاق، ثم بدلا من أن يقولوا مباشرة: ماذا يكون الحال عندما تشعر بأنك مشكلة؟ يقولون إنى أعرف رجلا ملونا ممتازا فى مدينتى، أو يقولون: لقد قاتلت فى ميكانيكسفيل، أو ألا تشعر بأن هذه الاعتداءات الغاشمة فى الجنوب تثير غضبك؟ فى مواجهة هذه الأقوال فإنى أبتسم، أو يتحرك فضولى، أو أخفض الغضب إلى قلق بسيط، على نحو ما يتطلبه الموقف، وأما بالنسبة للسؤال الحقيقى: ما موقفك عندما تشعر بأنك مشكلة؟ فإنى نادراً ما أرد بشىء.

ومع ذلك، فإن شعور المرء بأنه مشكلة هو شعور غريب ، حتى بالنسبة لامرئ لم يكن فى أى وقت شيئا غير ذلك، ربما باستثناء فترة الطفولة أو أثناء الوجود فى أوروبا، وإنه لفى أيام الصبا اللاهى الأولى عندما يدرك المرء على حين غرة حقيقة وضعه، وكأنما ذلك قد حدث على غرة خلال يوم واحد، وإنى لأذكر جيدا عندما مر بى ذلك الشبح، كنت كائنا صغيراً مقيما فى التلال المرتفعة لنيوإنجلاند حيث تهب الرياح الأوساتونية السوداء بين الهوساك والتخكانى متجهة إلى البحر، ففى مقر المدرسة الخشبى الضئيل، مر شىء ما برؤوس البنين والبنات دفعهم إلى شراء بطاقات رائعة للزيارة - الحزمة منها بعشر سنتات وكنا نتبادلها، وجرى التبادل مرحًا إلى أن قامت فتاة جديدة علينا، طويلة القامة، برفض بطاقتى - رفضتها بشكل قاطع وبخلجة من خدها، وعند ذلك أشرق فى نفسي الشعور، بقدر من المفاجأة، أنى مختلف عن الآخرين، أو لعلى مثلهم فى القلب والحياة والأشواق، ولكنى مستبعد من عالمهم بحجاب شاسع، ومنذ ذلك الحين لم تكن لدى رغبة فى تمزيق ذلك الحجاب، أو أن أتسلل منه، وبقيت بكاملى وراءه فى احتقار متبادل، وعشت فوقه فى منطقة من

السماء الزرقاء والأشباح الهائمة الضخمة، وكانت السماء تبلغ أشد زرقتها عندما أتمكن من التفوق على زملائي في وقت الامتحان، أو أتغلب عليهم في سباق الركض، أو حتى عندما أضرب رؤوسهم اللزجة، ولكن للأسف، مع مرور السنين بدأ هذا الاحتقار الهادئ يتوارى، لأن العوالم التي كنت أتطلع إليها، وكل ما تحفل به من فرص مدهشة كانت عوالمهم وليست عوالمي. ولكني قلت لنفسي إنهم يجب ألا يحتفظوا بتلك الجوائز. وإني سأنتزع منهم بعضها بل كلها، ولم أتمكن في أي وقت من معرفة كيف سأفعل ذلك: بدراسة القانون، بشفاء المرضى، برواية القصص المدهشة التي تسبح في رأسي بطريقة ما. ومع الفتيان السود الآخرين لم يكن الصراع قاسيا إلى هذا الحد: فشبابهم قد تضاءل وأصبح نفاقًا لا طعم له، أو كراهية صامتة للعالم الشاحب المحيط بهم، وعدم الثقة الساخرة بكل ما هو أبيض، أو كانت تضيع في صيحة مريرة. لماذا جعلني الله منبوذًا وغريبًا في بيتي ذاته؟ وكانت أشباح البيت السجن تحيط بنا كلنا: الجدران مستقيمة وصلبة، ولكنها ضيقة وعالية، ولا سبيل إلى تسلقها لأبناء الليل الذين يجب أن يتحركوا في صمت وفي خنوع، أو أن يضربوا أكفهم بلا جدوى في الصخر، أو يتطلعوا بنوع من اليأس إلى ذلك الشريط الأزرق فوقهم.

فبعد المصرى والهندى، وبعد الإغريقي والرومانى، وبعد التنتونى والمنغولى يأتى الزنجي كأنه الابن السابع، الذى ولد وحوله حجاب، وحصل على النظرة الثانية فى هذا العالم الأمريكى – العالم الذى لا يمنحه وعيًا حقيقيًا بالذات، بل يسمح له فقط بأن يرى نفسه من خلال رؤية العالم الآخر له. إنه شعور غريب، هذا الوعي المزدوج، الشعور بأن المرء ينظر دائما إلى ذاته من خلال عيون الآخرين، وقياس المرء لروحه من خلال تسجيل عالم ينظر إليه باحتقار وإشفاق. إن المرء ليشعر دائما بأنه اثنان : أمريكى وزنجي، روحان، وفكرتان، وسعيان لا يتفقان، ومثالان متقاتلان داخل جسد أسود، ليس هناك ما يمنعه من أن يتفكك ويتمزق غير قوته العنيدة.

إن تاريخ الزنجي الأمريكى هو تاريخ هذا النزاع: هذا التوق إلى تحقيق الرجولة الواعية، أن يمزج ذاته المزدوجة فى ذات أفضل وأصدق، فهو فى هذا الاندماج لا يرغب فى أن يفقد إحدى ذاتيتيه، فهو لا يريد أفرقة أمريكا، لأن لدى أمريكا الكثير الذى تعلمه للعالم ولإفريقيا، وهو لا يرغب فى تبييض روحه الزنجية بطوفان من النزعة الأمريكية البيضاء، لأنه يعرف أن للدم الزنجي رسالة إلى العالم، وكل ما يرغب فيه هو أن يكون فى وسع الإنسان أن يكون زنجيا وأمريكيا، بدون أن يتلقى اللعنات أو البصقات من جانب أترابه، وبدون إغلاق أبواب الفرص فى وجهه بخشونة.

وإذن فهذا هو ختام هذا النزاع: أن يكون عاملاً مع غيره فى مملكة الثقافة، والإفلات من الموت والعزلة، ورعاية واستخدام أفضل طاقاته وعبقريته الكامنة، إن قوى الجسد والعقل هذه قد بددت فى الماضى بشكل مذهل، وتشتتت أو نسيت، إن شبح الزنجى القوى يتردد فى الماضى فى قصة أثيوبيا المغلفة بالظلال ومصر أبى الهول، على امتداد التاريخ تضىء قوى رجال منفردين من السود هنا وهناك كالنجوم الساقطة، ويموتون أحيانا قبل أن يكون العالم قد قاس درجة بريقهم قياساً صحيحاً، وهنا فى أمريكا، فى الأيام القليلة التى انقضت منذ "التحرير" فإن تنقل الرجل الأسود هنا وهناك فى سعى متردد ومتشكك كثيرا ما أدى لأن تفقد قوته نفسها فاعليتها، وتبدو وكأنها فقد للقوة، كأنها ضعف. ومع ذلك فهو ليس ضعفا : إنه التعارض بين غرضين مزدوجين، والصراع ذو الشقين من جانب الحرفى الأسود، السعى من ناحية للإفلات من احتقار البيض لأمة من قاطعى الأخشاب وجالبى الماء، ومن ناحية أخرى أن يحرث ويحفر من أجل قطيع منكوب بالفقر والذى لا يمكن أن يسفر إلاّ عن أن يجعله حرفيا فقيرا، وأنه لم يضع غير نصف قلبه فى أى من غرضين، ونتيجة لفقر قومه وجهلهم فإن القس أو الطبيب الزنجى وجد الإغراء يتجه إلى الخداع والديماجوجية.، ونتيجة لانتقادات العالم الآخر إلى المثل التى جعلته يخجل من مهامه الوضيعة. إن الشخص الأسود الذى يمكن أن يصبح عالما كان مواجها بالمفارقة المتمثلة فى أن المعرفة التى يحتاجها قومه كانت قصة رويت مرتين لجيرانه البيض، فى حين أن المعرفة التى يمكن أن يتعلم منها العالم الأبيض كانت "يونانية فلا تفهم" لمن ينتمون إليه جسدا ودما. إن الحب الكامن والتوافق والجمال الذى يدفع أرواح شعبه إلى الرقص والغناء لم يكن ليثير غير الاضطراب والشك فى نفس الفنان الأسود، لأن الجمال الذى انكشف أمام عينيه كان جمال الروح لجنس يشعر جمهوره الأوسع إزاءه بالاحتقار، ولم يكن فى وسعه أن يعبر عن رسالة شعب آخر. إن هذا التبديد لغرضين- لدى السعى إلى تلبية مثلين غير متفقين - أفضى إلى إضعاف محزن للشجاعة والإيمان والأفعال لدى عشرة ملايين شخص ، وكثيرا ما دفعهم إلى التملق لآلهة زائفة، واستخدام وسائل كاذبة للخلاص، بل وبدا فى بعض الأحيان أنه يدفعهم لشعور بالعار من أنفسهم.

وفى الأيام القديمة، أيام العبودية، كانوا يرون فى بعض الأحداث المقدسة نهاية لكل شك وإحباط، وليس هناك غير قليلين كانوا يعبدون "الحرية" بنصف ذلك الإيمان المطلق الذى عبدها به الزنجى الأمريكى على امتداد قرنين من الزمان، وقد كان يرى، فى حدود أفكاره وأحلامه، أن العبودية هى مجمع الشرور، وسبب كل الأحزان، وجذر

كل تحامل أو تحين، وكان التحرر هو المفتاح إلى أرض ميعاد ذات جمال أعذب مما وقعت عليه عيون أى مشرد متعب. وفى كل غناء أو نشيد كانت هناك لازمة واحدة: "الحرية". وبين دموعه ولعناته كان الإله الذى يتوسل إليه يمسك بالحرية فى يمينه، ثم جاءت هذه الحرية أخيراً: مفاجئة، ومفزعة، كأنها الحلم، وفى احتفال منفلت واحد للدم والأشواق جاءت رسالة نغماته الحزينة:

لتهتفوا يا أبنائى!

ولتهتفوا، فإنكم أحرار!

لأن اللّٰه اشترى لكم حريتكم!

لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين: عشرة، عشرون، أربعون. أربعون عامًا من الحياة الوطنية، أربعون عامًا من التجديد والتنمية، ومع ذلك فإن الشبح الأدهم باق فى مقعده المعتاد فى احتفال "الوطن"، هباءً نصيح مرددين مشكلتنا الاجتماعية الواسعة النطاق هذه:

"فلتتخذ أى شكل آخر، وستجد أن أعصابى القوية لن ترتعش !"

إن "الوطن" لم يجد بعد السلام من خطاياه، إن الرجل الذى اكتسب حريته لم يجد الحرية بعد فى أرضه الموعودة. وأيا كان الخير الذى ربما يكون قد جاء فى هذه السنوات التى شهدت التغيير، فإن شبح الإحباط العميق يخيم على الأهالى الزنوج، إحباط يقطر مرارة، لأن المثال الذى لم يتحقق لم يكن يحده شىء غير الجهل المطلق من جانب شعب وضيع.

لم يكن العقد الأول غير امتداد للبحث عبثًا عن الحرية، ذلك الخير الذى بدا دائما أنه يراوغهم، وكأنه إغواء قاهر، يدفع إلى الجنون ويضلل من يقتنع به، إن محرقة الحرب، وفظائع جماعة كوكلوكس كلان، وأكاذيب الساعين إلى المكاسب الشخصية، وفوضى الصناعة، والنصائح المتضاربة من الأصدقاء والأعداء، تركت القن المحتار وليس لديه شعار غير الصيحة القديمة فى طلب الحرية، ولكنه بمرور الوقت بدأ يعى فكرة جديدة، فقد كان مثال الحرية يتطلب لتحقيقه أدوات قوية، وهذه الأدوات وفرها له التعديل الخامس عشر للدستور،[١] وحق التصويت، الذى كان يعتبره فى السابق

(١) ينص هذا التعديل فى فقرته الأولى على أنه "لا يجوز إنكار حق مواطنى الولايات المتحدة فى التصويت أو الانتقاص منه من قبل الحكومة الفيدرالية أو لأى ولاية بسبب العنصر أو اللون أو حالة رق سابقة (المترجم).

علامة ظاهرة على الحرية، أصبح يراه الآن الوسيلة الأساسية لاكتساب واستكمال الحرية التى منحته إياها الحرب جزئيًا، ولم لا؟ أليس التصويت هو الذى أشعل الحرب وأدى إلى تحرير الملايين؟ ألم يكن التصويت هو الذى جعل الحرية متاحة للجميع ؟ وهل هناك شيء يتعذر على القوى التى حققت ذلك كله ؟ إن مليونًا من الرجال السود شرعوا بعزم متجدد فى التصويت من أجل اكتساب مملكتهم، وهكذا طار العقد مسرعا، وجاءت ثورة ١٨٧٦ وتركت الأقنان الذين كسبوا نصف الحرية مرهقين، محتارين، ولكن مازال لديهم أمل. ببطء ولكن عن يقين، بدأت فى السنوات التالية رؤية جديدة لتحل بالتدريج محل حلم القوى السياسية، كانت حركة قوية مثلت نهوض مثل أعلى آخر يهتدى به الذين لا هادى لهم، عمود آخر من النار فى الليل بعد نهار غائم بالسحاب. كان هو مثال "التعلم من الكتاب"، التطلع النابع من الجهل الإلزامى، معرفة واختبار الحروف السرية للرجل الأبيض، التوق إلى المعرفة، هنا بدا فى آخر الأمر أنهم اكتشفوا الطريق الجبلى المؤدى إلى كنعان، طريقاً أطول من الطريق الفسيح إلى "التحرر" والقانون، طريق وعر وشديد الانحدار، ولكنه مستقيم، مؤد إلى ذرى تبلغ من الارتفاع حدا تهون بجانبها الحياة.

وصعودا فى هذا المسلك الجديد جاهدت الطلائع، ببطء وبخطى ثقيلة وبإصرار، وأولئك الذين راقبوا وقادوا الأقدام المتعثرة، والعقول الغائمة، والفهم البطىء للتلاميذ السود فى تلك المدارس، هم وحدهم الذين يعرفون كم ناضل هذا الشعب بإخلاص من أجل التعليم، وكأنه يصلى. كان ذلك عملا شاقا، وكان الارتياح يسجل بومضات قليلة من التقدم هنا وهناك، ويلاحظ أيضا هنا وهناك أن قدما قد زلت أو أن شخصا قد سقط، وفى مواجهة المتسلقين المنهكين كان الأفق مظلما دائما، وكان الضباب باردا فى الغالب، وكانت أرض كنعان دائما مظلمة ونائية، ولكن حتى إذا كانت الآفاق لم تكشف بعد عن هدف، أو عن نقطة استراحة، ولم يحط بها غير التملق والانتقاد، فإن الرحلة أتاحت على الأقل فرصة التأمل واختبار الذات، لقد أحالت طفل "الانعتاق" إلى الفتى الذى بدأ وعيه يتفتح، ويشعر بتقديره لذاته واحترامه لها. وفى تلك الغابات المعتمة فى سعيه برزت روحه أمامه، ورأى نفسه: رؤية غائمة كما لو كانت من خلال حجاب. ومع ذلك فقد رأى فى نفسه بشيرا ضعيفا بقوته، وبرسالته. وبدأ يتكون لديه شعور غامض بأنه، حتى يأخذ مكانه فى العالم، يجب أن يكون هو نفسه وليس شخصا آخر. ولأول مرة سعى إلى فهم العبء الذى يحمله على كاهله، ذلك الوزن الميت من التحقير الاجتماعى الذى يتخفى جزئيا وراء مشكلة "الزنوج" التى لا يتحدث عنها أحد صراحة. وشعر بأنه مملق، ليس لديه سنت واحد، وليس لديه بيت،

ولا أرض، ولا أدوات ولا مدخرات. وقد دخل فى منافسة مع جيرانه الأغنياء وأصحاب الأراضى والمهارات، وأن يكون المرء فقيرا أمر شاق، ولكن أن يكون الجنس فقيرا فى بلاد الدولار هو أكثر الأمور مشقة، لقد شعر بوزن جهله ليس فقط جهل الحروف، بل جهله بالحياة، وبالأعمال، وبالإنسانيات، لقد تراكم لديه الكسل والتراجع والشعور بالحرج نتيجة عقود وقرون كانت خلالها يداه وقدماه مكبلتين، ولم يكن عبئه كله من الفقر والجهل، فالوصمة الحمراء للنغولة، الناتجة عن قرنين من التدنيس القانونى المنظم للنساء الزنجيات أصبح وصمة لجنسه، لا يعنى فقط فقد الاحتشام الأفريقى القديم بل أيضا عبء الفساد الموروث من المعتدين البيض، والذى يكاد يهدد بمحو البيت الزنجى.

إن شعبًا تحمل هذه المعوقات يجب ألا يطلب منه أن يتسابق مع العالم، بل أن تتاح له فرصة إعطاء كل الوقت وكل الفكر اللازم لمشاكله الاجتماعية، ولكن واأسفاه؟ أينما يقوم الاجتماعيون مرحين بإحصاء أبناء الحرام والعاهرات من أفراده، فإن روح الرجل الأسود المجاهد العارق يخيم عليها شبح يأس مرير، والناس يسمون هذا الشبح بالتحيز، ويفسرونه بتعال على أنه دفاع طبيعى عن الحضارة فى مواجهة الهمجية، المعرفة فى مواجهة الجهل، النقاء فى مواجهة الجريمة، الأجناس "الأرقى" فى مواجهة الأجناس "الأدنى"، والزنجى يصيح فى مواجهة ذلك آمين! ويقسم بأنه فى مواجهة هذا التحامل الغريب غير المستند إلى احترام حقيقى للحضارة والثقافة والخير والتقدم فإنه يحنى رأسه بتواضع ويمتثل بخضوع. ولكنه فى مواجهة ذلك التحيز الذى بلا معنى والذى يتجاوز هذا كله فإنه يقف عاجزا ومستاءً غير قادر على النطق، فأمام ذلك الاحتقار الشخصى والسخرية، والهزء والإذلال المستمر، وتشويه الوقائع وإطلاق العنان للخيال، والتجاهل المتغطرس للأفضل والترحيب المفرط بالأسوأ، والرغبة المتمكنة فى بث الازدراء للون الأسود، ومن توسينت[2] إلى الشيطان فى مواجهة ذلك ينشأ يأس شديد كفيل بأن ينزع السلاح والشجاعة من أية أمة فيما عدا ذلك الرجل الأسود الذى لا يعرف كلمة "الإحباط".

ولكن مواجهة كل هذا التحامل لابد أن تؤدى إلى التساؤل الحتمى والتضاؤل وانخفاض المثل الذى يصحب القمع دائما ويولد مناخا للسخط والكراهية، والهمسات والنذر تأتى محمولة على الرياح الأربع: أسفا ! كان المضيفون السود يصيحون: نحن

(٢) توسينت لوفيرتور (فرانسيس دومينيك توسينت ، ١٧٤٣-١٨٠٣) قائد سياسى وعسكرى زنجى ، من محررى هايتى (المترجم) .

مرضى ومحتضرون، ونحن لا نستطيع أن نكتب، ولا أن ندلى بأصواتنا عبثا مع حاجتنا إلى التعليم، ما دمنا مضطرين دائما إلى طهو الطعام وتقديمه؟ وكانت "الأمة" تردد هذا النقد للذات فتؤكده قائلة: فلتكتفوا بأن تكونوا خدماً، وليس أكثر من ذلك، وما حاجة أنصاف البشر للمزيد من التعليم؟ فلنلغ حق التصويت للرجل الأسود، بالقوة أو بالخديعة، ولنشهد انتحار جنس بكامله ! ومع ذلك، خرج من الشر بعض الخير: حدث تصحيح للتعليم ليلائم واقع الحياة، وتحققت رؤية أوضح لمسؤوليات الزنوج الاجتماعية، وبدا المعنى الحقيقى للتقدم.

وهكذا أشرق عصر Sturm und Drang[٣] فهذه الحركة تدفع اليوم بقاربنا الصغير على المياه الصاخبة لبحار العالم، وهناك فى داخلها وخارجها صوت النزاع: إحراق الجسد وتمزق الروح، الإلهام يصارع الشك، والإيمان يصارع التساؤلات الجوفاء، إن مُثُل الماضى البراقة: الحرية الجسدية، والقوة السياسية، وتهذيب العقول، وتدريب الأيدى، كلها ذابت واحدة بعد أخرى وتضاءلت، حتى أصبحت نبتاتها الجديدة معتمة وغير مجدية، فهل كلها مخطئة وكلها زائفة؟ لا، ليس الأمر كذلك، ولكن كلا منها على حدة كانت مفرطة فى التبسيط وليست كاملة ؛ فأحلام طفولة العنصر الساذجة، أو التخيل البهيج للعالم الآخر الذى لا يعرف قوتنا ولا يريد أن يعرفها، وحتى تكون هذه المثل صادقة حقا فإنها يجب أن تنصهر وتندمج فى مثال واحد، ونحن نحتاج إلى التعليم فى المدارس اليوم أكثر مما كنا نحتاجه فى أى وقت مضى، التعليم للأيدى الماهرة، والعيون والآذان السريعة، وقبل كل شىء الثقافة الأعرض والأعمق والأرقى للعقول الموهوبة والأفئدة النقية، إننا نحتاج إلى قوة الصوت الانتخابى لمجرد الدفاع عن النفس ؛ وإلاّ فما الذى ينقذنا من الوقوع فى عبودية ثانية؟ إن الحرية التى طال السعى إليها، ستظل مبتغانا : حرية الحياة والجسد، حرية العمل والتفكير، حرية أن نحب وأن نتطلع إلى المزيد، إن العمل والثقافة والحرية كلها نحتاجها، ليس كلا منها على حدة، بل مجتمعة، ليست على التوالى بل معاً، كل منها يدعم الآخر ويسانده، وكلها تسعى نحو ذلك المثل الأكبر الذى يسبح أمام الناس السود، مثال الإخاء الإنسانى، الذى اكتسب من خلال المثال الموحد للعنصر، مثال تشجيع وتطوير سمات

(٣) أى " العاصفة والإلحاح " حركة ظهرت فى الأدب الألمانى حوالى ٧٠-١٧٨٤ ، والاسم مستمد من رواية كتبها فريدريك فون كلينجر، وكان الكتاب الألمان، تحت تأثير جان جاك روسو وهيلدر وليسنج يؤكدون كلا من الذاتية وتمرد عبقرية الشباب على المعايير المقبولة ، وتعتبر من نماذج هذه الحركة رواية جوته "جوتش فون برليشينجن " (١٧٧٣)، " آلام فيرتر " (١٧٧٤)، " اللصوص " لشيلر (١٧٨١) (المترجم) .

الزنجي ومواهبه، ليس في معارضة أو احتقار للأجناس الأخرى، بل في توافق مع المثال الأعظم للجمهورية الأمريكية، حتى يمكن في يوم من الأيام أن يوجد على التربة الأمريكية عنصران عالميان يعطي كل منهما للآخر تلك الخصائص التي يحتاجها كل منهما إلى حد محزن، إننا ذوي اللون الأكثر سمرة نأتي الآن وليست أيدينا فارغة: فليس هناك اليوم من يعرضون الروح الإنسانية الخالصة لـ "إعلان الاستقلال" بأكثر من الزنوج الأمريكيين، وليست هناك موسيقى أمريكية حقة عدا الأغاني المنفلتة العذبة للعبد الزنجي. والحكايات الخرافية الأمريكية والحكايات الشعبية هي حكايات الهنود والأفارقة، وفي النهاية يبدو أن الرجال السود هم الواحة الوحيدة للإيمان البسيط والاحترام الحق في صحراء متربة من الدولارات والشطارة، ترى هل تصبح أمريكا أكثر فقرا إذا هي استبدلت أخطاءها الوحشية بتواضع الزنوج الهادئ ولكنه ثابت العزم؟ أو إذا استبدلت ذكاءها الخشن والقاسي بالمرح والتعاطف؟ أو استبدلت موسيقاها الفجة بروح "الأغاني الحزينة" ؟.

إن الاختبار المحدد للمبادئ الثابتة للجمهورية العظيمة هو "مشكلة الزنوج"، والسعي الروحي لأبناء الحرية هو مقصد الأرواح التي تحمل عبئا يزيد عن طاقتها، ولكنها تحمله باسم عنصر تاريخي، باسم أرض آباء آبائهم، وباسم الفرصة المتاحة للبشر.

والآن اسمحوا لي بأن أعيد عرض ما أوردته هنا في خطوط عريضة في الصفحات التالية بوسائل متعددة، ومع تأكيد محب وتفاصيل أعمق، حتى يتمكن الناس من الاستماع إلى ما يتردد في نفوس الأهالي السود.

الفصل الثانى

فجر الحرية

إن مشكلة القرن العشرين هى مشكلة حاجز اللون فى العلاقة بين الناس ذوى اللون الأكثر سمرة والأكثر بياضا فى آسيا وإفريقيا وفى أمريكا والجزر البحرية، وقد كان أحد أوجه هذه المشكلة هو الذى تسبب فى الحرب الأهلية، وأيا كان مدى اهتمام من اقتحموا الجنوب والشمال فى ١٨٦١ بالنقاط الفنية للاتحاد والاستقلال فقد كان الجميع مع ذلك يعرفون – كما نعرف الآن – أن مسألة استعباد الزنوج كانت هى السبب الحقيقى للنزاع، وكان من اللافت للنظر أيضًا أن هذه المسألة الأكثر عمقًا كانت دائما تطفو على السطح على الرغم من الجهود والإنكار، ولم تكد جيوش الشمال تطأ أرض الجنوب حتى برزت هذه المسألة القديمة والتى اكتسبت رداء جديداً : ماذا سنفعل بالزنوج؟ ولم يكن فى وسع القيادات العسكرية من هذا الجانب أو ذلك أن تجيب على هذا السؤال، ولم يؤد "إعلان العتق" إلا إلى توسيع المشكلة وزيادة حدتها، وأسفرت "تعديلات الحرب" عن نشأة مشاكل الزنوج التى نشهدها اليوم .

والغرض من هذا الفصل هو دراسة الفترة التاريخية من ١٨٦١ إلى ١٨٧٢ من حيث ارتباطها بمسألة الزنوج الأمريكيين، والواقع أن هذه القصة عن مشرق الحرية إنما هى رواية لأعمال تلك المجموعة من الرجال التى أطلق عليها اسم "مكتب الذين كسبوا حريتهم" **Freedmen's bureau** ، وهى واحدة من أبرز وأهم المحاولات التى بذلتها أمة عظيمة للتعامل مع المشكلات العديدة للأجناس والأوضاع الاجتماعية .

وقد صاح الكونجرس ، والرئيس ، والأمة قائلين إنه ليس هناك ارتباط بين الحرب والعبيد، ومع ذلك فلم تكد الجيوش – من الشرق والغرب – تتوغل فى فيرجينيا وتينسى حتى ظهر العبيد الهاربون بين صفوفها، وقد كانوا يأتون فى الليل، عندما كانت نيران المعسكرات المرتعشة تضىء كأنها نجوم قلقة على امتداد الأفق الأسود: رجال متقدمون فى السن ونحاف البنية، قد اختلط فى شعرهم الأبيض بالأسود، ونساء بعيون مفزوعة، فى أيديهن أطفال جوعى ينشجون، ورجال وفتيات، ممشوقات

وناحلات، حشد من المشردين الجائعين، بلا مأوى، ولا نصير، مدعاة الشفقة فى شقائهم المظلم، وبد أن هناك شرعية لأسلوبين لمعاملة هؤلاء القادمين الجدد من جانب نوعين من العقول، ففى فيرجينيا سرعان ماأعلن بن بتلر (*) أن ممتلكات العبيد هى من غنائم الحرب، وألزم الهاربين بالعمل، أما فريمونت(**) فى ميسورى فأعلن أن العبيد أصبحوا أحرارا بمقتضى القانون العسكرى، وتمت الموافقة على خطوات بتلر، أما خطوات فريمونت فلم تلبث أن أبطلت، وجاء خليفته هليك ورأى الأمور رؤية أخرى وأصدر أوامره: "من الآن فصاعدا، لايجوز السماح لأى من العبيد أن ينضم إلى صفوفكم بأى حال، وإذا جاء أحدهم بغير علمكم سلموهم لأصحابهم عندما يطلبونهم"، وكان من الصعب الإلزام بتنفيذ هذه السياسة وقد أعلن بعض اللاجئين السود أنهم أحرار، وأثبت آخرون أن سادتهم تخلوا عنهم، وتم القبض على غيرهم وألزموا بالعمل فى القلاع والمزارع، وكان من الواضح أيضًا أن العبيد مصدر قوة للتحالف Confederacy [1]، وقد استخدم العبيد كعمال له ومنتجين، قد كتب الوزير كاميرون فى أواخر ١٨٦١ يقول : : إنهم يشكلون موردا عسكريًا، ولذا لايجوز تسليمهم للعدو، وذلك أمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان " وعلى ذلك أخذت لهجة القادة العسكريين تتغير بالتدريج، وحظر الكونجرس تسليم الهاربين، وأصبح (لاجئو) بتلر يلقون الترحيب كعاملين فى المجال العسكرى، وأسفر ذلك عن زيادة الأمر تعقيداً بدلا من تبسيطه؛ لأنه عند ذلك أصبح الهاربون القلائل سيلا مستمرا يندفع بسرعة أكبر أمام تقدم الجيوش .

وعند ذلك رأى الرجل ذو الرأس الطويل والوجه المنحوت بعناية الذى يجلس فى "البيت الأبيض" مالم يعد هناك منه مفر، وأعتق العبيد واعتبرهم ثائرين فى يوم السنة الجديدة فى ١٨٦٣، وبعد مرور شهر أصدر الكونجرس نداء حارا للجنود الزنوج الذين لم يكن قانون يوليو ١٨٦٢ قد قبل انضمامهم للجيش إلا على مضض، وهكذا أزيلت الحواجز وانتهى الأمر، وتحول نهر الهاربين إلى طوفان، وكان ضباط الجيش

(*) بنيامين فرانكلين بتلر (١٨١٨-١٨٩٣) سياسى أمريكى ومن قادة الحرب الأهلية، رشح نفسه للرئاسة فى ١٨٨٤ ولم ينجح (المترجم) .

(**) جون شارل فريمونت (١٨١٣-١٨٩٠) قائد وسياسى ومستكشف أمريكى، كان حاكما لولاية أريزونا (١٨٧٨-١٨٨٣) (المترجم) .

(١) اسم مشترك يطلق على الولايات الأمريكية المتحالفة (١٨٦١-٦٥) وهى الحكومة التى شكلتها ولايات الجنوب بعد انفصالها عن الاتحاد، ففى أعقاب انتخاب أبراهام لينكولن رئيسا (نوفمبر ١٨٦٠) انفصلت سبع ولايات هى كارولينا الجنوبية، وجورجيا ، ولويزيانا ، والمسيسبى ، وفلوريدا ، والاباما وتكساس ، وشُكّلت حكومة مؤقتة فى مونتجومرى بالأباما، ولكن هذه الولايات لم تصمد فى القتال وانفض التحالف بعد هزيمته فى أبريل ١٨٦٥ (المترجم) .

القلقون يتساءلون "ماذا ينبغى أن نفعل بالعبيد، الذين يأتون إلينا كل يوم تقريبا؟ وهل علينا أن نوفر الطعام والمأوى للنساء والأطفال؟".

وكان "بيرس أوف بوسطون" هو الذى أشار إلى الطريق، وبذلك أصبح يمكن أن يقال إنه مؤسس "مجلس الأحرار " وكان صديقا حميما للوزير تشيس، وعندما وقع على عاتق مسؤولى الخزانة أن يتولوا رعاية العبيد والأراضى المهجورة، تم تكليف بيرس بدراسة الأحوال، وقد اهتم أولاً باللاجئين إلى "قلعة مونرو "، وبعد ذلك عندما استولى شيرمان [٢] على "هيلتون هيد" تم إرسال بيرس إلى هناك ليقوم بتجربته فى بورت رويال لتحويل العبيد إلى عاملين أحرار، ولكنه ما كاد يبدأ هذه التجربة حتى كانت مشكلة الهاربين قد تضخمت بحيث نزعت من يد وزارة الخزانة المثقلة بالأعباء ووضعت فى يد مسؤولى الجيش، وكانت مراكز المتحررين المجتمعين قد بدأت تتكون حول قاعدة مونرو وواشنطون ونيو أورليانز وفيكسبرج وكورنسه وكولومبوس وكايرو وإلينوى، بالإضافة إلى بورت رويال، ووجد رجال الجيش فى هذا العمل مجالا جديدا ومثمرا، وأنشىء العديد من "مراكز مراقبة التهريب" وبذلت محاولة لتنظيم العمل عن طريق الاستعانة بالرجال الأشداء، وتوفير العمل للآخرين .

ثم جاءت جمعيات "مساعدة الرجال المحررين" التى ولدت نتيجة للدعوات المؤثرة التى جاءت من بيرس ومن هذه المراكز الأخرى التى شهدت مآسى الزنوج، كانت هناك الجمعية الأمريكية الإرسالية التى نشأت من "الأميستاد" والتى أصبحت الآن مهيأة تماما للعمل، وشتى المنظمات الكنسية، والرابطة الوطنية لإغاثة الرجال المحررين ، والاتحاد الأمريكى للرجال المحررين، ولجنة مساعدة المحررين فى منطقة الغرب والتى بلغ عددها ٥٠ منظمة أو أكثر، كانت ترسل الملابس والنقود والكتب المدرسية والمعلمين إلى ولايات الجنوب، وكان كل ماتفعله هذه الجمعيات مطلوبا لأن ماكان يعانيه الرجال المحررون من بؤس كان يوصف بأنه "مفزع إلى حد لا يصدق" وكان الوضع يزداد سوءاً كل يوم بدلا من أن يتحسن .

وفى كل يوم أيضًا كان يزداد وضوحا أن هذه ليست مسألة معتادة تحتاج إلى إغاثة مؤقتة وإنما هى أزمة على الصعيد الوطنى، وقد برزت هنا مشكلة عمالة ذات

(٢) ويليام تيكوميس شيرمان (٢٠-١٨٩١) من كبار القادة فى الحرب الأهلية، وقد تميز فى معركتى فيكسبورج وشاتانوجا وعين قائدا لمنطقة الغرب فشن حملة أتلانتا الشهيرة واستولى على المدينة وأحرقها ثم زحف على رأس جيش عدته ٦٠ ألف مقاتل متجها إلى البحر وكانت له عبارة شهيرة تقول " الحرب هى الجحيم" وعبر بها عن اعتقاده بأن الحرب الحديثة تحتاج إلى القسوة (المترجم) .

أبعاد هائلة، إذ كانت جموع كبيرة من الزنوج بلا عمل، وحتى إذا اشتغلوا على فترات متقطعة فإنهم لم يكونوا على ثقة فى أى وقت من حصولهم على الأجر، وحتى إذا حصلوا على أجرهم بالمصادفة كانوا يبددون هذا الشيء الجديد بلا رؤية، وهكذا كانت هذه الأساليب لحياة المخيمات وغيرها من أشكال التعامل مع الحرية الجديدة تضعف من معنويات الرجال المتحررين، ومن ثم ظهرت هنا وهناك التنظيمات الاقتصادية الأوسع نطاقًا التى كانت الحاجة ماسة إليها عندما كانت الأحداث والأوضاع المحلية تقضى بوجودها، وهنا جاء مشروع "بورت رويال" الذى وضعه بيرس لإنشاء مزارع على أساس الإيجار واستخدام الرجال المحررين وكان يشير إلى المعالم الرئيسة للطريق، وفى واشنطون قام الحاكم العسكرى بناء على نداء ملح من جانب المشرف على مخيمات العبيد، بفتح المزارع المصادرة حتى يقوم فيها الهاربون بالزراعة، وهناك فى ظل القبة تجمع المزارعون السود، وقام الجنرال ديكس بتسليم المزارع للرجال المحررين من قلعة مونرو وأمثالها، جنوبا وغربا، وقامت الحكومة والجمعيات الخيرية بتوفير وسائل الزراعة، وهكذا عاد الزنوج ببطء إلى العمل، ولم تلبث أنظمة السيطرة التى بدأت على هذا النحو أن تكاثرت، هنا وهناك، وتحولت إلى حكومات صغيرة غريبة مثل الحكومة التى أنشأها الجنرال بانكس فى لويزيانا، والتى بلغ عدد رعاياها السود ٩٠ ألفا، وبلغ عدد عمالها الموجهين ٥٠ ألفا وبلغت ميزانيتها السنوية مائة ألف دولار وأكثر، وكانت تصدر قائمة بالأجور تبلغ أربعة آلاف فى السنة، وتسجل كل الرجال المحررين، وتبحث شكاواهم وتسعى لمعالجتها، وتحدد الضرائب وتقوم بتحصيلها، كما أنشأت شبكة من المدارس العامة، وهكذا أيضًا سيطر الكولونيل إيتون، المشرف على تينيسى وأركانسو، على مائة ألف من الرجال المحررين، وقام باستئجار وزراعة سبعة آلاف فدان من الأرض المزروعة قطنا، وكان يطعم عشرة آلاف من المتسولين فى السنة، وفى ساوث كارولينا كان ،هناك الجنرال ساكستون الذى أبدى اهتماما عميقًا بالأهالى السود، وقد جاء فى أعقاب بيرس وموظفى الخزانة وقام ببيع المزارع المهجورة، واستأجر المزارع الخلاء، وشجع على إنشاء المدارس، وتلقى من شيرمان بعد ذلك الزحف الرهيب إلى البحر آلافا من البؤساء الذين يتبعون المعسكرات .

وهناك ثلاثة أشياء مميزة كان للمرء أن يراها فى حملة شيرمان عبر جورجيا، كانت تضع الحالة الجديدة فى ضوء قاتم، أن تجمع بين الغازى المنتصر والأهالى المهزومين والزنوج، ويرى البعض أن الأهمية الكبرى تنعقد على الجبهة المتجهمة للغازى المدمر، ويرى آخرون أن الأهمية الكبرى هى فى المعاناة المريرة لمن فشلت قضيتهم، أما بالنسبة لى فإن من يتحدث بصوت عميق ليس هو الجندى ولا الزنجى

الهارب، وإنما مايعنيني هي تلك الغمامة الإنسانية السوداء التي تتجمع كأنها الندم على الخطوط الخلفية لتلك الطوابير المتحركة بسرعة، والتي كان ينضم إليها في بعض الأحيان من يمثلون نصف حجمها، ويكادون يجرفونها أمامهم ويخنقونها، ولم تكن هناك جدوى لإصدار الأوامر إليهم بالعودة إلى الوراء، أو بتدمير الجسور من تحت أقدامهم، فقد كانوا يتقدمون بخطاهم المثقلة فيزدادون عددا، حتى تدفقوا في منطقة سافانا [٣] قطيعا جائعا وعاريا يضم عشرات الآلاف وهناك أيضا جاء الحل العسكري المعتاد: "فقد تم تخصيص الجزر الممتدة من شارلستون جنوبا، وحقول الأرز المهجورة على امتداد الأنهار لمسافة ثلاثين ميلا من البحر، ومناطق الريف المتاخمة لنهر سان جون بفلوريدا، لتوطين الزنوج الذين أصبحوا الآن أحرارا نتيجة للحرب" ، هذا ماجاء في "الأمر الميداني رقم ١٥" الشهير .

وكانت كل هذه التجارب والأوامر والأنظمة كفيلة بأن تجتذب انتباه الحكومة والأمة وتثير حيرتهما، فبعد " إعلان التحرير" مباشرة قدم النائب إليوت مشروع قانون لإنشاء " مجلس للتحرير" ولكنه لم يقبل، وفي شهر يونيو التالي قام وزير الحرب بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق، قدمت تقريرها المؤيد لإنشاء مجلس مؤقت "لتحسين أوضاع الرجال المحررين اللاجئين وحمايتهم وإيجاد فرص عمل لهم " على نفس الخطوط تقريبا التي اتبعت بعد ذلك، وجاءت الالتماسات إلى الرئيس لينكولن من مواطنين مرموقين ومنظمات مهمة، تلح في وضع خطة شاملة وموحدة للتعامل مع الرجال المحررين، في ظل إدارة "تكلف بدراسة الخطط وتنفيذ التدابير اللازمة لإرشاد وتوجيه تحول السود الذين كانوا قد تحرروا ولكنهم مازالوا في حاجة إلى التحرير من الأوضاع القديمة للعمل بالسخرة إلى الحالة الجديدة للعمل باختيارهم " .

واتخذت بضع خطوات مترددة لتحقيق هذ الهدف، وذلك مرة أخرى بوضع الأمر برمته بين يدي مسؤولي وزارة الخزانة، وصدر قانونان في ١٨٦٣ و ١٨٦٤ يكلفانهم بتولي المسؤولية عن الأراضي المهجورة وتأجيرها لفترات لاتتجاوز ١٢ شهراً "والنص في تلك الإيجارات على تشغيل الرجال المحررين ورعاية شئونهم"، ورحب معظم ضباط الجيش بهذا الإجراء لأنه يخفف عنهم مشكلة الزنوج المحيرة، وأصدر الوزير فيسندن في ٢٩ يوليو ١٨٦٤ مجموعة من التوجيهات اتبعها فيما بعد الجنرال هوارد بقدر كبير من الدقة، وتحت إشراف موظفي الخزانة تم استئجار مساحات كبيرة من

(٣) مدينة صغيرة عند مصب نهر سافانا يبلغ سكانها الآن ١٥٠ ألفا . أنشئت في سنة ١٧٣٣ وكانت من المواقع التي دارت فيها الحرب الأهلية (المترجم) .

الأرض فى وادى المسيسبى وعمل بها كثيرون من الزنوج، ولكن فى أغسطس ١٨٦٤ أوقف العمل بالتعليمات الجديدة لأسباب تتعلق بـ "السياسة العامة " وعاد الجيش ليسيطر على الموقف .

وفى هذا الوقت كان الكونجرس قد وجه انتباهه إلى المسألة، وفى شهر مارس أقر المجلس قانونا بأغلبية صوتين بإنشاء مكتب للرجال المحررين فى وزارة الحرب، وقال تشارلز سومنر، الذى كان مسـئولاً عن مشروع القانون فى مجلس الشيوخ " إن الرجال المحررين والأراضى المهجورة يجب أن تكون تحت مسؤولية واحدة" وقدم بديلا للقانون الذى أقره مجلس النواب يضع المكتب تحت إشراف وزارة الخزانة، وقد اعتمد هذا القانون، ولكن الوقت كان قد فات لإعادة عرضه على مجلس النواب، ودراسة المناقشات حول كل المسائل المتعلقة بسياسات الإدارة ومجمل مسألة العبودية، بدون مناقشة دقيقة للتدابير المطروحة، وبعد ذلك أجريت الانتخابات الوطنية، وشرعت الإدارة التى حصلت على تصويت بتجديد الثقة من الناخبين فى الاهتمام بالأمر بقدر أكبر من الجدية، واتفق مؤتمر ضم فرعى الكونجرس على إجراء مدروس بدقة تضمن الأحكام الرئيسة فى ا قتراح سومنر ولكنه جعل الهيئة المقترحة مستقلة عن كل من وزارتى الحرب والخزانة، وكان القانون متحفظا ومنح الهيئة الجديدة " الإشراف العام على كل الرجال المحررين"، وكان الغرض منه " وضع تنظيمات " بشأنهم، وحمايتهم، وتأجير الأراضى لهم، وتصحيح أجورهم، والحضور فى المحاكم المدنية والعسكرية إلى جانبهم" وكانت هناك قيود عديدة على هذه السلطات وأصبحت الهيئة كيانا دائما، ومع ذلك ، فقد رفض مجلس الشيوخ ذلك القانون، وعينت لجنة جديدة مشتركة من المجلسين، وأعدت هذه اللجنة مشروع قانون جديد فى ٢٨ فبراير تم تمريره فى وقت انتهاء الدور وأصبح قانون ١٨٦٥ الذى ينشىء فى داخل وزارة الحرب "مجلسا للرجال المحررين اللاجئين والأراضى المهجورة".

وكان هذا الحل الوسط الأخير إجراء تشريعيا متعجلا،نصوصه غامضة، وخطوطه ليست مؤكدة وأنشىء المجلس " ليواصل خلال الحرب الحالية ضد المتمردين، ولمدة سنة بعد انتهائها" الإشراف والإدارة على كل الأراضى المهجورة والسيطرة على كل الرعايا المنتمين إلى اللاجئين والرجال المحررين" بمقتضى " القواعد والتنظيمات التى يقدمها رئيس المجلس ويصدق عليها رئيس الجمهورية، وتقرر أن يتولى مفوض يعينه الرئيس ومجلس الشيوخ إدارة أعمال المجلس يعاونه عدد من

الموظفـين لا يتجاوزون العشرة، ويجوز أن يعين الرئيس أيضا مفوضين مساعدين فى الولايات ويجـوز أن يتـقاضى أولئك الموظفون العسكريون رواتب ثابتة، ويجـوز لوزير الحرب أن يقرر تعـيينات غـذائية ومـلابس ووقـود لمن يحـتاجـون إليـها، ووضـعت كل الممتلكات المهجورة فى يد المجلس ليقوم بتأجيرها وبيعها فى نهاية الأمر لمن كانوا عبيدا على أن تقسم إلى قطع مساحة كل منها ٤٠ فدانا .

وهكذا اضطلعت حكومة الولايات المتحدة بصـفة نهائية بالمسؤولية عن الزنوج المحررين باعتبارها ممثلاً للأمة، وكانت تلك مـهمة جسيمة، فـهنا وبجرة قلم أنشئت حكومـة لملايين من الرجـال – وهم فوق ذلك ليـسوا رجـالا عـاديين بل رجـال سـود – ، أضر بهم نظام شـامل للاستـعباد استـمر عدة قرون، والآن، وفجـأة، وبصـورة عنيفة، ولدوا من جديد، فـى وقت تسوده الحرب وينتشر الانفـعال، فى وسط سادتهم السابقين الذين أصـابتـهم الدهشة والمرارة، ولم يكن مسـتـغربا أن يتـردد أى أمرئ فى تحـمل مسؤولية هذا العمل بما ينطوى عليه من مسؤوليات واسـعة، وسلطات غير محـددة، وموارد محدودة، وربما لم يكن لأحد من غير العسكريين أن يستجيب لهذه الدعوة على الفور، والواقع أنه لم توجه الدعوة إلا إلى العسكريين، لأن الكونجرس لم يخصص أية أموال للمرتبات والمصروفات .

وبعد أقل من شـهـر من وفـاة " المحرر " المرهـق حـتى عين خلفـه الماجـور جنرال أوليفار هوارد ليكون مفوضا على المجلس الجديد، وكان الذى وقع عليه الاختيار رجلا من ولاية مـين، ولم يكن عـمـره عند ذاك يتـجـاوز خـمـسـة وثلاثين عـامـا، وكـان ممن شاركوا شيرمان فى الزحف إلى البحر ، وممن أبلوا بلاء حسنا فى جيتسبرج، وكان قد كلف فى السنة السابقة مباشرة بقيادة الإدارة المختصة بتينيسى، وهو رجل أمين شديد الثقة بالطبيعة البشرية، وليست له مواهب كبيرة فى مجالات الأعمال والبحث فى التفاصيل الدقيقة، وبذلك أتيحت له فرصة واسعة للتعرف بطريق مباشر على المهام التى أسندت إليـه، وقـد قيل عن ذلك العـمل بحق "إنه لا يمكن كتـابة تاريخ صـحـيح للحضـارة دون إبراز تنظيم وإدارة مجلس الرجال المحررين، باعتباره إحدى العلامات الكبرى فى التقدم السياسى والاجتماعى".

وفى ١٢ مـايو ١٨٦٥ عين هوارد، وتولى مسؤوليات منصبه على الفور فى ١٥ مايو وشرع فى بحث مجال العمل، وكان ما رآه فوضـى مختلطة: قليل من التسلطية،

وتجارب ذات نزعة شيوعية، وعبودية وتسخير لاقتضاء الديون، ومضاربات مالية، وعمليات إحسان منظمة، وعمليات تصدق غير منظمة، وكلها تحدث تحت ستار مساعدة الرجال المحررين، وكلها مغلفة بدخان ودماء الحرب والشتائم والصمت من جانب الرجال الغاضبين، وفى ١٩ مايو أصدرت الحكومة الجديدة - لأنها كانت حكومة بالفعل - دستورها الذى قررت فيه تعيين مفوضين فى كل من الولايات المنشقة، يتولون "كل المسائل المتعلقة باللاجئين والرجال المحررين" ولاتصرف أية مواد للإغاثة، أو للجراية إلا بموافقتهم، ودعا المجلس إلى استمرار التعاون مع الجمعيات الخيرية، وأعلن : "أنه سيكون هدف جميع المفوضين أن يضعوا أنظمة عملية للعمل مقابل تعويض عادل " وإنشاء مدارس، وبعد ذلك تم تعيين تسعة مفوضين مساعدين وكان عليهم أن يسارعوا إلى ميادين عملهم ، ويسعوا بالتدريج إلى إغلاق مؤسسات الإغاثة وأن يجعلوا من الفقراء أشخاصا قادرين علي إعالة أنفسهم، وأن يقوموا بوظيفة المحاكم حيثما لاتوجد محاكم ، أو حيثما لا تعترف المحاكم بالزنوج على أنهم أحرار، وأن ينشئوا مؤسسات لتزويج من كانوا عبيدا فى السابق والاحتفاظ بسجلات الزواج، وأن يطمئنوا إلى أن الرجال المحررين يملكون حرية اختيار أصحاب عملهم، وأن يساعدوا فى إبرام عقود منصفه لهم، وأخيرا قال المنشور الدورى، "إن النية الحسنة وحدها، والتى نأمل فى أن تسود عمل كل المعنيين بإنهاء العبودية، سوف تعمل بوجه خاص على معاونة المفوضين على أداء واجباتهم نحو الرجال المحررين، وكذلك العمل على تحقيق المصلحة العامة" .

ولم يكد العمل يبدأ على هذا الأساس،ويشرع النظام العام والتنظيم المحلى فى التحرك بدرجة ما، حتى بدت صعوبتان جسيمتان أدتا إلى إحداث تغيير كبير فى فكرة المجلس ونتائج عمله، الأولى : كانت هناك الأراضى المهجورة فى الجنوب وقد كانت النظرية المعلنة عنها بدرجة أو أخرى من جانب الشمال هى أن كل المشاكل الرئيسة المتعلقة بالتحرير يمكن تسويتها بوضع العبيد فى الأراضى التى لم يعد لسادتهم السابقين حق فيها، ووصف البعض ذلك بأنه عدالة شاعرية، ولكن هذا الشعر عندما يتحول إلى نثر بليغ كان يعنى إما المصادرة الكاملة للملكية الخاصة فى الجنوب أو الاستيلاء علي مساحات شاسعة، ولكن الكونجرس لم يكن قد قرر الاستيلاء على سنت واحد، ولم يكد يعلن العفو العام حتى ذابت الثمانمائة ألف فدان من الأراضى المهجورة فى أيدى مجلس الرجال المحررين، وتمثلت الصعوبة الثانية فى : تحسين

التنظيم المحلى للمجلس فى كل جوانب العمل الفسيح، فإنشاء آلية جديدة وإرسال مسؤولين من ذوى اللياقة المؤكدة للقيام بعمل عظيم من أعمال الإصلاح الاجتماعى ليست مهمة سهلة، غير أن هذه المهمة كانت أصعب بالنسبة لمنظمة مركزية جديدة مطلوب إقامتها فوق نظام غير متجانس ومضطرب لكنه قائم بالفعل لإغاثة العبيد السابقين والسيطرة عليهم، وكان من اللازم العثور على من يقومون بهذا العمل فى جيش مازال يشتغل بالعمليات الحربية - وهم رجال ليسوا مهيئين بطبيعة الحال للعمل الاجتماعى الحساس - أو من بين متعقبى المعسكرات المشكوك فى أمرهم ممن يتبعون المضيف الغازى، وعلى ذلك، فبعد سنة من العمل، ورغم أنه كان عملا نشيطا ومجهدا، بدا أن المشكلة أصعب فى فهمها وحلها عما كان الأمر يبدو فى البداية، ومع ذلك فقد حقق العمل فى ذلك العام ثلاثة أشياء كانت تستحق القيام بها: أنه خفف قدرا كبيرا من المعاناة الجسدية، وأنه أعاد سبعة آلاف هارب من المراكز المزدحمة إلى المزارع، وأهم شىء أنه بدأ الحملة التى نظمت فى نيوإنجلند لتعليمهم.

ومازالت حوليات تلك "الحملة الصليبية التاسعة" بحاجة لمن يكتبها، كانت حكاية بعثة تبدو لجيلنا مفرطة فى إنكار الذات بأكثر مما بدت حملة القديس لويس لعينيه، فبعد ضباب الخراب والاغتصاب بات يسمع حفيف ثياب النساء ذوات الجرأة والاقتحام، وبعد الأصوات الأجشة لمدافع الميدان باتت تسمع إيقاعات الألف باء، كانوا أغنياء وفقراء، جادين ومتطلعين، إن الذين حرموا من الآباء، والذين حرموا من إخوتهم، قد جاءوا الآن يبحثون عن حياة العمل فى مزارع نيوإنجلند وفى المدارس بين البيض والسود الجنوبيين، وقد قاموا بعملهم على أكمل وجه، فى تلك السنة الأولى علموا مئة ألف، وربما أكثر .

كان من الواضح أنه لابد أن يتخذ الكونجرس فى القريب قرارات مرة أخرى بشأن هذا المجلس الذى نظم على عجل، والذى لم يلبث أن اكتسب مكانة واسعة وأصبحت له إمكانات ضخمة ، وإن مؤسسة كهذه كان إنهاء أمرها أصعب من البدء به، وفى أوائل عام ١٨٦٦ طرح الأمر على الكونجرس، عندما قدم السناتور ترومبول من ولاية إلينوى مشروع قانون لتوسيع المجلس وزيادة اختصاصاته، ودارت حول هذا الإجراء من جانب الكونجرس مناقشات متعمقة واهتمام متزايد أكثر مما حظى به سابقه، وكانت سحابة الحرب قد خفت بما يكفى لرؤية أكثر وضوحا لعملية تحرير العبيد، ورأى مناصرو المشروع أن تعزيز مجلس الرجال المحررين كان لا يزال

ضرورة عسكرية، وأنه لازم من أجل التنفيذ السليم للتعديل الثالث عشر للدستور(٤) وأنه عمل بسيط من أعمال العدالة لمن كانوا عبيدا، وأن ثمنه بخس بالنسبة للحكومة، أما المعارضون فقد رأوا أن الحرب قد انتهت، وأن الضرورة التى أملت تدابير الحرب لم يعد لها وجود، وأن المجلس بما لديه من سلطات استثنائية لايمكن أن يكون دستوريًا فى وقت السلام، وأنه سيكون مصدرًا لقلق الجنوب وسيحيل الرجال الذين تحرروا إلى متسولين، وأن التكلفة النهائية لذلك ربما تصل إلى مئات الملايين، ولم يجب أحد على هاتين الحجتين، وهما فى الواقع يصعب الرد عليهما : تقول إحداهما إن السلطات الاستثنائية للمجلس تهدد الحقوق المدنية لكل المواطنين، والأخرى إنه ينبغى أن يكون لدى الحكومة السلطة اللازمة لأن تفعل ما ينبغى عمله، وأن التخلى الآن عن الرجال المحررين يعنى عمليًا عودتهم إلى العبودية ، وتضمن المشروع الذى اعتمد فى نهاية الأمر توسيعا لسلطات مجلس الرجال المحررين وجعلها سلطات دائمة، ولكنه لم يلبث أن تعرض لسلطة النقض من جانب الرئيس جونسون(٥) على أساس أنه "غير دستورى" "وغير ضرورى". ولم يمكن تمرير القانون بعد الاعتراض، ولكن فى الوقت نفسه أخذ الانقسام بين الكونجرس والرئيس فى الاتساع، وأدخل على مشروع القانون المرفوض تعديل أدى إلى قبوله فى نهاية الأمر على الرغم من الاعتراض الثانى عليه من جانب الرئيس فى ١٦ يوليو .

وبصدور قانون ١٨٦٦ اتخذ مجلس الرجال المحررين صورته النهائية- صورته- التى سيعرفه بها الخلف ويحكم بها عليه الناس. وقد أطال أمد وجود المجلس إلى يوليو ١٨٦٨ وأذن بتعيين مفوضين مساعدين آخرين، وبالاحتفاظ بضباط الجيش الخارجين من الخدمة النظامية، وببيع بعض الأراضى المصادرة للرجال المحررين بأسعار اسمية، وبيع الممتلكات العامة الاتحادية لمدارس الزنوج، وتم التوسع فى تفسير سلطاته القضائية، وبذلك تم وضع إدارة الجنوب غير المنظم إلى حد كبير فى أيدى مجلس الرجال المحررين، خاصة وأن القائد العسكرى المحلى أصبح الآن فى

(٤) التعديل الثالث عشر (١٨٦٥) يحظر الرق أو العمل بالإكراه فى الولايات المتحدة أو فى أية منطقة خاضعة لسلطانها إلاّ كعقاب عن جريمة توقع على مقترفها بعد إدانته وفقا للقانون (المترجم) .

(٥) أندرو جونسون (١٨٠٨-٧٥) الرئيس السابع عشر للولايات المتحدة وهو الرئيس الوحيد الذى نزع منه مجلس النواب الثقة، ولم يكن بالشخصية القادرة على مواجهة صعوبات التعمير بعد الحرب الأهلية خاصة وأنه لم يكن على وفاق مع الكونجرس (المترجم) .

كثير من الحالات مفوضًا مساعداً أيضًا، وبذلك أصبح مجلس الرجال المحررين سلطة حكم كاملة .

وكان يصدر القوانين ويقوم بتنفيذها وتفسيرها، وكان يفرض الضرائب ويلغيها، ويحدد الجرائم ويعاقب عليها، ويحتفظ بالقوة العسكرية ويستخدمها، ويملى التدابير التى يرى ضرورتها وملاءمتها لتحقيق أهدافه على اختلافها، وبطبيعة الحال لم يكن المجلس يمارس كل هذا السلطات بصورة مستمرة أو إلى حدها الأقصى، ومع ذلك كما قال الجنرال هوارد " لم يكن هناك موضوع يحتاج إلى إصدار تشريعات بشأنه لتنظيم المجتمع المدنى لم يحظ فى وقت أو آخر باهتمام هذا المجلس الفريد".

وحتى يمكن للمرء أن يفهم مثل هذا العمل الواسع النطاق، وينتقده، يجب ألا ينسى للحظة واحدة اتجاه الأحداث فى أواخر الستينات، كان لى [٦] قد استسلم، ولنكولن ،قد مات، وجونسون والكونجرس يتعاركان، والتعديل الثالث عشر قد اعتمد، والتعديل الرابع عشر مازال معلقا، والتعديل الخامس عشر قد أصبح ناقداً فى ١٨٧٠ [٧] وكانت غارات حرب الأنصار، والتى تستمر دائما لفترة من الزمن بعد انطفاء نيران الحروب، تشن غاراتها على الزنوج، وكانت كل أراضى الجنوب تستيقظ وكأنما هى خارجة من حلم مزعج وتعانى الفقر وتتجه إلى الثورة الاجتماعية، ففى وقت الهدوء التام، وبين الجيران المتعاطفين والثروة المتدفقة، يكون تحسين حالة أربعة ملايين من العبيد ليصبح وضعهم أمنا وقادرا بقوته الذاتية على الاستمرار وممارسة الحقوق السياسية والاقتصادية، تكون مهمة ثقيلة للغاية، ولكن عندما يكون المطلوب إنجازها فى ظل أوضاع دقيقة وحساسة يضاف إليها مشاعر وكراهيات النزاع، وجحيم الحرب، وعندما تكون الشكوك والقسوة هما الأمران المنتشران، ويكون الجوع هو القاعدة إلى جانب الحرمان فى مثل هذه الحالة يكون عمل أية أداة للتجدد الاجتماعى محكوما عليها بالفشل، وكان مجرد اسم المجلس يعبر عن شىء فى

(٦) تشارلز لى (٣١-١٧٨٢) من كبار القادة الأمريكيين فى الحرب الثورية، وقد رفض الأوامر التى أصدرها جورج واشنطون (١٧٧٩) واعتزم خيانته عندما كان فى الأسر لدى البريطانيين (٧٦-١٧٧٨) وانسحب فى معركة مون ماوس (١٧٧٨) وبذلك حرم واشنطون من الانتصار وقد حوكم محاكمة عسكرية وفصل من الخدمة (١٧٨٠) (المترجم) .

(٧) يتعلق التعديل الرابع عشر بالمساواة أمام القانون والتعديل الخامس عشر بعدم جواز إنكار حق مواطنى الولايات المتحدة فى التصويت بسبب العنصر أو اللون أو حالة الرق السابقة (المترجم) .

الجنوب على امتداد قرنين من الزمان يرفض الكثيرون أن يسلموا به، وهو أن الحياة بين الزنوج الذين تحرروا أمر يصعب التفكير فيه، وكان تجربة تتخطى المنطق.

وكان الوكلاء الذين يستطيع المجلس أن يستخدمهم مختلفين للغاية، يبدأون من دعاة الإحسان ومنكرى الذات إلى ضيقى العقول والبلطجية واللصوص، وإذا كان من الصحيح أن الشخص المتوسط كان أقرب إلى الأفضل منه إلى الأسوأ فإن الحالات السيئة القليلة هى التى أدت إلى تشويه الصورة .

ثم كان وسط الجميع يقبع العبد الذى نال حريته، حائرا بين الصديق والعدو، كان قد خرج من ربقة العبودية – ليست أسوأ عبودية فى العالم، وليست العبودية التى تجعل الحياة بكاملها غير محتملة، بل كانت عبودية بها فى هذا الموضع أو ذاك شىء من الرحمة والوفاء والسعادة – التى تضع من حيث المطامح الإنسانية، الرجل الأسود والثور فى خانة واحدة، وكان الزنجى يعرف تمامًا أن رجال الجنوب، أيًا كانت معتقداتهم العميقة قد قاتلوا بحماسة يائسة لاستدامة هذه العبودية التى كانت الجماهير السوداء فى ظلها – دون أن تدرك معناها تماما – تتألم وترتجف، وقد رحبوا بالحرية صائحين ولكنهم تراجعوا خوفا من السيد الذى كان مازال يصلصل بالأغلال، وقد هربوا إلى الأصدقاء الذين حرروهم، ولكن حتى هؤلاء الأصدقاء كانوا على استعداد لأن يستخدموهم هراوة لدفع الجنوب المتعنت إلى الولاء، وهكذا اتسعت الفجوة بين البيض والسود فى الجنوب الأسود، وليس من المجدى القول بأنه ما كان ينبغى أن يحدث ذلك أبداً، وقد كان حدوثه حتميًا كما كانت نتائجه تبعث على الأسى، وقد ظلت عناصر غير متجانسة يقف أحدها فى مواجهة الآخر، الشمال، والحكومة، والعبد من ناحية، وفى الناحية الأخرى الجنوب بأسره الذى كان ينتمى إلى اللون الأبيض، سواء السادة أو المشردون، الشرفاء أو الأوفياء القتلة الخارجون على القانون أو شهداء الواجب .

من ثم فمن الصعب الكتابة عن هذه الفترة كتابة هادئة، فقد كانت المشاعر متوثبة، وكانت انفعالات البشرية تطيح بالناس وتعميهم، وفى وسط هذا كله كانت هناك شخصيتان تجسدان ذلك اليوم فى العصور المقبلة إحداهما صورة رجل رمادى الشعر، تصرف آباؤه تصرف الرجال ويرقد أبناؤه فى قبور لا تحمل أسماء، والذين خضعوا لشر عبودية كان إلغائها ينذر بشرور لاحد لها للجميع، والذى وقف فى النهاية، فى غروب الحياة، كائنا معنويا مدمرا، والكراهية فى عينيه – والصورة

الأخرى لكائن غير واضح أو طابع الأمهات، وجهها المفزع قد أسود بسبب ضباب القرون، وكانت فى الزمن الماضى تبكى تحت رحمة هذا السيد الأبيض، وقد انحنت فى حب وعطف على مهود أبنائه وبناته، وأغلقت عند الموت عيون زوجته الذابلة – بل إنها بناء على رغبته خضعت لشهوته وأخرجت للعالم طفلاً أسمر، فلا ينقضى غير زمن قصير حتى ترى أطراف وليدها ملقاة للرياح بعد أن قتله سفاحو منتصف الليل والذين يخرجون على صهوة جيادهم يبحثون عن "الزنوج الملعونين" ، كانت هذه أسوأ لمحات ذلك اليوم الأغبر، وليس هناك من صافح أيدى هاتين الشخصيتين من شخصيات الماضى الحاضر، ولكنهما فى كراهية ذهبا إلى مساكنهما، ومازال أبناء أبنائهم يعيشون حتى اليوم فى كراهية .

هذا إذن كان ميدان عمل مكتب الرجال المحررين، وهو العمل الذى احتواه بشىء من التردد، قانون ١٨٦٨ حى سنة ١٨٦٩، ودعونا ننظر إلى أربع سنوات من عمله فى مجموعها، كان هناك فى سنة ١٨٦٨ تسعمائة موظف يتبعون المكتب ويوزعون من واشنطن حتى تكساس، ويتحكمون بصورة مباشرة وغير مباشرة فى ملايين عديدة من البشر، وتقع أعمال هؤلاء الموظفين فى الأساس تحت سبعة عناوين : الإغاثة من المعاناة البدنية، والتأكد من بدء العمل الحر، وبيع الأراضى وشراؤها، وإنشاء المدارس، ودفع التعويضات، وإقامة العدالة، وتمويل هذه الأعمال .

حتى يونيو ١٨٦٩ كان قد عولج نصف مليون مريض على يد أطباء المكتب وجراحيه، وكان ٦٠ مستشفى ومستوصف قد بدأوا العمل، وخلال ٥٠ شهرا تم توزيع ٢١ مليون جراية مجانية بتكلفة تجاوزت أربعة ملايين دولار، ثم جاءت مشكلة العمل المستعصية، فى البداية، تم نقل ثلاثين ألفا من الرجال السود من محطات اللجوء والإغاثة وأعيدوا إلى المزارع، أعيدوا إلى التجربة الحاسمة بطريقة جديدة فى الحياة، وصدرت تعليمات واضحة من واشنطن: يجب أن يكون العمال أحرارا فى اختيار أصحاب أعمالهم، وألا يفرض سعر محدد للأجور، وألا يكون هناك سخرة أو عمل بالإكراه .

وإلى هنا كانت الأمور طيبة، ولكن لما كان الموظفون المحليون مختلفين فى الكفاءة وفى الشخصية، حيث كان الموظفون يتغيرون باستمرار، كان لابد أن تختلف النتائج، وكان أكبر عوامل النجاح هو أن الغالبية بين الرجال المحررين كانت على استعداد– بل ومتشوقة – للعمل، وهكذا كتبت عقود العمل – ٥٠ ألفا فى ولاية واحدة – وأحيط

العمال بذلك علماً، وأصبحت الأجور مضمونة، وتوافر أصحاب العمل، وفي واقع الأمر أصبحت الهيئة مكتب عمل واسع النطاق لايتسم بالكمال، بل وبه عيوب واضحة هنا وهناك، ولكنه بوجه عام حقق نجاحاً يفوق أحلام المعنيين من الرجال، وكانت العقبتان الرئيستان اللتان واجهتا المسئولين هما المستبد والكسول - مالك العبيد الذى كان مصمماً على استمرار العبودية تحت اسم آخر، والرجل الذى تحرر والذى ينظر إلى الحرية على أنها راحة مستمرة – الشيطان والبحر العميق .

وفي العمل لإقرار وضع الزنوج وملاك مزارعين، واجه المكتب من البداية بعض الصعوبات، وفي النهاية توقف عن المحاولة، فقد حقق بعض الأشياء، وكان يضع الخطط لأشياء أكبر، كانت الأراضي المهجورة تؤجر مادامت تظل في يد المكتب، وتحصلت إيرادات تبلغ حوالى نصف مليون دولار من المستأجرين السود، وبيعت مساحات أخرى من الأراضي التي أصبحت ملكاً للدولة بشروط ميسرة، وفتحت الأراضي العامة ليستوطنها العدد القليل للغاية من الرجال المحررين الذين كانوا يملكون الأدوات ورأس المال، ولكن أمل "الأربعين فدانًا والبغل" – وهو الطموح المشروع والمعقول لأن يصبح المزارع مالكًا للأرض، والذى كانت الأمة وعدت به الرجال المحررين وعداً قاطعاً– كتب له في معظم الحالات أن يمثل خيبة أمل مريرة، وأولئك الرجال الذين يسعون اليوم لإعادة الزنوج إلى السخرة في الأرض يعرفون جيداً أو ينبغي أن يعرفوا، أن إمكانية ربط الفلاح الزنجي بالأرض بإرادته قد انتهت في ذلك اليوم الذى كان على " ممثل مكتب الرجال المحررين" أن يذهب إلى جنوب كارولينا ويقول للرجال المحررين الباكين، بعد سنوات من بذلهم للجهد والعرق، أن أرضهم ليست ملكًا لهم، وأن ثمة خطأ قد وقع في مكان ما، وإذا كان زنوج جورجيا وحدهم يملكون في سنة ١٨٧٤ ٣٥٠ ألف فدان من الأرض، فقد كان ذلك بسبب جهدهم وعرقهم وليس بسبب كرم الحكومة .

وكان أكبر نجاح لمكتب الرجال المحررين هو غرس المدارس المجانية بين الزنوج، وفكرة التعليم الابتدائى المجانى بين كل طبقات الجنوب، ولم يكتف المجلس بدعوة المعلمات والناظرات من خلال الجمعيات الخيرية وبناء المدارس لهن، بل أنه ساعد على اكتشاف ودعم بعض دعاة الثقافة الإنسانية مثل أدموند وير وصاموبل أرمسترونج، وإيراستوس كرافات، وكانت معارضة تعليم الزنوج في الجنوب شديدة في البداية، وتبدت في صورة رماد وشتائم ودماء، لأن الجنوب كان يعتقد أن الزنجى

المتعلم هو زنجي خطر، ولم يكن الجنوب على خطأ فى ذلك تماما، لأن التعليم بين كل الأنواع كان فيه دائما، وسيكون فيه دائما، عنصر من الخطر والثورة، وعنصر من السخط وعدم الرضى، ومع ذلك فإن الناس يسعون إلى المعرفة، وربما كانت بعض جوانب هذه المفارقة، حتى في أيام المجلس القلقة، قد ساعد على مقاومة التعليم، وهى المقاومة التى مازالت لها جذورها اليوم فى الجنوب، ولكنها جذوة وليست لهيبا، وفى تلك الأيام أسست معاهدة فيسك وأتلانتا وهوارد وهامبتون، وأنفقت ستة ملايين من الدولارات على التعليم، منها ٤٥٠ ألف دولار اقتطعها الرجال المحررون أنفسهم من فقرهم .

وأثبتت هذه التبرعات إلى جانب شراء الأراضى وغير ذلك من المشاريع، أن العبيد السابقين لديهم بالفعل قدر من رؤوس الأموال السائلة، وكان المصدر الأول الرئيس لذلك هو العمل فى الجيش، ومايحصل عليه الجندى من أجر وغنائم، وكانت المبالغ التى يحصل عليها الجنود الزنوج فى البداية تواجه صعوبات بسبب جهل المستحقين، وبسبب أن حصص السرايا الملونة من الولايات الشمالية يشغلها فى الغالب جنود من الجنوب، غير معروفين لزملائهم من الجنود، ونتيجة لذلك كانت المرتبات مصحوبة بعمليات غش لدرجة دفعت الكونجرس إلى اتخاذ قرار مشترك فى سنة ١٨٦٧ وضع الأمر كله فى يد مكتب الرجال المحررين ، وخلال عام دفع ستة ملايين دولار لخمسة آلاف مستحق، وفى النهاية زاد المبلغ عن ثمانية ملايين دولار، وحتى فى ظل النظام كان الغش منتشراً، ومع ذلك فإن العمل وضع رأس المال المطلوب فى أيدى أشخاص كانوا أقرب إلى المتسولين، وقد أنفق جزء منه على الأقل بطريقة نافعة .

وكانت أصعب أجزاء عمل المكتب، وأقلها نجاحا فى مجال ممارسة الوظائف القضائية، وكانت محكمة المكتب النظامية تتألف من ممثل لصاحب العمل، وممثل زنجي، وممثل للمكتب ، فلو كان المكتب قد تمكن من الحفاظ على موقف قضائى سليم لكان هذا الترتيب مثاليا ولاكتسب الثقة بمرور الوقت، ولكن طبيعة الموظفين وشخصياتهم أساءت إلى المكتب وأدت بغير شك إلى قدر كبير من انعدام العدالة وانتشار السخط، ومن ناحية أخرى كان ترك الزنوج تحت رحمة محاكم الجنوب أمراً مستحيلاً، وفى مناطق نائية لم تنته منها العبودية إلا مؤخراً، كان منع الأقوياء من الإساءة للضعاف، ومنع الضعاف من تحدى القوة المتضائلة للأقوياء مهمة شاقة للغاية، وكان سادة الأراضى السابقون يتعرضون لإجراءات تحفظية ويجرى إيقافهم

وحبسهم وعقابهم المرة بعد المرة،بدون احترام من جانب ضباط الجيش، وكان العبيد السابقون يعاملون بالضرب والاغتصاب والذبح من جانب الرجال الغاضبين الراغبين فى الثأر، وباتت محاكم المجلس ساحات لمعاقبة البيض، بينما اتجهت المحاكم المدنية النظامية لأن تصبح مؤسسات لإدامة عبودية السود، واستخدمت تقريبا كل وسيلة قانونية من جانب السلطات التشريعية لتحويل الزنوج إلى أقنان للأرض، لجعلهم عبيدا للدولة إن لم يكن لملاكهم الأفراد ، بينما تبين فى كثير من الحالات أن مسؤولى المجلس كانوا يحاولون أن يميزوا الفئات المقهورة، وأن يعطوا الرجال المحررين سلطة واستقلالا لم يكونوا قادرين بعد على استخدامهما، وإنه لمن السهل علينا نحن أبناء جيل آخر أن نقدم نصيحتنا لأولئك الذين تحملوا سخونة تلك الأيام، ومن السهل الآن نرى أن الرجل الذى فقد بيته وثروته وأسرته بضربه واحدة وشهد أرضه يتحكم فيها "البغال والزنوج" قد استفاد حقا بإنهاء العبودية، وليس من الصعب أن نقول الآن للشباب من الرجال المحررين، الذين تعرضوا للنصب عليهم والذين رأوا آباءهم تسحق رؤوسهم حتى تتحول إلى خليط لزج، ورأوا أمهاتهم يتعرضن للاعتداء العشوائى، إن الودعاء سوف يرثون الأرض، وقبل كل شىء ليس هناك أسهل من أن نلقى على رأس مجلس الرجال المحررين كل شرور تلك الأيام الرديئة، وأن ندينه عن كل خطأ وخطيئة ارتكبت.

كل هذا سهل، ولكنه ليس معقولا ولا عدلا، هناك من أخطأ، ولكن ذلك كان قبل مولد أوليفار هوارد بوقت طويل[8] وكان هناك اعتداءات إجرامية وإهمالا مستهترا، ولكن لو لم يوجد نظام للسيطرة لحدث ماهو أكثر بكثير مما حدث بالفعل، ولو كانت تلك السيطرة قد جاءت من الداخل لعاد الزنوج إلى العبودية من جديد، أما وقد جاءت السيطرة من الخارج فإن الرجال الكاملين والأساليب الكاملة كان من شأنها أن تدفع بكل الأشياء إلى الأفضل، وحتى مع وجود أشخاص غير كاملين وأساليب موضع شك فإن العمل الذى تم كان جديرا بالثناء.

هكذا كان فجر الحرية، وهكذا كان عمل مجلس الرجال المحررين الذى يمكن تلخيصه على النحو التالى: فى مقابل نحو ١٥ مليون دولار، بالإضافة إلى المبالغ التى

(٨) أنشئت باسمه جامعة فى واشنطون العاصمة فى سنة ١٨٦٧ لتوفير التعليم للعبيد الذين تحرروا حديثا ولكن الجامعة كانت مفتوحة دائما أمام البيض والسود، وهى معروفة حتى الآن بمجموعة كتبها وأبحاثها التى تتناول شؤون السود وثقافتهم وتاريخهم (المترجم) .

أنفقت قبل عام ١٨٦٥، وإلى تبرعات جمعيات الخير، حقق هذا المجلس نظامًا للعمل الحر، وأنشأ بداية لملكية الفلاحين، وحصل على الاعتراف بالأشخاص المحررين السود أمام المحاكم ، وأرسى أساس المدرسة المجانية المشتركة فى الجنوب، ومن الناحية الأخرى فقد فشل فى بدء إقامة حسن النوايا بين السادة السابقين والرجال المحررين، وحماية عمله بالكامل من الأساليب الأبوية التى لا تشجع على الاعتماد على النفس، وما وعد به من تزويد الرجال المحررين بالأراضى، وكان ما حققه من نجاح نتيجة للعمل الشاق الذى دعمته مساعدات الخيرين والسعى المتحمس من جانب الرجال السود، وكانت إخفاقاته نتيجة للوكلاء المحليين السيئين، والمصاعب الملازمة لهذا النوع من العمل، والإهمال على المستوى الوطنى.

وكان من الطبيعى أن تتعرض مثل هذه المؤسسة بما تملكه من سلطات واسعة ومسؤوليات جسيمة وسيطرة كبيرة على الأموال ووضعها اللافت للأنظار، للهجوم المتكرر والمرير، وقد تعرض المجلس لتحقيق متشدد من جانب الكونجرس بناء على طلب فرناندو وود فى سنة ١٨٧٠، وقد حولت أرشيفاته والقليل مما بقى من اختصاصاته بلا مجاملة من إشراف هوارد، وفى غيبته، إلى إشراف وزير الحرب الجديد فى سنة ١٨٧٢ بناء على توصية ذلك الوزير، وأخيرا، وفى أعقاب وقوع أخطاء جسيمة ارتكبها الوزير والتابعون له، قدم الجنرال هوارد للمحاكمة العسكرية فى ١٨٧٤، وقد أجريت محاكمتان برئ مفوض مجلس الرجال المحررين فيهما رسميا من أى خطأ مقصود،بل وأثنى على عمله، ومع ذلك، فقد ألقى الضوء على كثير من الأمور غير المستحبة، فقد كانت أساليب أداء مهام المجلس خاطئة، وثبت العديد من حالات الاختلاس والتلاعب بالأموال، وكانت هناك شكوك قوية بشأن مخالفات أخرى، وكانت هناك صفقات أعمال يشتم منها رائحة المضاربة الخطرة إن لم تكن رائحة عدم النزاهة، يعزز ذلك كله السمعة السيئة التى أحاطت ببنك الرجال المحررين.

ومن الناحية الأدبية والعملية كان بنك الرجال المحررين جزءا من مجلس الرجال المحررين ، وإن لم تكن هناك رابطة قانونية بينهما، واستنادا إلى المكانة التى أضفتها عليه الحكومة، والسمعة التى يتمتع بها مجلس الإدارة المؤلف من شخصيات لها احترامها الكبير ومكانتها الوطنية، كانت هذه المؤسسة المصرفية قد بدأت بداية باهرة فى تطوير تلك الكفاءة العملية بين الأهالى السود التى كانت العبودية قد حرمتهم منها، ثم فى يوم حزين ، جاء الانهيار، وكل الدولارات التى كسبها الرجال المحررون

بمشقة لم تلبث أن اختفت، ولكن ذلك لم يكن أسوأ ما في الخسارة،فقد ذهب معها الإيمان بالادخار، وقدر كبير من الإيمان بالرجال، وتلك خسارة لم تشف منها بعد هذه الأمة التي مازالت تسخر حتى اليوم من عدم قدرة الزنوج على التعامل بالأموال، وحتى لو استمرت العبودية عشر سنوات أخرى لما أضرت بسمعة السود وقدرتهم على الادخار والتعامل بالمال بقدر مافعلت الإدارة السيئة والإفلاس الذي حاق بسلسلة من بنوك الادخار التي أنشأتها الأمة لمساعدتهم بالتحديد ، وإلى من ينبغي أن يوجه اللوم كله أمر يصعب تقريره، وسواء كان المجلس والبنك قد أصيبا بالسكتة بسبب ضربات الأصدقاء الأنانيين أو بسبب المؤامرات السوداء من جانب الأعداء، فربما لن يكشف الوقت عن أيهما، لأن التاريخ هناك لم يكتب في ذلك الحين.

ومن بين الأعداء من خارج المجلس كان أشدهم ضراوة أولئك الذين لم يتهموا سلوكه أو سياسته الموضوعة بمقتضى القانون على أنها ضرورة لأية مؤسسة من هذا النوع، بل جاءت بعض الهجمات في المقام الأول من ولايات الحدود[٩] وولايات الجنوب، وقد لخصها السناتور دافيز من كنتاكي عندما ذكر في تقديمه لمشروع قانون في سنة ١٨٦٦ قوله "إن المجلس يعمل على إثارة القلق والنزاع بين البيض والسود ... عن طريق إعطاء سلطات غير دستورية ". وقد لقيت هذه الحجة تأييداً قوياً في الجنوب والشمال، لكن قوتها ذاتها كانت مصدر ضعفها، لأنه كان من منطق الأشياء إنه إذا لم يكن مما يتفق مع الدستور ولايتفق مع الأغراض العملية أن تتمكن الأمة من حماية أفرادها الذين لاحول لهم ولاقوة فليس هناك غير بديل واحد وهو أن يصبح هؤلاء التعساء حماة أنفسهم عن طريق تسليحهم بالرصاص، بالإضافة إلى ذلك كان طريق رجل السياسة العملي يشير إلى نفس الناحية، فإن منطق هذا الانتهازي يقول إننا إذا كنا لانستطيع أن نعيد بناء الجنوب بالوسائل السلمية بأصوات البيض في الانتخابات، فإننا نستطيع أن نحقق ذلك بالتأكيد بأصوات السود، وهكذا التقت يدا العدالة والقوة .

(٩) هي الولايات التي فضلت الوصول إلى حل وسط بدلا من الانفصال، وهي : ديلاوير وفرجينيا وكنتاكي وميسوري (المترجم) .

ومن ثم لم يكن البديل المطروح على الأمة هو بين حق الانتخاب الكامل أو المقيد للزنوج، لأنه لو كان الأمر كذلك لاختار كل رجل عاقل، من السود أو البيض، هذا الأخير، وإنما كان الاختيار فى الواقع بين حق الانتخاب والعبودية، بعد أن سفكت دماء لانهاية لها وتدفق ذهب كثير لإزالة هذه الوصمة عن جبين البشر، ولم يكن هناك مجلس نيابى واحد فى الجنوب على استعداد لأن يسمح لزنجى، فى ظل أية ظروف، بأن يتقدم إلى صناديق الاقتراع، ولم يكن هناك مجلس تشريعى واحد فى الجنوب يعتقد أن عمل الزنوج الأحرار ممكن بدون سلسلة من القيود تنزع عنه كل مظاهر الحرية، ولم يكن هناك رجل أبيض فى الجنوب لاينظر بإخلاص إلى "التحرير" على أنه جريمة، وعلى أن إلغاءه عمل واجب ينبغى إنجازه، وفى ظل وضع كهذا، كان منح الرجل الأسود حق الاقتراع أمرا ضرورياً، كان أقل ماتستطيع الأمة المذنبة أن تمنحه لجنس أسىء إليه، وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة لإلزام الجنوب بقبول نتائج الحرب، وهكذا أنهى منح حق الاقتراع للزنوج الحرب الأهلية وبدأ عداوة عنصرية، وشعر البعض بالامتنان لتضحية العنصر على مذبح الوحدة الوطنية، وشعر البعض ومازالوا يشعرون بلا مبالاة واحتقار.

ولو كانت الضرورات السياسية أقل إلحاحا، والمعارضة لحماية الحكومة للزنوج أقل شراسة، والتمسك بنظام العبودية أقل قوة، لاستطاع المجتمع أن ينظر للأمور من الناحية الاجتماعية وأن يتصور سياسة أفضل بكثير، أن يتصور وجودا دائما لمجلس الرجال المحررين، مع شبكة قومية لمدارس الزنوج، وإدارة للعمل والعمالة تمارس مهامها بعناية، ونظام للحماية غير المتحيزة أمام المحاكم النظامية، ومؤسسات لتحسين الأوضاع الاجتماعية مثل بنوك الادخار الاجتماعية، وجمعيات الأراضى والمبانى، والمستوطنات الاجتماعية، وكان من شأن هذا الاستخدام للنقود والعقول أن ينشئ مدرسة عظيمة للمواطنة، وأن يحل ما لم نستطع أن نحله حتى الآن من مشاكل الزنوج المحيرة والمستمرة .

وإذا كان وجود مثل هذه المؤسسة أمرا لايمكن التفكير فيه فى سنة ١٨٧٠ فإن ذلك يرجع جزئيا إلى بعض تصرفات مجلس الرجال الأحرار نفسه، فهو كان ينظر إلى عمله على أنه عمل مؤقت، وينظر إلى منح حق التصويت للزنوج على أنه الإجابة النهائية على كل الأسئلة المحيرة، وكان الطموح السياسى لكثير من موظفيه ومن وضعهم تحت حمايته قد دفعه بعيدا إلى أنشطة مشكوك فى سلامتها حتى أصبح

الجنوب – الذى كانت تتشكل لديه تحيزاته الخاصة العميقة – قادراً على أن يتجاهل كل الأعمال الطيبة للمجلس، وأن يبغض اسمه ذاته ويكرهه كراهية تامة، وهكذا مات مجلس الرجال الأحرار، وكان وليده "التعديل الخامس عشر"[١٠].

إن انقضاء مؤسسة إنسانية عظيمة قبل أن تفرغ من عملها، مثل موت شخص واحد قبل الأوان، يخلف تركة تتطلب النضال من جانب أشخاص آخرين، وتركة مجلس الأحرار هي الإرث الثقيل لهذا الجيل، نحن اليوم، عندما نجد مشاكل جديدة وأوسع نطاقا ترهق كل عصب من أعصاب عقلنا وروحنا الوطنية، ألا يكون جدير بنا أن نقيم هذه التركة بعناية وأمانة؟ إن جميع الناس يعرفون أنه : بالرغم من الحلول الوسط، والحرب والنضال، فإن الزنجى لم يتحرر، ففى مجاهل غابات ولايات الخليج [١١] وعلى امتداد أميال وأميال لم يكن الزنجى قادرا على مغادرة المزرعة التى ولد بها، وفى كل ريف الجنوب تقريبا مازال المزارعون السود مرتبطين بالأرض، مقيدين بالقانون والعرف فى عبودية اقتصادية لامهرب منها إلا بالموت أو السجن، وفى أكثر الأقسام أوالمدن ثقافة فى الجنوب يعتبر الزنوج طائفة خاضعة مستبعدة، حقوقها وامتيازاتها مقيدة، وأمام المحاكم ، سواء بحكم القانون أو العرف، فإنهم لايقفون على قدم المساواة، وفرض الضرائب دون تمثيل هو القاعدة فى حياتهم السياسية[١٢] وكانت نتيجة هذا كله – وذلك أمر طبيعى – الخروج على القانون وارتكاب الجرائم، هذه هى التركة الجسيمة التى تركها مجلس الرجال الأحرار، وذلك هو العمل الذى لم يقم به لأنه لم يكن يستطيع القيام به .

لقد رأيت بلادا سعيدة بضوء الشمس، حيث الأطفال يغنون والتلال المنسابة ترقد كنساء مغرمات مثقلة بالحصاد، وهناك فى شارع كينجز الفسيح كان يجلس ولازال شخص محجب منحنى الرأس، يسرع السائرون خطاهم عندما يمرون به، وفى الجو الفاسد يكمن الخوف، وقد انقضت ثلاثة قرون من الفكر فى محاولة لرفع هذه الرأس البشرية المنحنية ونزع الحجاب عنها، وهانحن نشهد قرنا جديدا يطالب بأداء هذا الواجب وإنجاز هذه المهمة، إن مشكلة القرن العشرين هى مشكلة حاجز اللون .

(١٠) انظر الهامش رقم ٧

(١١) الولايات الأمريكية المحيطة بخليج المكسيك وهى فلوريدا وألاباما ومسيسيبى ولويزيانا وتكساس (المترجم) .

(١٢) إشارة إلى القاعدة القانونية المعروفة "لاضرائب دون تمثيل no taxation without representation (المترجم) .

الفصل الثالث

عن السيد بوكر واشنطون وآخرين

أهم شيء فى تاريخ الزنوج الأمريكيين منذ ١٨٧٦ هو ازدياد مكانة السيد بوكر واشنطون، وقد بدأ ذلك عندما كانت ذكريات الحرب ومُثلها قد بدأت تختفى بسرعة، وكان عصر من التطور التجارى الملفت للنظر قد بدأ، وتملك أبناء الرجال المحررين شعور بالشك والتردد وعند ذلك بدأ دور بوكر القيادى، لقد جاء السيد واشنطون حاملا معه برنامجا محددا بسيطا، فى اللحظة النفسية التى كانت فيها الأمة تشعر بشيء من الخجل لما أبدته من عواطف متأججة تجاه الزنوج، وكانت تركز طاقاتها على الدولارات، وكان برنامجه الداعى إلى التعليم الصناعى، والتصالح مع الجنوب، والخضوع والصمت عن الحقوق السياسية والمدنية، ليس جديدا بالكامل. وقد سعى الزنوج الأحرار منذ ١٨٣٠ حتى وقت الحرب إلى إنشاء مدارس صناعية، وكانت جمعية الإرسالية الأمريكية تقوم منذ البداية بتعليم مهن متعددة، وكان برايس وآخرون قد بحثوا عن طريقة للتحالف المشرف مع خيرة أبناء الجنوب، ولكن السيد واشنطون كان أول من ربط بين هذه الأشياء كلها برباط لا ينفصم، وقد وضع فى هذا البرنامج قدرا هائلا من الحماسة والطاقة والإيمان المطلق، حوله من مسلك فرعى إلى "طريقة للحياة"، وحكاية الأساليب التى استخدمها لتحقيق ذلك هى دراسة مثيرة للحياة البشرية.

وقد أدهش الأمة أن تستمع إلى زنجى يدعو إلى برنامج كهذا بعد عشرات السنين من الشكوى المريرة، ولقيت دعوته التصفيق من الجنوب، وأثارت الاهتمام والإعجاب فى الشمال. وبعد همهمة مضطربة من الاحتجاجات من جانب الزنوج فإنها أسكتتهم إن لم تكن قد كسبتهم إلى جانبها.

وكان كسب التعاطف والتعاون من جانب شتى العناصر التى يتألف منها البيض فى الجنوب هى أولى المهام التى وضعها السيد واشنطون لنفسه ، وكان ذلك فى وقت إنشاء توسكيجى فى رأى السود أمرا مستحيلا ، ومع ذلك فقد تحقق بعد عشر

سنوات فى التعبير الذى انتشر في أتلانتا: "إننا فى كل الأشياء الاجتماعية الخالصة نستطيع أن نكون منفصلين كانفصال الأصابع الخمسة، ومع ذلك فنحن شىء واحد كما اليد فى كل الأشياء التى لا غنى عنها للتقدم المشترك"، وكان هذا "الحل الوسط الذى وضع فى أتلانتا" هو أهم شىء فى العمل الذى أنجزه واشنطون، وقد فسره الجنوب بطرق مختلفة: المتطرفون فسروه على أنه تنازل تام عن المطالبة بالمساواة المدنية والسياسية، وفسره المحافظون على أنه أساس عملى سخى للتفاهم المتبادل، وعلى ذلك وافق عليه هؤلاء وهؤلاء، وأصبح صاحبه اليوم بغير شك أبرز أبناء الجنوب منذ أيام جيفرسون دافيز، والشخص الذى يتبعه أكبر عدد من الأنصار.

يأتى بعد هذا الإنجاز عمل السيد واشنطون لكسب الاحترام والتقدير فى الشمال، وقد حاول آخرون أقل ذكاء وبراعة أن يجلسوا على هذين المقعدين لكنهم وقعوا بينهما، لكن السيد واشنطون عرف قلب الجنوب من ميلاده وتعليمه، ولذا تمكن بحدس فريد أن يحيط بروح العصر التى كانت مسيطرة على الشمال. كما أنه عرف جيدا كلام وأفكار النزعة التجارية المنتصرة، ومُثل الرخاء المادى، بحيث إن صورة الصبى الأسود المنفرد الذى يصب اهتمامه على أجرومية اللغة الفرنسية بين أعشاب وأقذار مسكن مهمل لم تلبث أن صارت بالنسبة له شيئا مستغربا للغاية، وإن المرء يتساءل عما كان يمكن أن يقوله سقراط وسان فرانسيس أسيسى عن ذلك.

غير أن هذا التفرد فى الرؤية وهذا التوحد مع عصره هما العلامة المميزة للرجل الناجح، وكأنما تحتاج الطبيعة لأن يضع الناس لأنفسهم حدودا ضيقة حتى يكتسبوا القوة، وهكذا اكتسبت عقيدة السيد واشنطون أتباعا مخلصين مطيعين، ونجح عمله نجاحا مدهشا، وأصبح أصدقاؤه عديدين، وتملك أعداؤه الارتباك. وقد أصبح من المسلم به اليوم أنه المتحدث المعترف به لدى أتباعه الذين يبلغون عشرة ملايين، فهو شخصية من أهم الشخصيات فى أمة تتألف من ٧٠ مليونا، ولذا فإن المرء يتردد فى توجيه النقد لحياة بدأت بهذا القدر القليل وحققت هذا القدر الكبير، ومع ذلك فقد آن الأوان الذى يجوز فيه للمرء أن يتكلم بإخلاص تام واحترام مطلق عن أخطاء السيد واشنطون ونواقص عمله، كما يتحدث عن انتصاراته، بدون أن يتصور أحد أنه يتسقط له الأخطاء أو أنه يغار منه، ودون أن ننسى أن عمل الشر أيسر من عمل الخير فى هذا العالم.

لم يكن النقد الذى وجه حتى الآن للسيد واشنطون هو دائماً بسبب سماته الرئيسة، ففى الجنوب خاصة كان عليه أن يمشى بحذر ليتجنب الأحكام القاسية - وذلك أمر طبيعى لأنه يتعامل مع الموضوع الوحيد الذى يتميز بأكبر قدر من

الحساسية فى تلك الأنحاء – وفى مرتين إحداهما وقعت فى شيكاغو عندما كانت تحتفل بذكرى الحرب الأسبانية الأمريكية عندما أشار إلى التحيز اللونى الذى "يأكل أساسيات الجنوب"، وكانت الثانية عندما تناول طعام العشاء مع الرئيس روزفلت وإن كان ما ترتب عليهما من نقد من جانب الجنوبيين شديدا بدرجة هددت شعبيته، وفى الشمال كانت المشاعر قوية فى حالات كثيرة حيث تم التعبير عنها بقوة، حيث قيل إن نصيحة السيد واشنطون بالخضوع الآن ينقصها بعض عناصر الرجولة الحقة، وأن برنامجه للتعليم كان ضيقا لدرجة لا ضرورة لها، غير أن هذا النقد لم يكن يجد له تعبيرا صريحا فى حالات كثيرة وإن كان الأبناء الروحيون لدعاة تحرير العبيد[1] غير مستعدين للاعتراف بأن المدارس التى أنشئت قبل تاسكيجى على يد رجال لهم مُثل عليا رفيعة ونزعة لإنكار الذات، قد فشلت فشلا تاما أو أنها جديرة بالسخرية منها، وعلى ذلك فبينما لم ينج السيد واشنطون من الانتقاد فإن الرأى العام السائد فى البلد كان على استعداد لقبول الحل الذى يطرحه لمشكلة متعبة، وقوله "إذا كان هذا هو كل ما تريده ويريده قومك، فلتأخذه".

غير أن السيد واشنطون وجد بين شعبه أقوى المعارضة وأطولها أمداً، والتى وصلت فى بعض الأوقات إلى المعارضة المريرة، وهى معارضة مازالت مستمرة حتى اليوم، وإن كان الرأى العام للأمة قد أسكتها من التعبير العلني. وبطبيعة الحال فإن جانبا من هذه المعارضة هو من قبيل الحسد لا أكثر، وتعبير عن سخط الديماجوجيين الذين أبعدوا من مكانهم، والكراهية من جانب العقول الضيقة. ولكن إذا تركنا ذلك جانبا، فهناك بين الرجال المتعلمين والمفكرين من الملونين فى كل أنحاء الوطن شعور بالأسف العميق، والحزن، والتوجس للانتشار الواسع الذى لقيته بعض نظريات السيد واشنطون. ونفس هؤلاء الأشخاص يعجبون بإخلاصه، وهم على استعداد للعفو عن أخطائه بسبب المساعى المخلصة التى كانت تستحق السعى من أجلها، وهم يتعاونون مع السيد واشنطون بقدر ما يسمح لهم ضميرهم. والواقع أنه ليس مدحا قليلا لبراعة هذا الرجل وقوته أنه يحتفظ رغم مواجهته كثير من المصالح والآراء المتعارضة، باحترام الجميع.

(١) Abolitionists حركة امتدت فى التاريخ الأمريكى من ١٨٣٠ إلى ١٨٦٠ كانت تدعو إلى التحرير الإجبارى للعبيد السود، وقد ارتبطت بانتشار المذهب الإنجيلى فى ولايات الشمال الذى اعتبر المعاملة السيئة للزنوج خطيئة دينية، وكان من أهم الكتب التى صدرت لتأييد هذه الحركة قصة "كوخ العم توم"، وفى ظلها أعلن الرئيس لنكولن الوثيقة المسماة "إعلان تحرير العبيد" (المترجم).

ولكن كتم صوت المنتقدين من المعارضين المخلصين هو من الأمور الضارة، وهو يؤدى بالبعض من خيرة المنتقدين إلى صمت مؤسف وإلى شلل عن العمل، كما يدفع آخرين إلي الانفجار بأقوال انفعالية وخارجة عن الاعتدال تؤدى إلى إبعاد المستمعين، أما النقد المخلص والجاد من جانب الذين يتصل الأمر بمصالحهم أوثق الاتصال – انتقاد الكتاب من جانب القراء، وانتقاد الحكومات من جانب المحكومين، وانتقاد القادة من جانب من يتبعونهم – هذا النقد هو صميم الديمقراطية وهو درع المجتمع الحديث، وإذا كان خيرة الزنوج الأمريكيين يقبلون عن طريق الضغط الخارجى قائدا لم يعرفوه من قبل يكون من الواضح أنهم سيحققون مكسب. وتكون هناك أيضا خسارة لا سبيل إلى إصلاحها ، خسارة ذلك التعليم ذى القيمة الرفيعة الذي تتلقاه مجموعة تستطيع من خلال البحث والنقد أن تجد قادتها وتعينهم. والطريقة التى يتم بها ذلك هى فى الوقت نفسه أكثر الوسائل بساطة وهى أهم مشاكل النمو الاجتماعى. وما التاريخ إلاّ سجل هذه القيادات الجماعية. ومع ذلك فإن نوع هذا القيادات وسماتها تختلف اختلافا لا نهاية له! ومن بين كل الأنواع والأصناف، ماذا يمكن أن يفيدنا أكثر من قيادة لمجموعة داخل مجموعة؟ ذلك التحرك المزدوج الغريب حيث ربما يكون التحرك الحقيقى سلبيا والتقدم الفعلى تراجعا نسبيا، وهذا كله هو موضوع إلهام الباحث الاجتماعي ومصدر يأسه.

وقد حصل الزنجى الأمريكى فى الماضى على خبرة مفيدة فى اختيار القادة الجماعيين، وبذلك أرسى أساس أسرة حاكمة خاصة وهى أسرة أصبحت جديرة بالدراسة على ضوء الأوضاع الراهنة، عندما تكون العصى والأحجار والوحوش هى التى تشكل البيئة الوحيدة لجماعة من الناس، يكون موقفهم أساسا هو المعارضة الحازمة للقوى الطبيعية وعقد العزم على قهرها. ولكن عندما تضاف إلى الطبيعة الخام بيئة الناس والأفكار، فعندئذ قد يتخذ موقف الجماعة الأسيرة أشكالا ثلاثة رئيسة، شعور بالسخط والرغبة فى الثأر، أو محاولة لإصلاح كل الأفكار والأعمال بحيث تتلاءم مع المجموعة الأكبر، أو أخيرا بذل جهد حازم لتحقيق الذات وتطوير النفس بالرغم من الرأى السائد. ونحن نستطيع أن نعثر على تأثير كل من هذه المواقف فى فترات مختلفة فى تاريخ الزنجى الأمريكى، وفى تطور قادته المتعاقبين.

فقبل سنة ١٧٥٠عندما كانت نيران الحرية الإفريقية مازالت تضطرم فى عروق العبيد لم يكن لدى أية قيادة أو محاولة للقيادة غير دافع واحد وهو التمرد والثأر،

وتمثل ذلك فى جماعات المارون[٢] ، والسود الدانمركيين، وكاتو أوف ستونو [٣] وهى الجماعات التى وضعت كل الأمريكيين فى خوف من وقوع الفتنة. وجاءت الاتجاهات التحررية التى صحبت النصف الثانى من القرن الثامن عشر، إلى جانب العلاقات الأكثر تراحما بين السود والبيض، أفكارا عن التصحيح النهائى للاندماج فى نهاية المطاف. وقد تم التعبير عن تلك المطامح بوجه خاص فى الأغانى الحارة لـ "فيليس"، وفي استشهاد "ألتوكس [*]" وفى القتال الذى خاضه "سالم، وبور" فى الإنجازات الفكرية لبانكر ودرهام، وفي المطالب السياسية لأنصار كوف[**].

وجاءت المتاعب المالية والاجتماعية التى أعقبت الحرب فخففت من الحماسة الإنسانية السابقة، وعبر الزنوج عن خيبة أملهم وتلهفهم على الحرية بسبب استمرار العبودية والقنانة فى حركتين اجتماعيتين. فالعبيد فى الجنوب، الذين تأثروا بغير شك بالشائعات الغامضة عن الثورة فى هايتى، قاموا بثلاث محاولات عنيفة للعصيان: فى ١٨٠٠ بقيادة جابرييل فى فرجينيا، وفى ١٨٢٢ بقيادة فيسى فى كارولينا، وفى ١٨٣١ أيضا فى فرجينيا بقيادة نات تيرنر الرهيب، أما فى "الولايات الحرة"[٤] فقد بُذلت محاولة جديدة وغريبة للتطوير الذاتى، ففى فيلادلفيا ونيويورك أدى التمييز اللونى إلى انسحاب الزنوج من كنائس البيض وتشكيل مؤسسة اجتماعية دينية متميزة من الزنوج عرفت باسم "الكنيسة الإفريقية" وهى منظمة مازالت قائمة وتسيطر فى شتى فروعها على أكثر من مليون شخص.

والنداء الحار الذى وجهه ووكر ضد اتجاه العصر يبين كم تغير العالم بعد مجىء محلج القطن، وبحلول عام ١٨٣٠ بدا أن العبودية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجنوب، وغلب على العبيد الاستسلام، وبدأ الزنوج الأحرار فى الشمال، مسترشدين بالمهاجرين الملونين من الأنديز الغربية، فى تغيير الأساس الذى تقوم عليه مطالبهم. فقد اعترفوا بعبودية العبيد، لكنهم تمسكوا بأنهم أحرار، وطالبوا بالاندماج

(٢) جماعة من الزنوج كانوا فى البداية من العبيد الهاربين الذين يعيشون فى أنحاء متطرفة من الأنديز الغربية وغيانا (المترجم) .

(٣) جماعة منتسبة إلى أحد ساسة روما القديمة (المترجم) .

(*) كريسبوس ألتوكس من الأمريكيين الأفارقة، كان أول الرجال الخمسة الذين ماتوا في مذبحة بوسطن ١٧٦٥

(**) بول كوف (١٧٥٩-١٨١٧) تاجر وقبطان بحرى أمريكى من أصل أفريقى شجع على إعادة توطين العبيد المتحررين في سيراليون بأفريقيا. كما أيد حقوق الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة ، وكان له دور أساسى فى إصدار قانون ١٨٧٣ الذى أعطى السود حق الاقتراع في ماساتشوستس (المترجم).

(٤) الولايات التى مارست الحرية قبل الحرب الأهلية (المترجم).

والاستيعاب داخل الأمة شأنهم شأن غيرهم من الناس، وهكذا ناضل فورتين وبورفيس في فيلادلفيا، وشاد في ويلنجتون، وديبويس في نيوهافن، وباربادوس في بوستون، وآخرون، منفردين ومجتمعين لا كعبيد بل كـ "أشخاص ملونين" وليسوا كـ "زنوج"، غير أن الاتجاه السائد في ذلك الحين لم يسمح بالاعتراف بهم إلاّ في حالات فردية واستثنائية، واعتبرهم جزءاً لا يتجزأ من كل السود المحتقرين. وسرعان ما وجدوا أنهم يتمسكون بصعوبة بالحقوق التى حصلوا عليها فى السابق، مثل حق التصويت والعمل والانتقال بوصفهم أحرارا، وظهرت بينهم خطط الهجرة واستيطان مناطق منفصلة، ولكنهم رفضوا الأخذ بهذه الاتجاهات، وتحولوا فى آخر الأمر إلى مناصرة حركة إلغاء الرق باعتبارها ملاذا أخيرا.

وهنا، تحت قيادة ريموند، ونيل، وويلز براون، ودوجلاس، بدأ فجر فترة جديدة من تأكيد الذات وتطويرها، ولاشك فى أن الحرية والاندماج في نهاية الأمر كانا هما المثل الأعلى فى نظر القادة، ولكن تأكيد الزنجى لحقوقه كإنسان كان هو السلاح الأساسى، وكانت حملة جون براون هى التعبير المتطرف عن هذا المنطق، وبعد الحرب والتحرر كان التراث العظيم لفريدريك دوجلاس، أعظم قادة الزنوج الأمريكيين، هو الذى يقود الجميع. وكان تأكيد الذات، ولاسيما فى الجانب السياسى، هو البرنامج الرئيس، ووراء دوجلاس جاء إليوت وبروس ولانجستون وساسة "إعادة البناء"، ثم جاء من هو أقل شهرة ولكن ربما بأثر اجتماعى أكبر، إلكسندر كروميل والأسقف دانيال باين. ثم جاءت ثورة ١٨٧٦، وإلغاء حق الزنوج فى التصويت، وتغير المثل العليا وتحولها، والبحث عن أنوار جديدة فى الظلام الكثيف، وظل دوجلاس، فى شيخوخته، مدافعاً بصلابة عن مثل شبابه وهى الاندماج فى نهاية الأمر من خلال تأكيد الذات، وليس على أى أساس آخر، ولفترة من الزمن برز "برايس" كقائد جديد، وبدا أنه قرر ألا يستسلم، لكنه أراد أن يعيد صياغة المثل القديمة بصورة لا تكون مرفوضة تماما من الجنوب الأبيض. ولكنه انتقل إلى جوار ربه وهو فى مطلع شبابه. وعند ذلك جاء القائد الجديد. وكان كل القادة السابقين تقريبا قد أصبحوا قادة بالتصويت الصامت من جانب أقرانهم، وأرادوا أن يقودوا شعبهم وحده، وكانوا فى العادة - باستثناء دوجلاس - غير معروفين تقريبا خارج فئتهم، ولكن بوكر واشنطون برز أساسا لا كقائد لعنصر واحد بل لعنصرين، برز كداع لحل وسط بين الجنوب والشمال والزنوج، وكان من الطبيعى أن يرفض الزنوج، فى البداية رفضا قاطعا، مؤشرات الحلول الوسط التى تتنازل عن حقوقهم المدنية والسياسية، حتى إذا كان المتوقع أن يكون مقابل ذلك هو فرص أوسع للتنمية الاقتصادية، غير أن الشمال الغنى والمسيطر

كان قد سئم المشكلة العنصرية بل وكان أيضا يستثمر أموالا طائلة فى مؤسسات الجنوب ويرحب بأية وسيلة للتعاون السلمى، وهكذا فوفقا للرأى السائد فى الأمة بدأ الزنوج الاعتراف بقيادة السيد واشنطون، وأخمد صوت الانتقاد.

ويمثل السيد واشنطون فى الفكر الزنجى الموقف القديم وهو المسايرة والخضوع. ولكن المسايرة فى هذا الوقت بالذات هى التى تجعل برنامجه برنامجا فريدا، فهذا عصر تطور اقتصادى غير معتاد، ومن الطبيعى أن يأخذ برنامج السيد واشنطون طابعا اقتصاديا، وأن يكون إنجيلا للعمل والنقود، إلى درجة تكاد تغطى بالكامل على أهداف الحياة الأكثر سموا، بالإضافة إلى أنه فى هذا العصر شرعت الأجناس الأكثر تقدما فى الاقتراب من الأجناس الأقل تطورا، ولذا فإن الشعور العنصرى قد ازداد كثافة. وبرنامج السيد واشنطون يقبل من الناحية العملية ما يقال عن دونية العناصر الزنجية. ومرة أخرى، فى وطننا، كان رد الفعل من مشاعر وقت الحرب قد أعطى قوة دفع للتحيز العنصرى ضد الزنوج، وقد قبل السيد واشنطون بالتنازل عن الكثير من المطالب العليا للزنوج كبشر وكمواطنين أمريكيين، وفى أوقات أخرى من التحيز الشديد ضد الزنوج كان الاتجاه العام بينهم هو تأكيد الذات، أما الآن فهناك دعوة إلى الخضوع، وفى تاريخ كل الأجناس الأخرى والشعوب الأخرى تقريبا كانت العقيدة التى تنتشر فى وقت مثل هذه الأزمات هى أن احترام الذات يستحق ما هو أكثر من الأراضى والمساكن، وأن الشعب الذى يتنازل طوعا عن هذا الاحترام، أو يكف عن النضال من أجله، لا يكون جديرا بالتقدم وإحراز الحضارة.

وردا على ذلك زعموا أن الزنجى لا يستطيع أن يعيش إلاّ من خلال الخضوع، والسيد واشنطون يطلب صراحة من السود أن يتنازلوا، فى الوقت الحاضر على الأقل، عن ثلاثة أشياء:

أولا: السلطة السياسية.

ثانيا: التمسك بالحقوق المدنية.

ثالثا: التعليم العالى لشباب الزنوج.

وأن يركزوا كل طاقاتهم على التعليم الصناعى، وجمع الثروة، والتصالح مع الجنوب، وقد استمر الدفاع عن هذه السياسة بشجاعة وإصرار خلال أكثر من خمسة عشر عاما، واستمرت منتصرة ربما لعشرة أعوام، وماذا كان المقابل للتقدم بغصن الزيتون هذا؟ لقد حدث خلال هذه الأعوام:

١ - إلغاء حق الزنوج فى التصويت.

٢ - إنشاء وضع قانونى للدونية المدنية للزنوج.

٣ – السحب المنتظم للمعونة من المؤسسات العاملة على توفير التعليم والتدريب العالى للزنوج.

ولم تكن هذه التطورات بطبيعة الحال نتيجة مباشرة لتعاليم السيد واشنطون، ولكن دعوته ساعدت بغير شك على تحقيقها بسرعة أكبر، وعند ذلك يثور السؤال: هل من الممكن، ومن المرجح، أن يحقق تسعة ملايين من الرجال تقدما ملموسا فى المجال الاقتصادى إذا كانوا محرومين من الحقوق السياسية، وإذا تحولوا إلى فئة منبوذة خانعة، ولم يسمح لهم إلاّ بفرصة ضئيلة لتطوير رجالهم الاستثنائيين؟ إذا كان التاريخ والمنطق يعطيان إجابة قاطعة عن هذه الأسئلة، فإنها "لا" مؤكدة، ومن ثم فإن السيد واشنطون يواجه مفارقة ذات جوانب ثلاث فى عمله:

١ – إنه يسعى بشرف ليجعل من الزنوج أصحاب حرف وأصحاب عقارات، ولكن من المستحيل تماما، فى ظل أساليب المنافسة الحديثة، أن يدافع أصحاب الأعمال ومالكو العقارات عن حقوقهم ووجودهم بدون الحق فى التصويت.

٢ – وهو يتمسك بحسن تدبير الأموال واحترام الذات، ولكنه يدعو فى الوقت ذاته إلى الخضوع الصامت للدونية المدنية التى لا مفر من أن تستنزف الرجولة من أى جنس فى المدى الطويل.

٣ – إنه يدعو إلى الدراسة الثانوية والتدريب المهنى ويقلل من أهمية مؤسسات التعليم العالى، ولكن ما كانت مدارس الزنوج الثانوية، ولا تاسكجى (٥) نفسها قادرة على البقاء يوما واحدا لو لم يكن هناك معلمون زنوج من خريجى الجامعات أو معلمون قام بتعليمهم خريجوها.

وهذا التناقض الثلاثى فى دعوة السيد واشنطون هو موضوع انتقاد من جانب مدرستين بين الملونين الأمريكيين: إحداهما تنحدر روحيا من توسينت (٦) المنقذ، من خلال جابرييل وفيسى وتيرنر، وهم يمثلون موقف السخط وطلب الثأر. وهم يكرهون الجنوب الأبيض كراهية عمياء ولا يثقون بالجنس الأبيض بوجه عام. وبقدر ما يتفقون

(٥) تاسكجى مدينة صغيرة فى ألاباما، اتخذها السيد واشنطون مقرا له وأنشأ بها مدرسة لتعليم الصناعات للزنوج (المترجم) .

(٦) بيير دومينيك توسينت بريدا (١٧٧٤–١٨٠٣) قام بتحرير عبيد هايتى الذين قاموا بثورة العبيد فى ١٧٩١، وقد اكتسب العبيد حريتهم فى ١٧٩٣، بينما كان الفرنسيون فى هايتى يقاتلون القوات البريطانية والأسبانية، العبيد وقد انضم توسينت إلى الفرنسيين وألزم البريطانيين بالجلاء عن الجزيرة وأصبح حاكما لها فى ١٧٩٩، وقد قاوم محاولة نابليون لإعادة العبودية إلى هايتى، غير أنه قبض عليه فى نهاية الأمر وظل فى السجن حتى وفاته، ولكن وظل رمزا للنضال من أجل الحرية (المترجم) .

على عمل محدد يتصورون أن الأمل الوحيد للزنوج هو الهجرة إلى خارج حدود الولايات المتحدة. ومع ذلك فمن سخريات القدر أنه ليس هناك ما يجعل هذا البرنامج فاشلا منذ البداية أكثر من المسلك الأخير الذى اتبعته الولايات المتحدة تجاه الشعوب الأضعف منها والأكثر سمرة فى الأنديز الغربية وهاواى والفلبين، لأنه إلى أى مكان فى العالم يمكننا أن نذهب لنكون بمأمن من الكذب والقوة الغاشمة؟

والفئة الثانية من الزنوج الذين لا يستطيعون أن يوافقوا مع السيد واشنطون لم يعبروا عن رأيهم بصوت مرتفع حتى الآن ، وهم لا يقدرون وجهات النظر المتناثرة، والاختلافات الداخلية، وهم لا يرحبون خاصة بأن يكون انتقادهم الصادق لرجل مفيد ومخلص مبررا لكراهية عامة من جانب المخالفين الذين لم يتروا الأمر، غير أن المسائل التى يتعلق بها الأمر هى مسائل جوهرية وجدية بحيث يصعب أن نرى كيف أن أشخاصا مثل الشقيقتين جريميكى(٧) وكيلى ميللر و ج. و. أ. بوفن وغيرهم من ممثلى هذه الجماعة يمكن أن يلتزموا الصمت بعد الآن. وهؤلاء الرجال يجدون أن من واجبهم أن يطلبوا من هذه الأمة ثلاثة أشياء:

١ - حق التصويت.

٢ - المساواة المدنية.

٣ - تعليم الشباب تبعا لقدراتهم.

وهم يعترفون بالخدمة الجليلة التى قام بها السيد واشنطون وصبره فى طلب المشورة ولباقته فى تقديم هذه المطالب، وهم لا يطلبون أن يصوت الرجال السود الجهلة إذا كان البيض الجهلة ممنوعين من التصويت، ولا يطلبون عدم وجود قيود معقولة على التصويت. وهم يعرفون أن المستوى الاجتماعى المنخفض لأغلبية هذا الجنس مسؤول عن قدر كبير من التمييز ضده، ولكنهم يعرفون أيضا، والأمة تعرف، أن التحيز الشديد ضد اللون غالبا ما يكون سببًا وليس نتيجة لانخفاض مستوى الزنوج. وهم يسعون إلى تخفيف هذه البقية الباقية من الهمجية وليس تشجيعها المنتظم وتدليلها من جانب كل أجهزة السلطة الاجتماعية بدءا من وكالة أسوشيتدبرس

(٧) إنجيلينا إيملى جريمكى (١٨٠٥-٧٩) و سارة مور جريمكى (١٧٩٢-١٨٧٣) شقيقتان، من نصيرات إلغاء العبودية مناضلات من أجل حقوق المرأة ، أصدرت أنجيلينا "نداء إلى النساء المسيحيات فى الجنوب" وأصدرت سارة "نداء لرجال الدين فى ولايات الجنوب" دعتا فيهما إلى مكافحة العبودية (المترجم).

إلى "كنيسة المسيح"، وهم يدعون، إلى جانب السيد واشنطون، إلى وجود شبكة واسعة من المدارس العامة للزنوج تستكمل بتدريب صناعى جيد، ولكنهم مندهشون من أن شخصًا له رؤية السيد واشنطون لا يستطيع أن يرى أن مثل هذا النظام للتعليم قد قام فى أى وقت، أو يمكن أن يقوم، على أى أساس غير الكليات والجامعات حسنة التجهيز، ويتمسكون بأن هناك طلبا على هذه المؤسسات فى كل أنحاء الجنوب تقوم بتعليم خيرة شباب الزنوج لتجعل منهم معلمين ومهنيين وقادة.

وهذه المجموعة من الناس تحترم السيد واشنطون وتقدر موقفه فى التصالح مع بيض الجنوب، ويقبلون ما سمى "وفاق أتلانتا" بتفسيره الواسع، وهم يسلمون معه بوجود مؤشرات كثيرة واعدة، وبوجود كثير من الرجال ذوى المطامح النبيلة والرأى المنصف فى هذه الفئة. وهم يعرفون أن المهام لم تكن بسيطة على ذلك الإقليم الذى يحمل على كتفيه أعباء ثقيلة، ولكن مع ذلك فإنهم يتمسكون بأن السبيل إلى الحق والخير هو الأمانة والاستقامة، وليس التملق بلا تمييز، وهم عندما يثنون على أبناء الجنوب الذين يحسنون عملا وينتقدون بلا هوادة أولئك الذين يقدمون على الخطأ؛ فهم يستفيدون بالفرص المتاحة ويدعون أقرانهم لأن يفعلوا مثلهم، ولكنهم فى الوقت نفسه يتذكرون أن التمسك الثابت بمثلهم العليا ومطامحهم السامية هو الذى سيجعل تلك المثل فى نطاق الوقائع الممكنة، وهم يعرفون أن الحق فى التصويت الحر، والتمتع بالحقوق المدنية، والحصول على التعليم، لن تأتى فى لحظة. وهم لا يتوقعون أن يروا أن التحيز وسوء الظن الذى استمر سنوات سيختفى عندما يعلن ذلك النفير. ولكنهم على يقين قاطع بأن السبيل الذى يمكن به لأحد الشعوب أن يكتسب حقوقه المعقولة لا يكون بالتطوع بالتخلى عنها والإصرار على أنه لا يريدها، وأن السبيل أمام شعب لكسب الاحترام ليس هو التصغير من شأنه والسخرية منه باستمرار. وأنه على العكس يجب على الزنوج أن يتمسكوا دائما، وموسمًا بعد موسم، بأن حق التصويت لازم للناس فى العصر الحديث، وأن التمييز على أساس اللون هو الهمجية، وأن الصبيان السود بحاجة إلى التعليم شأن الصبيان البيض.

وعلى هذا فإن الزنوج الأمريكيين إذا لم يعلنوا صراحة وبلا مواربة المطالب المشروعة لشعبهم، ولو كان ثمن ذلك أن يعارضوا قائدًا محترمًا، فإنهم يتحملون مسئولية جسيمة – مسئولية أمام أنفسهم، ومسئولية أمام الجماهير المناضلة، ومسئولية أمام الأجناس السوداء من البشر التى يعتمد مستقبلها إلى حد كبير على هذه التجربة الأمريكية، ولكنها مسئولية بخاصة أمام هذه الأمة وأمام هذا الوطن المشترك. إن من الخطأ تشجيع إنسان أو شعب على عمل الشر. من الخطأ مساعدة

جريمة وطنية أو السكوت عليها، لمجرد أن عدم عمل ذلك لا يلقى قبولاً لدى الناس. إن روح التراحم والتصالح المتصاعدة بين الشمال والجنوب بعد الخلافات المفزعة التى كانت قائمة منذ جيل واحد يجب أن تكون مصدرا للرضا العميق من جانب الجميع، وخاصة من جانب أولئك الذين كان سوء معاملتهم سببا فى الحرب.ولكن إذا كان هذا التصالح سيتسم بالعبودية الصناعية والموت المدنى لنفس أولئك الأشخاص السود، وصدور تشريعات دائمة تضعهم فى موقف الدونية، فإن أولئك الرجال السود، إذا كانوا رجالا حقا، يجب أن تدعوهم كل اعتبارات الوطنية والإخلاص إلى مقاومة هذا المسلك بكل الوسائل المتحضرة حتى إذا كانت هذه المقاومة تتطلب الاختلاف مع السيد بوكر واشنطون. إنه ليس من حقنا أن نجلس صامتين بينما يجرى بذر البذور الحتمية لحصاد سيكون كارثة لأبنائنا، من السود والبيض.

فأولا، من واجب السود أن يحكموا على الجنوب حكما قائما على التمييز، فالجيل الحاضر من الجنوبيين ليس مسئولا عن الماضى، ولا يجوز أن يكون موضعا لكراهية عمياء أو أن يلاموا عما حدث فى ذلك الوقت. يضاف إلى ذلك أن المسلك القريب للجنوب تجاه الزنوج ليس مقززا لأحد بقدر ما هو مقزز لأصحاب الفكر المستنير فى الجنوب. فالجنوب ليس "كتلة صماء" وإنما هو أرض فى غمرة تحول اجتماعى، حيث تتصارع قوى مختلفة يسعى كل منها لأن تكون له الهيمنة. والإشادة بالشر الذى يمارسه الجنوب الآن خطأ مثل إدانة الخير ، وما يحتاجه الجنوب هو التمييز والنقد بذهن متفتح تحتاجه مصلحة أبنائه وبناته من البيض أنفسهم، ومن أجل ضمان التطور السليم والصحيح من الناحيتين العقلية والأخلاقية.

وموقف البيض الجنوبيين اليوم إزاء السود ليس موحدا فى جميع الحالات كما يفترض البعض. فالجنوبى الجاهل يكره الزنجى، والرجل العامل يخشى منافسته، ومن يسعون لصنع النقود يرغبون فى استخدامه كعامل أجير، وبعض المتعلمين يرون خطراً فى تطوره إلى الأحسن، بينما يرغب آخرون – هم فى العادة أبناء السادة – فى مساعدته على النهوض. وقد ساعد الرأى العام لدى الأمة هذه الفئة الأخيرة فى الحفاظ على مدارس الزنوج العامة، وحماية الزنوج جزئيًا فيما يتعلق بممتلكاتهم وحياتهم وسلامة أجسادهم. ومن خلال ضغوط صناع النقود بات الزنجى مهددا بأن يصبح نصف عبد ولا سيما فى المناطق الريفية. وقد تجمع رجال الأعمال وأولئك الذين تعلموا ويخشون الزنجى واتفقت آراؤهم على حرمانه من حق التصويت، بل وطالب بعضهم بإخراجه من البلاد، بينما تجرى استثارة انفعالات الجهلة لسحل الرجل الأسود وإساءة معاملته. ولا معنى للإشادة بهذه الدوامة المعقدة من الأفكار

والتحيزات ، والحديث دون تمييز ضد "الجنوب" ليس سليما ولا عادلا، ولكن استخدام نفس المنطق فى الإشادة بالحاكم أيكوك وفضح السناتور مورجان والوقوف إلى جانب السيد توماس نيلسون بيدج، والتنديد بالسناتور بن تيلمان ليس أمرا منطقيا فحسب بل إنه واجب حتمي على من يفكرون من السود.

وليس من الإنصاف ألا نعترف للسيد واشنطون بأنه عارض فى مناسبات عديدة تحركات فى الجنوب لم تكن منصفة للزنوج، فقد أرسل مذكرات إلى لويزيانا وألاباما بشأن الاتفاقات الدستورية، وتحدث معترضا على عمليات السحل والقتل، واستعان بوسائل أخرى لاستخدام نفوذه علنًا أو فى صمت ضد المخططات الشريرة والأحداث المؤسفة. وعلى الرغم من ذلك، من الصحيح أيضًا أن الانطباع العام الذى تركه السيد واشنطون فى دعايته هو، أولا: أن الجنوب لديه المبرر لموقفه الحالى تجاه الزنوج بسبب تدنى حالتهم، وثانيا إن السبب الرئيس الذى حال دون نهوض الزنوج بسرعة أكبر هو تعليمهم الخاطئ فى الماضى، وثالثا، أن نهوض الزنوج فى المستقبل يتوقف فى الأساس على جهودهم. وكل من هذه الافتراضات التي تمثل نصف حقيقة تنطوي على خطر. ولا يجوز بأى حال أن نغض البصر عما يكمل هذه الحقائق: فأولا: إن العبودية والتحيز العنصرى هما سبب رئيس إن لم يكونا السبب الوحيد فى الوضع الحالى للزنوج، وثانيا: إن التعليم الصناعى والتعليم العام كانا خاطئين بالضرورة فى انتشارهما لأنهما كانا مضطرين لانتظار المعلمين السود الذين يتخرجون من مؤسسات التعليم العالى ، ومن المشكوك فيه للغاية أنه كان فى الوسع اتخاذ سبيل يختلف عن ذلك كثيرا، ومن المؤكد أن تجربة تاسكجى لم يكن فى الوسع التفكير فيها قبل عام ١٨٨٠، وثالثا: إنه وإن كان صحيحا تماما القول بأنه على الزنجي أن يسعى وأن يسعى بقوة لمساعدة نفسه، فمن الصحيح أيضا أنه ما لم يلق سعيه تشجيعًا ومساندة من جانب الفئات المحيطة به الأكثر ثراء وحكمة فأنه لن يأمل فى تحقيق نجاح كبير.

وإن عدم نجاح السيد واشنطون فى إدراك هذه النقطة الأخيرة وتأكيدها، لهو موضع انتقاد خاص، وقد أدت عقيدته إلى جعل البيض، فى الشمال والجنوب، ينقلون عبء مشكلة الزنوج لوضعها على عاتق الزنوج أنفسهم والوقوف جانبا كمتفرجين ينتقدون بل ويبدون تشاؤمهم، فى حين أن العبء يقع فى الواقع على عاتق الأمة، ولن تكون أيدى أى منا نظيفة إذا لم نبذل كل طاقاتنا لتصحيح هذه المظالم الكبرى.

إننا يجب أن نسعى، بالنقد الصريح والنزيه، حتى يعمل الجنوب على تحسين أحواله والقيام بواجبه كاملا نحو الجنس الذى ظلمه بلا رحمة ومازال يظلمه، كما أن الشمال – شريكه فى الجريمة – لا يمكن أن يريح ضميره بأن يضمده بالذهب. إننا لا

نستطيع أن نسوى هذه المسألة بالدبلوماسية والحديث المعسول، بـ "السياسة وحدها". ولو سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ فهل يستطيع النسيج الأخلاقى لهذا البلد أن يتحمل الخنق البطيء والموت الحتمى لتسعة ملايين من البشر؟

إن على السود فى أمريكا واجبا ينبغى أداؤه، وهو واجب قاس وحساس، إنه السير قدما لمعارضة جزء من عمل أعظم قادتهم، وبقدر ما يدعو السيد واشنطون إلى حسن تدبير المال، والصبر، والتدريب الصناعى للجماهير، فإننا يجب أن نساعده ونناضل إلى جانبه، وأن نفرح لما يحققه من نجاح فى عمله، ولكن بقدر ما يعتذر السيد واشنطون عن المظالم، سواء جاءت من الشمال أو الجنوب، فإنه لا يقدر تقديرا صحيحا حق التصويت وواجبه، ويقلل من الآثار الضارة للتمييز بين الفئات الاجتماعية، ويعارض التعليم العالى وطموح عقولنا الذكية، وبقدر ما يفعل هو ذلك، أو يفعله الجنوب أو الشمال، يجب علينا أن نعارضه بلا توقف ولا هوادة. إننا يجب أن نسعى بكل وسيلة متحضرة وسلمية لنيل الحقوق التى يعترف بها العالم للإنسان، وأن نتمسك بلا هوادة بهذه الكلمات العظيمة التى لا يجوز لأبناء الآباء الكبار أن ينسوها: "إننا نعتبر هذه الحقائق جلية بذاتها، إن جميع الناس خلقوا متساوين، وأن خالقهم منحهم حقوقا لا يمكن أن تنزع منهم، وهذه من بينها الحق فى الحياة، وفى الحرية، وفى السعى إلى السعادة".

الفصل الرابع

فى معنى التقدم

فى يوم من الأيام قمت بالتعليم فى مدرسة فى تلال تينيسى حيث يبدأ وادى المسيسبى القاتم العريض فى الامتداد والتموج ليحيى جبال الليجينى[1] وكنت فى ذلك الوقت من تلاميذ فيسك[2] ، وكان كل رجال فيسك فى ذلك الحين يعتقدون أن تينسى تقع خارج "الحجاب" وأنها ملك لهم وحدهم، وفى أيام الإجازة كانوا يتوجهون فى جماعات مشتركة لمقابلة مفوضى المدارس فى تلك المنطقة، وقد ذهبت مثلهم، صغيرا وسعيدا، ولن أنسى أبدا ذلك الصيف، منذ سبعة عشر عاما.

فأولا، كان هناك معهد للمعلمين فى حاضرة الإقليم، وكان هناك ضيوف محترمون من رئاسة إدارة التعليم يقومون بتزويد المعلمين ببعض أسرار وظيفة التعليم، وكان المعلمون البيض يحضرون الدراسة فى الصباح، والمعلمون الزنوج يحضرونها فى المساء، وكانت تنظم رحلة من وقت لآخر، وحفل للعشاء، وكان العالم القاسى تخفف حدته الضحكات والأغانى.

وجاء يوم ترك فيه المعلمون المعهد وبدأوا فى التسابق على القيام بالتعليم فى المدارس، وإنى أعرف بالسمع (لأن أمى كانت شديدة الخوف من الأسلحة النارية) أن صيد البط والدببة والناس ممتع للغاية، ولكنى على ثقة من أن الأشخاص الذين لم يسعوا يوما لاقتناص فرصة التعليم فى مدرسة ريفية قد فاتهم شىء من متعة الصيد، وإنى أرى الآن الطرقات البيضاء الساخنة وهى تصعد وتهبط فى كسل وتتعرج أمامى تحت شمس يوليو الحارقة، وأشعر بتعب القلب والجسد وأنا أراها أمامى ممتدة عشرة أميال، فثمانية فستة، وأشعر بقلبى يسقط ثقيلا بعدما أسأل مرة

(١) سلسلة جبال فى الولايات المتحدة الأميريكية تمتد فى بنسلفانيا ومريلاند وفرجينيا الغربية ، وتعتبر جزءاً من سلسة جبال الأبلاش (المترجم) .

(٢) جون فيسك (١٨٤٢-١٩٠١) مؤرخ أمريكى حاول التوفيق بين الدين والعلم فى كتب مثل "رحلات أحد دعاة التطور " (المترجم) .

بعد مرة "هل لديكم معلم ؟ وتكون الإجابة نعم، وهكذا مضيت أسير وأسير - فقد كانت الجياد تمثل تكلفة لا أتحملها - حتى تجاوزت خطوطا للسكك الحديدية، وحتى دخلت إلى مناطق الطريشة والثعابين، حيث كان مجيء شخص من خارج المنطقة حدثا مشهودا، وحيث يعيش الناس ويموتون فى ظل تلة واحدة زرقاء.

وكانت تتناثر فوق التل والوادى أكواخ وبيوت ريفية، تحجبها عن العالم الغابات والمرتفعات الممتدة فى اتجاه الشرق، وهناك وجدت أخيرا مدرسة صغيرة، أخبرتنى "جوزى" بوجودها، وكانت فتاة نحيلة بسيطة فى نحو العشرين، وجهها بنى قاتم وشعرها كثيف خشن، وكنت قد عبرت جدول الماء عند "ووتر تاون" وجلست أستريح تحت أشجار الصفصاف الكبيرة، وبعد ذلك ذهبت إلى الكوخ الصغير بين مجموعة الأكواخ حيث كانت جوزى تستريح فى طريقها إلى المدينة، ورحب بى المزارع النحيل، وعندما عرفت جوزى برغبتى أبلغتنى بحماسة أنهم يحتاجون إلى مدرس عبر التل، وأنه لم يأت إليهم غير مدرس واحد منذ نشوب الحرب، وأنها شخصيا ترجو أن تتعلم ، وهكذا سارت معى، تتكلم بسرعة وبصوت عال، وبقدر كبير من الحيوية والنشاط .

فى الصباح التالى عبرت التل المستدير المرتفع، وتسكعت لأنظر إلى الجبال الزرقاء والصفراء التى تمتد حتى كارولينا، ثم انغمست فى الغابة، وخرجت منها عند مسكن "جوزى"، وكان كوخا مربعا يتألف من أربع حجرات، يجثم تحت حافة التل مباشرة، بين أشجار الخوخ، وكان أبوها رجلا هادئا بسيطا، جاهلا وهادئا، ليس به أثر من الفظاظة. أما الأم فكانت مختلفة: قوية، نشيطة، لها لسان سريع لا يهدأ، وتطمح فى أن تعيش "مثل الناس"، وكان هناك حشد من الأطفال، اثنان من الصبية تركا الأسرة، وظلت هناك فتاتان تنموان، وقزم خجول فى الثامنة، وجون، طويل ومرتبك فى الثامنة عشرة، وجيم أصغر سنا وأسرع حركة وأكثر وسامة، واثنان صغيران يصعب تحديد عمرهما، ثم كانت هناك جوزى نفسها، وبدا أنها هى محور الأسرة: طوال الوقت تؤدى خدمة فى الخارج، أو فى البيت، أو تلتقط التوت البرى، عصبية نوعا ما وميالة لتقريع إخوتها شأن أمها، ولكنها مخلصة أيضا شأن أبيها، وكان حولها طابع من الرقى، فى ظل من البطولة الأخلاقية غير الواعية التى تجعل الإنسان مستعدا لإعطاء الحياة كلها حتى تصبح الحياة أكثر اتساعا وعمقا وامتلاءً بالنسبة لها ولمن يهمها أمرهم، وقد التقيت بأفراد هذه الأسرة كثيرا فيما بعد، وأصبحت أميل إليهم لما يبذلونه من جهود مخلصة ليكونوا مهذبين ومريحين، ولأنهم مدركون لمدى جهلهم. ليس لديهم أى قدر من التصنع أو التكلف، فالأم تقرع الأب

على "تساهله"، وجوزى توبخ الصبيان صراحة على إهمالهم، وهم جميعًا يعرفون أن من الصعب أن يحصل المرء على رزقه وهو يعيش فوق تل صخرى.

وقد حصلت على المدرسة، ولا أنسى ذلك اليوم الذى امتطيت فيه جواداً لأذهب إلى بيت المفوض، مع فتى أبيض مرح كان يريد أن يحصل على حق التعليم فى المدرسة البيضاء، وكان الطريق يجتاز قعر مجرى مائى صغير، وكانت الشمس تضحك والماء يخشخش، وسرنا فى طريقنا قدماً. قال المفوض: "ادخل، تفضل بالجلوس، نعم، إن هذه الشهادة تكفى،ابق لتناول الغداء، كم تريد فى الشهر؟ " وفكرت فى نفسى: إنى سعيد الحظ، ولكن حتى فى ذلك الوقت ظل "الحجاب" قائماً، فقد تناولوا هم الطعام أولا، ثم تناولته بعدهم، وحيدا .

كان مبنى المدرسة عبارة عن كشك مصنوع من جذوع الأشجار، سبق أن استخدمه الكولونيل ويلر لحماية محصول الذرة من الشمس، وكان واقعا فى قطعة أرض خلف سور حديدى وشجيرات بها أشواك مدببة، بالقرب من عين ماء عذبة للغاية، وللكشك مدخل كان به باب فى وقت من الأوقات، وفى الداخل مدفأة ضخمة مخلعة، وهناك فجوات واسعة بين جذوع الأشجار تؤدى دور النوافذ. وكان الأثاث قليلا، وهناك سبورة شاحبة اللون فى الركن، ومكتبى يتألف من ثلاثة ألواح، معززة فى النقاط الحاسمة، ومقعدى، المقترض من صاحبة الأرض، كان لابد من إعادته فى كل ليلة، أما مقاعد التلاميذ، فكانت تحيرنى للغاية، كان فى ذهنى دائما مشهد المدارس فى نيوإنجلاند ذات التختة والمقعد المدرسى النظيف، ولكن واأسفاه ! كان الواقع دككا خشبية قاسية ليس لها ظهر، وفى بعض الأحيان ليست لها أرجل، وكانت لها ميزة وحيدة وهى أنها تجعل فترات غلبة النوم مصدرا للخطر – وربما للخطر الشديد – لأن الأرضية لا يوثق بها.

كان صباحًا حارًا فى شهر يوليو عندما بدأت الدراسة، وقد ارتجفت عندما سمعت دبدبة الأقدام الصغيرة على الطريق المترب، ورأيت الصف المتزايد من الوجوه السمراء الجادة والعيون المتطلعة المضيئة تواجهنى. فى البداية جاءت جوزى وإخوتها وأخواتها. كان الشوق للمعرفة، وأن تصبح تلميذة فى المدرسة الكبرى فى ناشفيل، تحوم كنجم فوق هذه المرأة الطفلة رغم انشغالها وقلقها، وكانت تدرس بإصرار، وكان هناك أبناء أسرة دويل الذين يأتون من مزرعتهم القريبة من مدينة الإسكندرية [٢] ، بوجهها الأسود الناعم وعيونها المتسائلة، ومارتا ذات البشرة البنية بطيئة الفهم، والزوجة الصغيرة الحسناء لأحد الأشقاء، وشقيقتها الأصغر سنا .

(٢) واحدة من عدة مدن فى الولايات المتحدة بهذا الاسم (المترجم) .

وكان هناك أبناء أسرة بيرك، صبيان يجمعان بين اللون البنى والأصفر، وفتاة لها عينان صغيرتان متعجرفتان، وجاءت ابنة روبن السمين صاحبة الوجه المدور الممتلئ الذهبى وشعرها الذهبى القاتم، مجتهدة وجادة، وجاءت تينى مبكرة الفتاة المرحة القبيحة الطيبة القلب التى تنشق السعوط بمكر وترعى شؤون شقيقها الصغير ذى الساق القصيرة، وكانت "تيلدى" تأتى عندما تستطيع أمها أن تتركها حسناء منتصف الليل، بعيون كالنجوم وأطراف مستدقة، وشقيقها المطيع، ثم كان هناك الصبيان كبار الأجسام ابنا لورنس الأهوجان، وأبناء نيلز الكسول، وابنا أم وبنت غير معروفى الأب، وهيكمان ذو الظهر الأحدب، وبقية التلاميذ.

كانوا يجلسون هناك، عددهم يقرب من الثلاثين، على الدكك الخشنة، ووجوههم تتراوح بين اللون الأصفر الباهت إلى اللون البنى الغامق، والأرجل الصغيرة عارية متأرجحة، والعيون مليئة بالتوقعات بشىء من الشقاوة يلمع هنا وهناك، والأيدى تمسك بكتاب الهجاء ذى الغلاف الأزرق الصادر عن مؤسسة ويبستر، وقد أحببت مدرستى، والثقة الجميلة التى أودعها الأطفال فى حكمة معلمهم، كنا نقرأ ونتهجى الكلمات معًا، ونكتب قليلا، ونقطف الأزهار، ونغنى، ونستمع إلى حكايات العالم الممتد وراء التل، وفى بعض الأوقات كان النشاط فى المدرسة يقل، وعند ذلك أنطلق إلى الخارج،، وأزور مثلا آل مون إيدنج الذين كانوا يعيشون فى غرفتين صغيرتين للغاية وأسأل عن السبب فى أن لوجين الصغيرة – التى كان وجهها المتورد يحيط به دائما شعرها الأحمر الغامق المنكوش– غائبة طوال الأسبوع الماضى، أو لماذا افتقدت كثيرا الخلقات الفريدة لماك وإيد، وعند ذلك يقول لى أبوهما– الذى كان يعمل فى مزرعة الكولونيل ويلر على أساس المزارعة – أن المحاصيل كانت فى حاجة إلى الولدين. وكانت الأم النحيلة غير المرتبة، والتى يبدو وجهها وسيما عندما تغسله تقول إن لوجين يجب أن تهتم بالطفل الوليد، ولكننا سنرسلهم مرة أخرى إلى المدرسة فى الأسبوع المقبل"، وعندما يكف أبناء أسرة لورنس عن الحضور أعرف أن شكوك كبار السن فى جدوى التعليم من الكتب قد تغلبت مرة أخرى، وعلى ذلك أتسلق التل وأشرح كتاب "Cicero Pro Archia Poeta" بأبسط لغة إنجليزية ممكنة مع تطبيقات محلية لأقنعهم، وكانوا فى العادة يقتنعون لمدة أسبوع أو نحوه.

وفى ليالى الجمعة كنت كثيراً ما أذهب مع الأطفال إلى منازلهم، وأحيانا إلى مزرعة دوك بيرك، كان رجلا أسود نحيلا طويلا عالى الصوت، لا يكف عن العمل، ويحاول أن يشترى الخمسة والسبعين فدانا من أرض التل والوادى الذى يعيش فيه، ولكن الناس كانوا يؤكدون أنه لن يتمكن من ذلك، وأن "الناس البيض سيأخذون

المساحة كلها"، وكانت زوجته أمازون رائعة، وجهها بلون الزعفران وشعرها اللامـع، لا ترتدى مشداً للخصر وتسير حافية القدمين، وكان أبناؤها أقوياء ووسيمين، وكانوا يعيشون فى كوخ يتألف من غرفة ونصف غرفة فى أحد أركان المزرعة، بالقرب من عين الماء، كانت الغرفة الأمامية مليئة بأسرة بيضاء ضخمة، منظفة بعناية، وكانت هناك حليات سيئة من المعدن على الحوائط، ومائدة تتوسط الغرفة، فى المطبخ الخلفى الصغير كثيراً ما كنت أدعى لأن "أساعد نفسى" بالدجاج المحمـر وبسكويت القمح، و "اللحم" بعجين الذرة، والفول والتوت، وفى البداية كنت أشعر بشىء من الانزعاج عند اقتراب وقت النوم فى غرفة النوم الوحيدة المنفردة، ولكننا تجنبنا الحرج بمهارة، فأولا كان كل الأطفال يحنون رؤوسهم وينامون، ويكون مرقدهم فى كومة ضخمة واحدة من ريش الإوز، وبعدهم تنصرف الأم والأب فى هدوء إلى المطبخ ريثما أذهب إلى الفراش، وبعد ذلك يطفئان النور الخافت وينسحبان فى الظلام، وفى الصباح يكونون جميعا قد استيقظوا ومضوا قبل أن أفكر فى الاستيقاظ، وعلى الجانب الآخر من الطريق، حيث كان روبن يعيش، كانوا كلهم يغادرون البيت بينما يرتاح المعلم، لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يتباهوا بترف وجود مطبخ.

وكنت أرتاح للإقامة مع أسرة دول، إذ كان لديها أربع غرف والكثير من طعام الريف الطيب، وكان "العم بيرد" يملك مزرعة صغيرة خشنة، كلها أشجار وتلال، تبعد أميالاً عن الطريق الكبير، ولكنه كان غنيا بالحكايات – وكان يعظ من حين لآخر – وكان سعيدا بأبنائه وجياده وأشجار التوت وما يزرعه من قمح، وكثيرا ما كنت أضطر للذهاب إلى أماكن لا تحلو بها الحياة لهذه الدرجة، وعلى سبيل المثال فإن أم "تيلدى" لم تكن تعرف النظافة، و (كرار) روبن كان محدودا للغاية، وكانت قطعان من الحشرات غير المستأنسة تطوف فوق أسرة إيدنجس، وكان أكثر مكان يريحنى هو أن أذهب إلى أسرة جوزى، وأجلس فى الشرفة، لأكل الخوخ، بينما تتنقل الأم وتتكلم: كيف أحضرت جوزى ماكينة الخياطة، كيف قامت جوزى بتأدية خدمات فى الشتاء ولكن أربع دولارات فى الشهر تعتبر أجراً "قليلاً للغاية"، كيف إن جوزى تريد أن تتركهم وتذهب إلى المدرسة ولكن يبدو أن أحوالهم لن تتحسن فى أى وقت بحيث يسمحون لها بالذهاب، وكيف فشلت المحاصيل وبناء البئر لم يتم بعد، وأخيرا مدى "دناءة" بعض الناس البيض.

لقد عشت فى هذا العالم الصغير صيفين كاملين، كان العمل مملاً ورتيبا، كانت البنات ينظرن إلى التل نظرة تشوبها اللهفة والحزن، والفتيان يصيبهم القلق وتؤرقهم الإسكندرية، كانت الإسكندرية مدينة – قرية كسولا تضم عدة مساكن

وكنائس ومحلات وعدد من الأسر الأرستقراطية، عائلات توم وديك وكابتن، وكانت تجثم فوق التل ناحية الشمال قرية الناس الملونين الذين يعيشون فى أكواخ من ثلاث أو أربع حجرات، غير مطلية، بعضها نظيف ومريح، وبعضها قذر، وكانت المساكن متناثرة بطريقة تبدو بلا هدف، ولكنها تتركز حول المعبدين القائمين بها وهما الكنيسة الميثودية (٤) والكنيسة المعمدانية (٥)، وهاتان بدورهما تستندان بحذر إلى مبنى مدرسى ذى لون حزين. وإلى هذا المكان كان عالمى الصغير يمتد لأيام الأحد ليلتقى بعوالم أخرى، ويدردش، ويتعجب، ويقدم التضحية الأسبوعية مع قس محتدم العواطف فى كنيسة تمارس الدين "بطريقة الزمن الماضى"، وبعد ذلك كانت الأنغام الهادئة ونبرات الزنوج القوية وأغانيهم تخفق وتدوى.

وقد وصفت مجتمعى الصغير على أنه عالم، وكانت عزلته تجعله كذلك، ومع ذلك لم يكن بيننا غير وعى مشترك لم يستيقظ بعد، نبع من البهجة المشتركة والحزن، عند دفن الموتى، أو الميلاد، أو الزواج، من الشقاء المشترك فى الفقر، والأراضى الضعيفة، والأجور المنخفضة، وقبل كل شىء رؤية "الحجاب" الذى يقف حائلاً بيننا وبين الحصول على "الفرصة"، وهذا كله دفعنا لأن نفكر فى بعض الأفكار معًا، ولكن هذه الأفكار عندما تصبح ناضجة للإعراب عنها، كانت تصدر بلغات شتى، وأولئك الذين رأت عيونهم قبل خمسة وعشرين عامًا أو أكثر "مجد مجىء الرب" رأوا فى كل عقبة قائمة الآن غيبية مظلمة وأن الأشياء سوف تصحح فى الوقت الذى يراه الرب، وأغلب من كانت العبودية بالنسبة إليهم تذكارا غامضا من الطفولة رأوا فى العالم شيئًا محيرا: فهو لا يطلب منهم إلاّ القليل، وقد ردوا عليه بالقليل، ومع ذلك فهو يسخر مما يعطونه، فهم لم يستطيعوا أن يفهموا هذا التناقض، ولذا تملكهم عدم المبالاة، أو انعدام الاتجاه، واختاروا الثرثرة التى لا هدف لها، لكن كان هناك البعض - مثل جوزى وجيم وبن - كانت الحرب والجحيم والعبودية بالنسبة إليهم حكايات من حكايات الطفولة، وقد تفتحت شهيتهم بشدة من خلال المدارس والحكايات وفكرهم الذى استيقظ جزئيا، ويصعب أن يكونوا راضين، وقد ولدوا فى خارج العالم وبعيدا عنه. وكانت أجنحتهم الضعيفة تناضل ضد القيود: قيود الفئة المنبوذة، وقيود الشباب، وقيود الحياة، وأخيراً، فى لحظات الخطر، ضد كل الأشياء التى تعارض حتى الرغبات العابرة.

(٤) طائفة بروتستانتية أسسها جون ويزلى عام ١٨٣٠ (المترجم)

(٥) كنيسة طائفة مسيحية تنتسب إلى يوحنا المعمدان (المترجم) .

إن السنوات العشرة التى تعقب الشباب، السنوات التى يدرك فيها المرء لأول مرة أن الحياة تؤدى إلى مكان ما، كانت تلك هى السنوات التى مرت بعد أن غادرت مدرستى الصغيرة، وعندما مرت تلك السنوات، عدت مرة أخرى بالمصادفة إلى جدران "جامعة فيسك" وإلى قاعات كنيسة الأنغام تلك، وعندما كنت أتسكع هناك واستمتع بلقاء أصدقاء المدرسة القدامى، تملكنى على حين غرة شوق لأن أمر مرة أخرى إلى ما وراء التل الأزرق، وأن أرى المساكن والمدرسة القديمة، وأعرف كيف مضت الحياة بتلاميذى، وذهبت إليها.

كانت جوزى قد ماتت، وقالت لى أمها التى أصبح شعرها رماديا، ببساطة "لقد واجهنا أكداساً من المتاعب منذ غيابك". وكنت أخشى ما قد يكون قد أصاب جيم، فهو بنزعته الثقافية والفئة الاجتماعية التى تستطيع أن تسانده، ربما يكون قد أصبح تاجرا مغامرا أو طالبا فى "ويست بوينت"[(٦)] ، ولكنى وجدته هناك، غاضبا من الحياة وغير مبال. وعندما اتهمه المزارع ديرهام بأنه سرق بعض القمح، اضطر لأن يمتطى جواده مسرعا ليهرب من الأحجار التى قذفه بها الجمع الغاضب، وقد طلب البعض من جيم أن يهرب، ولكنه لم يقبل، وجاء رجل الشرطة فى ذلك المساء، وذلك أحزن جوزى، وكان جون الكبير الحجم يسير كل يوم ثمانية أميال ليرى شقيقه الصغير من خلال قضبان سجن لبنان[(٧)] وأخيرا عاد الاثنان معا فى الليل المظلم، وطهت الأم طعام العشاء، وأفرغت جوزى كيس نقودها، وتسلل الفتيان خارجين، واكتسبت جوزى نحافة وأصبحت قليلة الكلام، ولكنها زادت من جهدها فى العمل، وأصبح التل شديد الانحدار بالنسبة للأب العجوز الهادئ، وعندما مضى الولدان لم يعد لديه ما يستطيع أن يعمله فى هذا الوادى، وساعدتهم جوزى فى بيع المزرعة القديمة، وانتقلوا إلى مكان أقرب إلى المدينة، وبنى الأخ دينس– النجار– بيتا جديدا به ست غرف، وبذلت جوزى جهدها فى العمل فى ناشفيل لمدة سنة، وعادت بتسعين دولارا لتأثيث المسكن وتحويله إلى بيت.

وعندما جاء الربيع، وزقزقت العصافير، وجرت المياه فخورة وممتلئة، اضطرمت فى داخل الشقيقة الصغيرة ليزى عواطف الشباب، ومنحت نفسها لمن أغواها، وأحضرت إلى البيت طفلاً بلا اسم، وارتجفت جوزى وواصلت عملها، بعد أن تخلت عنها كل رؤيتها لأيام الدراسة، وبوجه مرهق مكدود ظلت تعمل، وفى أحد أيام

(٦) الكلية العسكرية الأمريكية ، فى الجنوب الشرقى من نيويورك (المترجم)
(٧) Lebanon Jail

الصيف، أثناء زواج شخص بآخر، تسللت إلى أمها كطفل مجروح، ونامت – ولم تقم من نومها.

وتوقفت لأتشمم النسمات عند دخولي الوادى، إن آل لورنس قد ذهبوا الأب والابن إلى الأبد ، والابن الآخر يضرب الأرض بكسل حتى يعيش، وهناك أرملة شابة جديدة تؤجر كوخها لروبن السمين، وقد أصبح روبن الآن واعظا معمدانيا، وإنْ كنت أتوقع أنه يفعل ذلك بكسل كدأبه دائما، بالرغم من أن كوخه يتألف من ثلاث حجرات، وقد نمت "إلاّ" وأصبحت امرأة وثابة، وهى تحرس القمح على جانب التل المشبع بالحرارة، وهناك أطفال كثيرون، وفتاة قليلة الإدراك، وعبر الوادى يوجد بيت لم أعرفه من قبل، وهناك وجدت واحدة من تلميذاتي، تهز مهد طفل وتنتظر آخر، وهى ابنة "العم بيرد دويل"، وبدا كأنها محتارة فى واجباتها الجديدة، ولكنها لم تلبث أن تباهت بكوخها النظيف، وبالحديث عن زوجها المدقق في شؤون النقود، وجوادها وبقرتها، والمزرعة التى يضعان الخطط لشرائها.

وكان مبنى مدرستي المصنوع من جذوع الأشجار قد ذهب ، قام في مكانه مبنى لمؤسسة "بروجريس"، وأعتقد أن مؤسسة بهذا العنوان هى بالضرورة قبيحة. وكان الأساس الحجرى غير المنتظم مازال يحدد الموقع السابق لكوخي الصغير الفقير، وعلى مسافة غير بعيدة يجثم فوق الست صخور الجبلية، مسكن خشبى أنيق، ربما يكون ٢٠×٣٠ قدما، له ثلاث نوافذ وباب يمكن أن يغلق، كان بعض زجاج النوافذ مكسوراً، وجزء من الموقد الحديدى العتيق يرقد حزينا بجانب البيت، وتطلعت ببصرى من خلال النافذة بشيء من الاحترام، ووجدت أشياءً كانت مألوفة لدىّ بدرجة أكبر، وقد نمت السبورة بما يقرب من قدمين، ومازالت المقاعد بلا ظهر، وقد سمعت أن الحكومة المحلية تمتلك قطعة الأرض الآن، وفي كل سنة هناك دورة للدراسة، وعندما جلست بجانب النبع، أنظر إلى القديم والجديد، شعرت بالسعادة– سعادة غامرة – ومع ذلك وبعد أن شربت مرتين طويلتين قمت أسير، كان البيت الكبير المزدوج المصنوع من جذوع الأشجار قائمًا فى أحد الجوانب وتذكرت الأسرة المنكوبة الممزقة التى كانت تعيش هناك، وجه الأم القوى جامد القسمات، بشعرها غير المنسق، كانت قد طردت زوجها، وبينما كنت أقوم بالتدريس كان رجل غريب يعيش هناك – كبير الحجم – يميل إلى المرح، وكان الناس يتكلمون، وكنت واثقا أن بن وتيلدى لن يحققا شيئا كثيرا من ذاك البيت، لكننا نعيش فى عالم غريب، فقد أصبح بن مزارعا نشطًا فى سميث كاونتى، وهو "ناجح أيضًا" كما يقولون، وكان يرعى شؤون تيلدى الصغيرة حتى الربيع الماضى، عندما جاء عاشق وتزوجها، وقد عاش الفتى حياة قاسية، يكدح

من أجل الخبز، ويسخرون منه لهدوئه وعدم انتظام تكوينه، وكان هناك سام كارلون البخيل العجوز الوقح الذى لديه أفكار محددة عن "الزنوج السود" والذى استأجر بن لفترة الصيف فى إحدى السنوات ثم لم يدفع له أجره، وعند ذلك استجمع الفتى قوته واقتحم، فى رائعة النهار، حقل كارلون، وعندما واجهه المزارع العنيد بالكلمات رد عليه الفتى الغاضب وكأنه الوحش، وتدخل دوك بيرك وحال دون وقوع قتيل وعملية سحل فى ذلك اليوم.

وقد ذكرتنى هذه الحكاية بآل بيرك، وتملكتنى رغبة فى معرفة من الذى كسب المعركة، دوك أم الفدادين الخمسة والسبعين، لأنه ليس من اليسير عمل مزرعة من لا شيء ، حتى فى خمس عشرة سنة، ولذا أسرعت خطاى وأنا أفكر فى آل بيرك، وقد كان يحيط بهم جو خاص من الهمجية كنت أميل إليه، لم يكونوا فى أى وقت مبتذلين، ولا بعيدين عن الأخلاق، ولكنهم أقرب إلى الخشونة البدائية، وقدر من البعد عن العادات المألوفة كانت تظهر فى القهقهة بصوت عال، والتربيت على الظهر، والنوم لحظات فى الركن، وسارعت مجتازا كوخ طفلى "نيل"، وكان الكوخ خاليا، وقد كبر الطفلان وأصبحا سمينين من عمال الزراعة الكسالى، ورأيت مسكن آل هيكمان، ولكن ألبرت ذا الكتفين المقوسين كان قد مضى من هذا العالم، ثم وصلت إلى بوابة آل بيرك، وتطلعت إلى ما وراءها. وبدت المساحة الداخلية غير معتنى بها، ولكن كانت هناك نفس الأسوار حول المزرعة القديمة فيما عدا ناحية اليسار، حيث يوجد خمسة وعشرون فدانا أخرى، ولكن هاهو الكوخ فى الوسط قد امتد فوق التل وتضخم وأصبح كوخا غير مستكمل يضم ست غرف.

كان آل بيرك يملكون مئة فدان، ولكنهم كانوا لا يزالون مدينين، والواقع أن الأب النحيل الذى ظل يكدح ليلاً ونهاراً ما كان ليخرج من إسار الدين، بعد أن اعتاده إلى هذا الحد، وهو لابد أن يكف عن ذلك فى يوم من الأيام، لأن عظامه الضخمة بدأ يظهر عليها الوهن، وكانت الأم ترتدى حذاء، ولكن التكوين الشبيه بتكوين الأسد فى الأيام الخوالى قد انكسر، والأبناء قد كبروا، فروب، وهو صورة طبق الأصل من أبيه، كانت ضحكته عالية وخشنة، وبيردى الذى كان من تلاميذى فى سن السادسة، أصبح نموذجا للجمال العذرى، طويلا وأسمر، قالت الأم ورأسها شبه منحن: "لقد ذهب إيدجر، ذهب ليشتغل فى ناشفيل(٨)، لم يستطع هو وأبوه أن يتفقا".

(٨) عاصمة ولاية تينيسى، على نهر كامبر لاند، يبلغ تعداد سكانها حاليا حوالى المليون وهى مدينة تجارية وصناعية وزراعية ومركز للدين والتعليم والنشر وهى حاليا مركز التسجيلات الموسيقية فى الولايات المتحدة (المترجم) .

وقد أخذني دوك الصغير، الذى ولد بعد تركى العمل فى المدرسة، على ظهر جواده فى الصباح التالى عبر الجدول المائى الصغير إلى مسكن "المزارع دويل"، وكان الطريق والمجرى المائى يتنافسان على السيادة، وكانت للمجرى المائى اليد العليا، كنا نخوض فى الماء ويتطاير حولنا، وقد جثم الصبى المرح ورائى يثرثر ويضحك، أرانى المكان الذى اشترى فيه سيمون طومسون قطعة من الأرض ومسكنا، ولكن ابنته لانا- الفتاة السمينة السمراء والبطيئة -لم تكن هناك، وقد تزوجت من رجل ومزرعة على مبعدة ٢٠ ميلا، وظللنا فى سيرنا نازلين مع مجرى الماء حتى وصلنا إلى بوابة لا أعرفها ولكن الفتى أصر على أنها بوابة "العم بيرد"، وكانت المزرعة زاخرة بالمحاصيل النامية، وكان فى ذلك الوادى الصغير سكون غريب، واستمررت فى السير، وكان الموت والزواج قد سرقا الشباب وتركا هناك المسنين والأطفال، جلسنا فى تلك الليلة وتحدثنا بعد انتهاء أعمال اليوم، وقد ازداد اللون الرمادى وضوحا على رأس العم بيرد، ولم تكن عيناه تريان بوضوح، لكنه كان لا يزال مرحًا، تكلمنا عن الفدادين التى اشتراها - مئة وخمسة وعشرين - وعن غرفة الضيوف الجديدة التى أضافها، وعن زواج مارتا، وبعد ذلك تحدثنا عن الموت: فقد ذهبت فانى وفريد، وكان هناك ظل يحوم فوق البنت الأخرى، وعندما يرتفع فهى ستذهب إلى ناشفيل للدراسة، وتكلمنا أخيرا عن الجيران، وعندما حل الظلام ذكر كيف إنه فى ليلة كتلك، عادت تينى إلى بيتها القريب لتفلت من ضربات زوجها، وفى الصباح التالى ماتت فى البيت الذى كان شقيقها الصغير ذو الساقين القصيرتين، والذى يعمل ويدخر، قد اشتراه من أجل أمهما التى ترملت.

وانتهت رحلتى، وأصبح ورائى التل والوادى، والحياة والموت، فكيف يقيس المرء "التقدم"، هناك حيث ترقد جوزى بوجهها الأسمر؟ تُرى كم من القلوب المليئة بالحزن توازن كيلة من القمح؟ كم هى صعبة الحياة للمحرومين، ومع ذلك كم هى إنسانية وواقعية! وكل هذه الحياة والحب والكدح والفشل، هل هى الغسق المصاحب لمجيء الليل أم أنها بصيص الضوء المبشر بالفجر؟

وبهذا التفكير الحزين ركبت إلى ناشفيل فى سيارة تطبق قواعد "جيم كرو".(٩)

(٩) اسم يطلق على مجموعة من القوانين التى كانت مطبقة فى جنوب الولايات المتحدة للفصل بين الأمريكيين الأفارقة والمجتمع الأبيض، وقد أخذ الاسم من أغنية شائعة، وقد استمرت تلك القوانين قائمة من ١٨٨٠ وطبقت على المدارس ووسائل النقل والمسارح والحدائق ، وألغتها المحكمة العليا بالتدريج بدء من ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٨ (المترجم) .

الفصل الخامس

عن أجنحة أتلانتا (*)

فى جنوبى الشمال، ومع ذلك ففى شمالى الجنوب، ترقد "مدينة التلال المئة" خارجة من ظلال الماضى ومتطلعة إلى وعود المستقبل، وقد رأيتها فى الصباح، عندما كانت الشعاعات الأولى للنهار قد أزالت جزءًا من نومها، وهى ترقد ساكنة ورمادية اللون على تربة جورجيا الحمراء(1) ثم بدأ الدخان الأزرق يتصاعد من المداخن، ورنين الأجراس وصراخ الصفارات يكسر الصمت، وبدأ دبيب الحياة وزئيرها يتجمع ببطء ويتكاثر، حتى بدا الدوران المذهل للمدينة شيئا غريبا فى أراض يغلبها النعاس.

يُقال إن أتلانتا كانت فى وقت من الأوقات ترقد ساكنة يغلبها النوم عند أقدام تلال الأليجانز إلى أن جاءت معمودية الحرب الحديدية وأيقظتها بمياهها المكفهرة، فأثارتها وبعثت فيها الجنون، وتركتها تستمع إلى البحر، وصاح البحر على التلال، وأجابت التلال على البحر، حتى هبت المدينة وكأنها أرملة ونفضت عن جسدها الأعشاب، وأخذت تكدح من أجل خبزها اليومى، وظلت تكدح بلا توقف وتكدح بمكر، وربما بقدر من الشعور بالمرارة ؛ ومع ذلك فهى تعمل بجد حقيقى وعرق حقيقى.

وإنه لأمر شاق أن يعيش المرء متعلقًا بشبح حلم لن يتحقق، وأن يرى حلم المجد يتحول إلى رماد وقذارة، وأن يشعر بألم المهزوم ويعرف مع ذلك أنه مع كل السيئات التى حدثت فى يوم أسود فإن بعضا من ذلك الشىء الذى انهزم يستحق الحياة من أجله، وإن بعضا مما قتلته الأحداث لم يكن ليتجاسر على الموت، وان يعرف أنه مع "الحق" الذى انتصر، انتصر أيضًا شىء من "الخطأ" شىء حقير

(*) اتلانتا ، عاصمة ولاية جورجيا وأكبر مدنها (سكانها حاليا ٣ ملايين) دمرها الجنرال وليم شيرمان أثناء الحرب الأهلية، بها الآن أكثر من ٢٠ كلية وجامعة (المترجم) .

(١) ولاية فى جنوب شرقى الولايات المتحدة، تقع إلى الشمال مباشرة من فلوريدا تعداد سكانها الآن حوالى عشرة ملايين (المترجم) .

ودنيء شيء بعيد عن الأعرض والأفضل، كل هذا شاق للغاية، وقد وجد فيه كثير من الرجال والمدن والناس مبرراً للعبوس وإطالة التفكير والانتظار بفتور.

إن هؤلاء ليسوا من الرجال مفتولي العضلات، إن أبناء أتلانتا توجهوا بعزم نحو المستقبل، وحمل لهم ذلك المستقبل آفاقا تلمع باللونين الأرجواني والذهبي: أتلانتا، الأميرة على مملكة القطن، أتلانتا بوابة أراضي الشمس، أتلانتا المدينة الموعودة الجديدة التي تنسج اللحمة والسداة للعالم، وهكذا توجت المدينة تلالها المئة بالمصانع، وملأت محلاتها بالأشغال اليدوية البارعة، ومدت مسالك حديدية طويلة لترحب بإله الصناعة عند قدومه، وقد تحدثت "الأمة" عن كفاحها هذا.

وربما لا تكون أتلانتا قد اكتسبت اسمها من العذراء المجنحة في بايوتيا[٢] وأنتم تعرفون القصة، وكيف إن أتلانتا السمراء، الطويلة والمنطلقة، رفضت أن تتزوج أحدا غير من يغلبها في السباق، وكيف أن هيبومينس المكار وضع في طريقها ثلاث تفاحات من الذهب، وكيف أنها انطلقت كالسهم، لكنها تمهلت وتطلعت إلى التفاحة الأولى، ولكنه عندما فتح يده انطلقت مرة أخرى، وحومت حول التفاحة الثانية، ثم انفلتت من قبضته القوية فطارت فوق النهر والوادي والتل، ولكنها عندما تباطأت حول التفاحة الثالثة أحاطها بذراعيه، وتطلع كل منهما للآخر، وأدى الشوق الملتهب بحبهما إلى تدنيس معبد الحب، وحقت عليهما اللعنة، وإذا لم تكن أتلانتا المدينة قد حصلت على اسمها من أتلانتا الأسطورة لكان من الواجب أن تحصل عليه منها[٣].

ولم تكن أتلانتا هي العذراء الأولى أو الأخيرة التي دفعها الطمع في الذهب إلى تدنيس معبد الحب، وليس ذلك فعل العذراوات فقط بل هو فعل الرجال أيضاً في سباق الحياة، فهم يسقطون من علياء المثل الرفيعة والكريمة للشباب في حبائل قوانين المضاربين في البورصة، وفي كل نضال أمتنا ألم يتغلب قانون المال على قانون العمل؟ أصبح هذا مألوفاً بحيث نكاد نعتقد أنه طبيعي، وقد أصبح مسلما به حتى إننا نخشى أن نسأل عما إذا لم تكن نهاية السباق هي الذهب، إذا لم يكن غرض الإنسان حقا هو أن يغدو غنيا، وإذا كان هذا هو خطأ أمريكا، فياله من خطر يتهدد بلاداً جديدة ومدينة جديدة، لأن أتلانتا إذا تمهلت من أجل الذهب وحده، سوف تجد ذلك الذهب وقد حلت به اللعنة!

(٢) منطقة في اليونان القديمة، شمال خليج كورنثيا في وسط اليونان أهم مدنها مدينة طيبة (المترجم).

(٣) في الميثولوجيا الإغريقية كانت أتلانتا فتاة جميلة المنظر سريعة الخطو، وعدت بألا تتزوج أحدا من الراغبين في زواجها إلاّ إذا سبقها في العدو، وأن تقتل أي منازل تتغلب عليه. وقد كسبت كل سباقاتها إلاّ سباقها مع هيبومينس (وتزوجته) الذي ساعدته الربة أفروديت بأن أسقطت في طريقها ثلاث تفاحات ذهبية تمهلت أتلانتا لتأخذها (المترجم).

ولم تكن مجرد نزوة لإحدى العذراوات والتى بدأت هذا السباق القاسى، وقد كان هناك تيه مفزع عند أقدام تلك المدينة بعد الحرب: النظام الإقطاعى، والفقر، وبروز الطبقة الوسطى، والقنانة، وإعادة ميلاد القانون والنظام، وقبل كل شىء وفى طوايا كل شىء، "حجاب الأجناس"، ويالها من رحلة شاقة للأقدام المتعبة! وأية أجنحة يجب أن تكون لأتلانتا حتى تجتاز كل هذه المطبات والعقبات، خلال الغابات الكثيفة والمياه المكفهرة، وعبر النفايات الحمراء للطين الذى أنضجته الشمس! أم يجب أن تكون أتلانتا سريعة وخفيفة الحركة حتى لا يغريها الذهب بتدنيس مكان العبادة!

الواقع إن معبد آبائنا به عدد قليل من الأرباب، ويقول البعض ساخرين "إنهم أرباب كثيرون"، فهناك عطارد فى نيوإنجلاند، وبلوتو فى الشمال، وشيريز فى الغرب، وهناك أيضا أبولو الذى كاد ينسى فى الجنوب(٤)، الذى تحت رايته كانت العذراء ستعدو وأثناء عدوها نسيته، تماما كما نُسيت فينوس فى بوتيا،(٥) لقد نسيت المثل الأعلى القديم للسادة المهذبين فى الجنوب الذين ورثوا فى العالم الجديد فضل وتهذيب الفرسان والنبلاء، والذين نسوا شرفهم مع غرابة تصرفاتهم، ورحمة القلب مع لا مبالاته، وانحنوا ليلتقطوا التفاحات الذهبية فأصبحوا رجالا أكثر اهتماما بالصفقات وأكثر حدة وأكثر تدقيقا فى شؤون المال، إن التفاحات الذهبية لها جمالها وإنى لأتذكر أيام الصبا التى لم نكن نعبأ فيها بالقانون، عندما كانت الحدائق تزهو باللون الأرجوانى والذهبى تغرينى باجتياز الأسوار واختراق الحقول ، كما إن التاجر الذى خلع المزارع عن عرشه لم يعد دخيلا بغيضا، إن العمل والثروة هما الرافعتان القويتان اللتان ستزيدان من قدر هذه الأراضى الجديدة القديمة، والاحتراز والجهد والادخار هم الطريق السريع إلى الآمال الجديدة والإمكانات الجديدة، ومع ذلك ينبغى الانتباه حتى لا يقوم هيبومينس بإغراء أتلانتا لتتصور أن التفاحات الذهبية هى هدف السباق، وليست مجرد أحداث عابرة على الطريق.

لا يجوز لأتلانتا أن تقود الجنوب إلى حلم الرخاء المادى على إنه معيار كل نجاح، وقد بدأت القوة القاتلة لهذه الفكرة تنتشر، وهى تضع فى مكان النوع الأرقى من أبناء الجنوب رجالاً مبتذلين يسعون وراء النقود، إنها تدفن الجمال العذب فى حياة الجنوب تحت طبقات التظاهر والمباهاة، وهم يرون أن الثروة هى علاج جميع

(٤) عطارد فى الميثولوجيا الرومانية، إله التجارة والثروة. وبلوتو فى الميثولوجيا الإغريقية والرومانية، حاكم العالم السفلى وإله الموتى. وشيريز فى الميثولوجيا الرومانية آلهة القمح والذرة والحصاد. وأبولو فى الميثولوجيا الإغريقية إله العدالة (المترجم).

(٥) فينوس فى الميثولوجيا الرومانية، آلهة الحب والجمال.

أدواء المجتمع ؛ الثروة قادرة على التغلب على بقايا الإقطاع والعبودية، الثروة لرفع الطبقة الوسطى المهددة، الثروة لتوظيف الأقنان السود، وأمل الثروة هو الذي يدفعهم إلى مواصلة العمل، الثروة باعتبارها هدفًا وغاية للسياسات، وباعتبارها السبيل المضمون للقانون والنظام، وأخيراً وبدلا من الحق والخير والجمال تصبح الثروة هى المدرسة التى يتعلم فيها الجميع.

ولايصدق هذا على العالم الذى تمثله أتلانتا فحسب، بل إنه يهدد بأن يصدق على عالم تحت ذلك العالم وأبعد منه ، "العالم الأسود" فيما وراء "الحجاب"، واليوم لم يعد ما يهم أتلانتا، ولا يهم الجنوب، ماذا يتصور الزنجى أو يحلم به أو يرغب فيه، إن المهم فى الحياة الروحية للبلد هو اليوم، ومن الطبيعى أنه سيظل كذلك لفترة طويلة من الزمن لن يفكر في الزنجى أحد، منسيا أو يكاد، حتى عندما يبدأ فى التفكير والإرادة والفعل لصالح نفسه – ويجب ألا يحلم أحد بأن ذلك اليوم لن يأتى أبداً – إن الدور الذى سيلعبه عندئذ لن يكون دور المعرفة المفاجئة، وإنما هى الكلمات والأفكار التى تعلم أن يتأثئ بها فى طفولته العنصرية، إن جهوده اليوم موجهة نحو تحقيق الذات داخل سعى العالم الأبيض للتقدم إلى الأمام، وكأنه عجلة داخل عجلة: ففى خارج "الحجاب" هناك مشاكل أصغر ولكنها مماثلة، تتعلق بالمثل العليا، وبالقادة ومن يتبعونهم، وبالقنانة، والفقر، وبالنظام والخضوع، ومن خلال هذا كله، "حجاب العنصر". هناك قليلون يدركون هذه المشكلات، وقليلون من ينتبهون إليها، ولكنهم على أى حال موجودون، فى حاجة إلى الباحث والفنان ومن اكتوى قلبه بالنار، إنه مجال ينتظر شخصا ما، فى وقت ما، ليكتشفه، إلى هناك توغل إغراء هيبومينس، ففى هذا العالم الأصغر، الذى يؤثر الآن بصورة غير مباشرة وبعد قليل سوف يؤثر بصورة مباشرة على العالم الأكبر، سواء كان ذلك للأحسن أم للأسوأ، وقد تشكل الاعتياد على تفسير العالم بالدولارات. فالقادة القدامى للرأى الزنجى، فى المجموعات الصغيرة التى يوجد فيها وعى اجتماعى زنجى، يحل محلهم قادة جدد، ولم يعد الواعظ الزنجى ولا المعلم الزنجى يقود كما كان يفعل قبل عقدين من الزمان، وقد حل محلهم المزارعون والبستانيون، والحمالون والحرفيون الذين يحصلون على أجور طيبة، ورجال الأعمال، وكل من يملكون عقارات وأموالاً، ومع كل هذا التغيير– والموازى بشكل مدهش للتغيير الذى يطرأ على العالم الآخر– يحدث أيضًا التغير الحتمى فى المثل العليا، إن الجنوب يأسف اليوم على الاختفاء البطيء والمستمر لنوع معين من الزنوج : العبد المخلص المهذب القديم، لأمانته التى لا تشوبها شائبة، وخضوعه الموقر، إنه فى طريقه للاختفاء تمامًا كما يختفى ذلك النوع القديم من السيد الجنوبى،

ولأسباب ليست مختلفة ذلك التحول المفاجئ من المثل الأعلى العادل البعيد للحرية إلى الواقع القاسى لكسب الرزق، وبالتالى تحويل الخبز إلى إله والتعويل عليه.

وفى عالم السود، كان الواعظ والمعلم يجسدان فى يوم من الأيام المثل العليا لهذا الشعب، للسعى من أجل عالم آخر وأكثر عدالة، الحلم الغامض بالورع والتقوى، وأعجوبة المعرفة، ولكن الخطر اليوم هو أن هذه المثل، بجمالها البسيط وإلهامها الغريب، سوف تتحول فجأة إلى مسألة تتعلق بالنقود وشهوة الذهب. هنا نرى هذه الأتلانتا الشابة السوداء، تشمر عن ساعد الجد استعدادا للسباق الذى لابد منه، وإذا كانت عيونها مازالت متجهة نحو التلال والسماء كما كان الحال فى الأيام الماضية، فإننا نستطيع أن نتطلع إلى سباق نبيل. ولكن ماذا يحدث لو أن هيبومينس خبيث أو قاس أو طائش وضع أمامها تفاحات ذهبية؟ ماذا لو أن الشعب الزنجى تحول من السعى إلى التقى والعدل، من حب المعرفة، للنظر إلى الدولارات على أنها كل شىء وهى غاية الحياة؟ ماذا لو أضيف إلى "عبادة أمريكا" العبادة الصاعدة للجنوب الذى ولد من جديد، وتعززت هذه العبادة للجنوب بعبادة بازغة لملايينه السود الذين كادوا يستيقظون؟ وأين يذهب عند ذلك سعى العالم الجديد إلى الخير والحق والجمال؟ هل ينبغى أن تسقط هذه الرؤية، تلك الزهرة الجميلة للحرية التى خرجت، على الرغم من سخريات المدعين المحدثين، من دم آبائنا، هل ينبغى أن تدنس هذه أيضا وتتحول إلى سعى قذر من أجل الذهب ، إلى شهوة غير مشروعة للسير مع هيبومينس؟

إن تلال أتلانتنا المئة ليست متوجة كلها بالمصانع، فعلى أحدها، المتجه نحو الغرب، تلقى الشمس الغاربة بأضواء قوية على ثلاث منشآت تبرز والسماء فى خلفيتها، ويتمثل جمال المجموعة فى وحدتها البسيطة: حقل عريض من الخضرة يصعد من الشارع الأحمر وتختلط فيه الورود وأشجار الخوخ، وتمتد إلى الشمال والجنوب صالتان بسيطتان فخمتان، وفى الوسط، يكاد يختفى بين أغصان اللبلاب مبنى أكبر حجما وأكثر جمالا، لا تكاد تكون به أية زينة وفوقه برج واحد منخفض. إنها مجموعة مريحة لا يتطلع المرء إلى أفضل منها. فكل شىء هنا، كل شىء واضح. ها هنا أعيش، وهنا أسمع من يوم إلى آخر الطنين الخافت للحياة الهادئة. وفى ضوء الغروب فى الشتاء، عندما تبزغ الشمس الحمراء، أستطيع أن أرى الأشباح المظلمة تمر بين القاعتين على موسيقى أجراس الليل. وفى الصباح، عندما تلقى الشمس ضوءها الذهبى، وقعقعة ناقوس النهار تحمل عجلة وضحكة ثلاثمائة من القلوب الفتية من القاعات ومن الشارع، ومن المدينة المملوءة بالحركة – أطفال كلهم سمر وشعرهم كثيف – تتجمع أصواتهم الصغيرة الواضحة فى موسيقى التضحية الصباحية. وفى

بضع قاعات للدرس يجتمعون هنا ليتابعوا أغنية حب لديدو[٦] ، وهنا يستمعون إلى قصة أحبار طروادة، وهناك ليتجولوا بين النجوم، وآخرون ليتجولوا بين الرجال والأمم – وفى أماكن أخرى يتابعون سبلاً مطروقة لمعرفة هذا العالم الغريب، فلا شىء جديد، وليست هناك أدوات لتوفير الوقت، وإنما هناك الأساليب التى قدسها الزمن للوصول إلى الحقيقة، واستكشاف جوانب الجمال الخفية للحياة، والتعرف على ما فى الوجود من خير، إن لغز الوجود هو المنهج الدراسى الذى طُرح على الفراعنة، والذى كان يجرى تعليمه بين خمائل أفلاطون والتى تشكل منها الترينيوم والكوادرينيوم[٧] والتى تعرض الآن على أبناء الرجال الذين تحرروا، في جامعة أتلانتا، وهذا النهج فى الدراسة لن يتغير وسوف يزداد محتواها غنىً بجهد الباحث ورؤية الرائى، ولكن الجامعة الحقيقة سيكون لها دائما هدف واحد، ليس كسب اللحم، بل معرفة الغرض والغاية من تلك الحياة التى تتغذى باللحم.

إن رؤية الحياة التى تتجلى لهذه العيون السوداء ليس فيها شىء وضيع أو أنانى، ولا يوجد فى أوكسفورد أو ليبزيج ولا فى ييل أو كولومبيا، عزم أشد أو سعى أكثر إلحاحا، ذلك العزم على أن يحقق للبشر، من السود والبيض على حد سواء، أعرض إمكانات للحياة، والتطلع إلى الأفضل والذى ليس له مثيل، وأن ينشروا بأيديهم "دعوة التضحية". فهذا كله هو ما يملأ حديثهم وأحلامهم، فهنا، فى محيط صحراء واسعة من التعصب والتحريم، وسط الإهانات والصدمات والنزوات الناشئة من الكراهية العميقة للأجناس الأخرى، ترقد هذه الواحة الخضراء، حيث يهدأ الغضب الساخن، وتجرى تحلية المرارة الناشئة من خيبة الأمل بمياه وأنسام برناســـوس[٨]، وهنا يستطيع الناس أن يرقدوا ويستمعوا، وأن يعرفوا شيئا عن مستقبل سيكون أكثر امتلاءً من الماضى، ويستمعون إلى صوت الزمن.

إنهم هم الذين ارتكبوا أخطاءهم، هم الذين غرسوا فيسك وهوارد وأتلانتا قبل أن يرتفع دخان المعركة[٩]. لقد ارتكبوا أخطاءهم، ولكنها لم تكن بشأن الأشياء التى

(٦) الملكة الأسطورية لقرطاجنة، التى قتلت نفسها عندما هجرها أنياس (المترجم).

(٧) المجموعة الأولى تشمل التقسيمات السبع الدنيا من الفنون الحرة وتشمل النحو والخطابة والمنطق والمجموعة الثانية هى العلوم الأكثر تقدما وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى (المترجم).

(٨) جبل فى وسط اليونان إلى الشمال من دلفى وخليج كورنثيا، وكان يعتبر فى الأزمنة القديمة مكانا مقدسا تسكنه الآلهة (المترجم).

(٩) مدن أنشئت فيها جامعات تسمح بدخول جميع أنواع الطلبة ولكنها توجه اهتماما خاصا للشباب السود (المترجم).

سخرنا منها أخيراً. لقد كانوا على حق عندما سعوا إلى إنشاء أنظمة تعليم جديدة في الجامعات: حيث سنقيم أسس المعرفة على أعرض وأعمق أشكالها، إن جذور الشجرة، وليست أوراقها، هى مصدر حياتها، ومنذ فجر التاريخ، من أكاديموس إلى كمبردج، كانت ثقافة "الجامعة" هى حجر الأساس الذى بنيت عليه دور الحضانة التى يتعلم فيها الأطفال حروف الأبجدية.

ولكن هؤلاء البناة أخطأوا عندما قللوا من أهمية المشكلة التى تواجههم، وذلك عندما تصوروا أنها مسألة سنوات أو عقود من السنين، ولذا بنوا باستعجال ووضعوا الأسس بغير عناية، وخفضوا مستوى المعرفة، إلى أن بعثروا فى أنحاء الشمال بطريقة عشوائية بضع عشرات المدارس غير المجهزة تجهيزا كافيا وأطلقوا عليها اسم الجامعات، كما أنهم نسوا، كما ينسى خلفاؤهم اليوم، سيادة عدم المساواة: إنه من بين ملايين الشباب السود، كان هناك البعض مهيئين للمعرفة والآخرون مهيئين للعمل فى الحقول، وأن البعض كانت لديه موهبة وقدرة رجال الجامعات، والبعض موهبة وقدرة الحدادين، وأن الإعداد الحقيقى لا يعنى أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى الجامعات ولا أن يصبح الجميع من أصحاب الصناعات اليدوية، ولكن أن يكون أحدهما رسولاً للثقافة فى شعب لم يتعلم، والآخر رجلاً حرا يتحرر من عبودية الأرض، ومحاولة جعل الحداد باحثا هو من السخف بقدر سخف المحاولات الحديثة لجعل الباحث حدادا، ذلك قريب من ذاك، وإن لم يكن هو الشىء بعينه.

إن مهمة الجامعة ليست مجرد تعليم وسائل كسب العيش، ولا توريد المعلمين للمدارس العامة، ولا أن تكون مركزاً للمجتمع المهذب، فهى يجب قبل كل شىء أن تكون أداة للتوفيق السليم بين الحياة الواقعية والمعرفة المتزايدة بالحياة، التوفيق الذى يشكل سر الحضارة، ومثل هذه المؤسسة يحتاج إليها الجنوب الآن حاجة ماسة، مؤسسة لديها الدين، والإخلاص: الدين الذى كثيراً ما يلغى على جانبى "الحجاب" الوصايا السادسة والسابعة والثامنة (*)، ولكنه يضع مكانها مجموعة أخرى من الوصايا الإضافية، إنها تملك، كما تبين أتلانتا، المهارة المتزايدة بشأن المال وحب العمل، ولكنها تفتقر إلى تلك المعرفة العريضة بما يعرفه العالم وما عرفه فى الماضى بشأن المعيشة والعمل، وهو ما تستطيع أن تطبقه على آلاف المشكلات المنتمية للحياة الواقعية التى تواجهنا اليوم. إن حاجة الجنوب هى إلى المعرفة والثقافة، ليس بكمية مقررة محدودة، كما كان الحال قبل الحرب، بل بوفرة عميقة وعريضة فى مجال

(*) هذه الوصايا هى (٦) لا تزن (٧) لا تسرق (٨) لا تشهد زوراً (المترجم).

العمل، وإلى أن يتوافر لها ذلك فإن كل تفاحات هسبريدس، سواء كانت من الذهب أو من الجواهر، لا تستطيع أن تنقذها من لعنة العشاق البوتيين.

إن "أجنحة أتلانتا" هى الجامعات المقبلة فى الجنوب، وهى وحدها القادرة على أن تحمل العذراء وتنجيها من إغراء الثمرة الذهبية، وهى لن تقود خطاها السريعة بعيدا عن القطن والذهب، لأن تلك التفاحات – ويا لمكر هيبومينس! – تقف بالتحديد فى سبيل "طريقة الحياة" ولكنها ستقودها فوقها وبعيدا عنها، وتتركها ساجدة فى "معبد الحقيقة والحرية" ومعبد الإنسانية فى معناها الواسع، الإنسانية العذراء والتى لم يمسها دنس، ومن المحزن أن "الجنوب القديم" أخطأ فى التعليم الإنسانى، واحتقر تعليم الجماهير، وكان بخيلاً في دعم الكليات، وقد تدهورت قواعدها الجامعية العريقة فى ظل الأنفاس الكريهة للعبودية، وحتى بعد انتهاء الحرب فقد خاضت معركة فاشلة من أجل الحياة فى الهواء الملوث للاضطراب الاجتماعى والأنانية التجارية، وعاق نموها موت النقد، واشتد جوعها إلى رجال ذوى ثقافة عريضة، وإذا كانت هذه هى حاجة الجنوب الأبيض ومصدر الخطر عليه، فكم يكون الخطر أشد والحاجة ماسة لدى أبناء الرجال الذين تحرروا! وما أشد الحاجة هنا إلى المثل العريضة والثقافة الحقة، وإلى صيانة الروح من الأهداف الوضيعة والمشاعر الصغيرة! دعونا نبنى جامعة الجنوب: ويليام ومارى، ترينتى، جورجيا، تكساس، تولين، فندربلت، وغيرها قادرة على أن تعيش، ودعونا نبنى أيضا جامعات الزنوج: فيسك، التى كان أساسها عريضًا دائما، وهوارد فى قلب الأمة، وأتلانتا فى أتلانتا التى ظل المثل الأعلى لكفاءتها العلمية خفاقا فوق إغراء الأعداد، ترى لماذا لا نغرس هنا، وربما فى المناطق الأخرى أيضًا، بعمق ولكل الأزمان مراكز للعلم والحياة، كليات تبعث فى كل سنة فى حياة الجنوب قليلا من الرجال البيض وقليلا من الرجال السود ذوى الثقافة العريضة، والتسامح الكاثوليكى، والقدرة المدربة، يضمون أيديهم إلى الأيدى الأخرى ويمنحون هذا التنازع الطفولى بين الأجناس سلامًا لائقًا وكريمًا؟

إن الصبر، والوداعة، والذوق، والتهذيب، والمدارس المشتركة ورياض الأطفال المشتركة، والمدارس الصناعية والفنية، والأدب، والتسامح، كل هذه تنبع من المعرفة والثقافة، هى من أبناء الجامعة، على هذا النحو يجب على الرجال وعلى الأمة أن تبنى، وليس بأى شكل آخر، وليس رأسًا على عقب.

" علموا العمال العمل" ، قول حكيم، يكون حكيمًا عندما يطبق على الفتية الألمان والفتيات الأمريكيات، ويكون أكثر حكمة عندما يقال عن الفتية الزنوج، لأن معرفتهم

أقل بالعمل وليس لديهم من يعلمهم، علموا المفكرين التفكير، فهو معرفة لازمة في وقت ضاع فيه المنطق ولم يعد له هدف. وأولئك الذين كان حظهم أسوأ يجب أن يحصلوا على أفضل تدريب على التفكير السليم، وإذا كان هذا هو الحال، فما مدى الحماقة في أن نسأل عن أفضل تعليم لمليون أو ٧ أو ٦٠ مليونا من النفوس! هل نعلمهم الحرف، أم نعلمهم الفنون الحرة؟ لا هذا ولا ذاك، وكلاهما معا: علموا العمال العمل وعلموا المفكرين التفكير. اصنعوا من النجارين نجارين، ومن الفلاسفة فلاسفة ومن الحمقى بلهاء ولكننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الحد، فنحن لا ندرب أشخاصًا منعزلين بل جماعة حية من البشر – منهم جماعة داخل جماعة – فالناتج النهائي لتدريبنا يجب ألا يكون عالم نفس ولا قاطع أحجار، بل إنسان، ولنصنع بشرا يجب أن تكون لدينا مثل عليا، عريضة ونقية وغايات رفيعة للحياة، ليس كسب المال بأي وسيلة، ليس تفاحات الذهب، إن العامل يجب أن يعمل من أجل شرف نتاج يده، وليس لمجرد ما سيحصل عليه من أجر، ويجب أن يفكر المفكر من أجل الحق لا من أجل الشهرة. وذلك كله لا يكتسب إلاّ بالسعي والتوق البشري، بالتدريب والتعليم المستمرين، عن طريق إرساء "الصدق" على أساس من الحقيقة، والصدق على أساس من السعي الدائم إلى الحق، وعن طريق إقامة المدرسة العامة على ركيزة من الجامعة، والمدرسة الصناعية على ركيزة من المدرسة العامة. وبذلك ننسج نظامًا متسقًا وليس مشوهاً، ونحقق ميلاداً لا إجهاضاً.

عندما يهبط الليل على مدينة التلال المئة، تتجمع رياح من البحار وتأتي هامسة نحو الغرب، وبناءً على حركتها تنحدر أدخنة المصانع النائمة على المدينة الجبارة وتغطيها وكأنها دثار، بينما تتألق النجوم عند "الجامعة" فوق "ستون هول"، وهم يقولون إن هذا الضباب الرمادي هناك هو رداء أتلانتا الذي تتلفع به عندما تتطلع إلى تفاحاتها الذهبية، فلتسرعي يا فتاتي، فلتسرعي، لأنه هناك يأتي هيبومينس!

الفصل السادس

عن تعليم السود وتدريبهم

منذ أيام دوامات الماء المضيئة حين توافدت الأفكار على سفينة العبيد عندما رأت لأول مرة برج الميدان فى مدينة جيمس تاون(١) انحدرت إلينا حتى يومنا هذا ثلاث تيارات من الفكر: أحدها نبع من العالم الواسع هنا وعبر البحار، يقول إن تعدد الحاجات الإنسانية فى مجال الثقافة يتطلب التعاون بين البشر على نطاق العالم لإشباعها، ومن ثم تنشأ وحدة إنسانية جديدة، تجعل أطراف الأرض أكثر تقاربا وتجمع بين كل الناس من السود والصفر والبيض، وتود البشرية الأوسع أن تشعر فى هذا الاتصال بين "الأمم" الحية والقطعان النائمة برجفة حياة جديدة فى العالم تصيح "إذا كان الاتصال بين الحياة والنوم هو الموت فما أبشع هذه من حياة"، ولاشك فى أنه وراء هذه الفكرة تكمن الفكرة المصاحبة عن القوة والسيطرة.

والفكرة الثانية المستمدة من سفينة الموت والنهر المنحنى هى فكرة الجنوب القديم الاعتقاد المخلص بأنه فى مكان ما بين البشر والماشية، خلق الله نوعا ثالثا، وأسماه الزنجى، كائن ساذج مضحك، بل ويكون أحيانا ظريفًا رغم عيوبه، ولكنه يجب ألا يتخطى حدود "الحجاب"، ولاشك فى أنه وراء هذه الفكرة ثمة فكرة مصاحبة، فإن بعضهم عن طريق المصادفة يمكن أن يصبحوا من البشر، لكننا لمجرد الدفاع عن النفس لا نتجاسر على السماح لهم بذلك، ويجب أن نبنى حولهم أسوارا مرتفعة وأن نقيم بينهم وبين النور حجابا كثيفا، حتى لا يخطر ببالهم أبدا أن يجتازوه.

وأخيرا تتسرب هابطة الفكرة الثالثة الأكثر ظلاما فكرة الأشياء نفسها، تلك الغمغمة المضطربة نصف الواعية الصادرة من رجال سود حاولوا أن يجعلوا بشرتهم بيضاء، يصيحون "الحرية، الفرصة فلتتكرم علينا أيها العالم المدعى، أعطونا فرصة

(١) كانت قرية فى فرجينيا الجنوبية، تقع على نهر جيمس، وكانت أول مستوطنة إنجليزية دائمة فى أمريكا الشمالية وقد أسسها مستوطنون من "شركة لندن" وسميت على اسم الملك جيمس الأول (المترجم).

الناس الأحياء!" ولاشك فى أنه وراء الفكرة توجد الفكرة المصاحبة فلنفترض بعد كل شيء أن "العالم" على حق وأننا أقل من البشر؟ ولنفترض أن هذا الدافع المجنون داخلنا يقوم على خطأ، لعله سراب خادع لا ظل له من الحقيقة؟

وهكذا نقف بين أفكار الوحدة البشرية، ولو عن طريق الغزو والاستعباد، وفكرة دونية السود، حتى إذا فرضت بالخداع، وصيحة فى الظلام من أجل حرية الناس الذين لم يتأكدوا بعد من حقهم فى المطالبة بها، هذا هو خليط الأفكار والأفكار المصاحبة الذى يراد منا فى إطاره أن نحل مشكلة إعداد الناس لمواجهة الحياة.

ووراء كل ما بها من غرابة، تجتذب هذه الأفكار الحكيم الرصين والمتساهل المتسامح، وفيها تكمن مخاطرها، وتلقى علينا ظلالاً هى فى وقت واحد شاذة ورائعة، ومن الواضح لنا أن ما يريده العالم من الصحراوات والقفار موجود لدينا داخل عتبات بيوتنا، قوة عاملة شديدة البأس، مهيأة للعمل فى المناطق الحارة، ونحن إذا صَمَّمنا آذاننا عن الأفكار السائدة ورفضنا أن نستخدم ونطور هؤلاء الناس، فإننا نخاطر بالوقوع فى الفقر والخسارة، أما إذا تملكتنا الفكرة الوحشية المصاحبة وأفسدنا العنصر الذي وقع بين براثننا، وامتصصنا دمه وعقله بأنانية فى المستقبل كما حدث فى الماضى، فما الذى سيحمينا من التحلل الوطنى؟ إن الأنانية الأكثر تعقلا هي وحدها – والتى نتعلمها من "التعليم"– التى تستطيع أن تجد حقوق الجميع فى دوامة العمل.

ومرة أخرى، فنحن قد نذم التحيز اللونى – الجنوب، ولكنه سيظل حقيقة ماثلة، فمثل هذه الالتواءات الغريبة للعقل البشرى موجودة ولابد من الاعتراف بها، ونحن لا نستطيع أن نصرفها بالهزء منها، ولا ننجح دائمًا فى العصف بها، كما أنه ليس من السهل دائما إلغاءها عن طريق القانون، ومع ذلك يجب ألا نشجعها بأن نتركها لحالها، ولابد من الاعتراف بها على أنها حقيقة واقعة، ولكنها حقيقة كريهة: إنها من الأشياء التى تقف فى طريق الحضارة والدين والتهذيب المشترك، وليس هناك لمواجهتها غير سبيل واحد هو تعميق وتوسيع العقل البشرى، ونشر كاثوليكية الذوق والثقافة . وينبغى أيضًا عدم الاستخفاف بمطامح وتطلعات الناس، حتى لو كانوا من السود أو المتخلفين أو ناكرى الجميل، إن تنشيط العقول الضعيفة غير المدربة هو لعب بالنار، والاستخفاف بآمالهم ومساعيهم هو دعوة لارتكاب جرائم وحشية وانتشار بلادة لا يخجل منها أصحابها، مع وجود ذلك كله بين ظهرانينا، إن توجيه الفكر والتنسيق البارع للأعمال هما فى نفس الوقت طريق الشرف والإنسانية.

وهكذا نجد، فى هذه المسألة الكبرى المتعلقة بالتوفيق بين ثلاث تيارات عريضة ومتناقضة جزئيا فى الفكر، أن اعتبار "التعليم" علاجا لكل المشاكل يقفز إلى شفاه الجميع: ذلك التعليم الإنسانى الذى يستخدم على أفضل وجه عمل كل الناس بدون استعباد أو إكراه، ذلك التدريب الذى سيتيح لنا فرصة تشجيع التحيزات التى تساند المجتمع، واستبعاد تلك التحيزات التي تصم آذاننا بوحشية حتى لا نسمع بكاء النفوس السجينة داخل "الحجاب" والغضب المتصاعد للرجال المصفدين بالأغلال.

ولكننا بعد إن قلنا إن التعليم سوف يضع الأمور فى نصابها، ماذا نكون قد قلنا غير أمر بديهى؟ إن التدريب من أجل الحياة يعلم الناس كيف يعيشون، ولكن ماذا عن العيش المريح للرجال السود والبيض معا؟ قبل مائة وخمسين سنة، ربما كانت مهمتنا تبدو أيسر أداء، ففى ذلك الوقت قال لنا الدكتور جونسون[٢] بلطف إن التعليم لازم فقط لتجميل الحياة، وإنه بلا منفعة للهوام العاديين، وقد صعدنا اليوم إلى آفاق رفيعة تسمح لنا بأن نفتح على الأقل الساحات الخارجية للمعرفة أمام الجميع، وأن نعرض كنوزها على الكثيرين، وإنه نختار القلائل الذين ينكشف أمامهم سر الحقيقة، والذين لا يكونون مؤهلين لذلك تأهيلاً كاملاً بالميلاد أو مصادفات سوق الأوراق المالية، ولكن جزئيًا على الأقل تبعا للمهارة والقصد والموهبة والخلق، غير أن تنفيذ هذا البرنامج يحيرنا بشدة فى أنحاء ذلك الجزء من بلادنا الذى نزلت فيه محنة العبودية بأقسى صورها، وحيث نتعامل مع شعبين متخلفين، فقد احتاج الأمر هنا ذلك التعليم الإنسانى الذى يتطلب دائما الجمع بين الدائم والعارض - النموذجى والعملى فى توازن صالح للتطبيق - كما كان من اللازم دائما فى كل عصر ومكان، مسألة تحتاج إلى تجربة لا تنتهى وأخطاء متعددة.

وعلى سبيل التقريب نستطيع أن نشير إلى أربعة عقود مختلفة من العمل فى التعليم فى الجنوب منذ الحرب الأهلية، فمن نهاية الحرب حتى ١٨٧٦ كانت فترة المحاولات غير الواثقة والإغاثة المؤقتة، كانت هناك مدارس الجيش، ومدارس الإرساليات، ومدارس مجلس الرجال المحررين، فى ترتيب غير متناسق يحتاج إلى نظام وتعاون، وأعقب ذلك عشر سنوات من الجهد الشاق الحاسم فى سبيل بناء أنظمة مدرسية كاملة فى الجنوب، وأنشئت مدارس عادية وكليات للرجال المحررين، وكان المعلمون يتدربون هناك على إدارة شئون المدارس العامة، وكان هناك الاتجاه

(٢) صمويل جونسون (١٧٠٩-٨٤) مؤلف وشاعر وناقد بريطانى، وصاحب الفضل الأول فى إعداد "قاموس اللغة الإنجليزية" (١٧٥٥) (المترجم.)

الحتمى فى الحرب للحد من حجم تحيزات السادة وجهل العبيد، وبدا أن الجميع يحسنون الملاحة للخروج من الدمار الذي أحدثته العاصفة، وفى نفس الوقت، فبدءا من هذا العقد، ولكن على الأخص فى الفترة بين ١٨٨٥ و ١٨٩٥، بدأت الثورة الصناعية في الجنوب، وشهدت المنطقة ومضات من مصير جديد وبروز مثل عليا جديدة، وشهد نظام التعليم الذى يسعى للاكتمال عقبات جديدة ومجالا للعمل يزداد اتساعا وعمقا بلا توقف، وكانت كليات الزنوج، التي أنشئت باستعجال، غير مزودة بما يلزمها، وموزعة توزيعًا غير منطقى وبدرجات متفاوتة من الكفاءة والجدارة، ولم تكن المدارس الثانوية والنورمال تفعل شيئا أكثر مما تفعله المدرسة العامة، وكانت المدارس العامة لا تدرب غير ثلث الأطفال الذين ينبغى أن يلتحقوا بها، وحتى هؤلاء كان تدريبهم ضعيفًا، وفى نفس الوقت فإن الجنوب الأبيض، بسبب تحوله المفاجئ عن نموذج العبودية، اتخذ موقفا متشددا فى تحيزه العنصرى، وبلوره فى صورة قوانين قاسية وأعراف أشد قسوة، بينما كان السعى اليومى الرائع للتقدم من جانب البيض الفقراء يهدد بأن ينتزع من أبناء الرجال الذين تحرروا المعوقين بشدة، حتى الخبز والزبد، وبالتالي ففى خضم المشكلة الأوسع نطاقًا لتعليم الزنوج نشأت مسألة ذات طابع عملى مباشر: وهى العمل، المسألة الاقتصادية الحتمية التي تواجه شعبا فى مرحلة تحول من العبودية إلى الحرية، وخاصة من يحدثون التغيير فى وسط الكراهية والتحيز وانعدام سطوة القانون والمنافسة التى لا ترحم.

وكانت المدرسة الصناعية هى التى اتجهت إليها الأنظار فى هذا العقد، ولكنها اكتسبت قوتها الكاملة فى العقد الذي بدأ فى سنة ١٨٩٥، وهى الإجابة المطروحة على هذه الأزمة المشتركة بين التعليم والاقتصاد، وكانت إجابة جاءت فى وقتها وتتسم بالحكمة التامة، ومن البداية فى كل المدارس تقريبًا وجِّه قدر من الالتفات إلى التدريب على الأعمال اليدوية، ولكن الآن فقط ارتفع هذا التدريب لأول مرة إلى مكانة رفيعة وضعته فى تلامس مباشر مع التطور الصناعى الرائع فى الجنوب، ومنح اهتماما ذكّر الأهالى السود بأنه قبل دخول "معبد المعرفة" لابد من فتح "أبواب الكدح".

ولكنها فى نهاية الأمر لا تعدو أن تكون مجرد أبواب، ونحن عندما نحول أبصارنا عن المؤقت والطارئ فى مشكلة الزنوج إلى المسألة الأرحب للنهوض الدائم وتحضر السود فى أمريكا، يكون من حقنا أن نتساءل فى الوقت الذي يزداد فيه هذا الحماس للتقدم المادى، عما إذا كانت المدرسة الصناعية هى بعد كل شيء الإجابة الأخيرة والكافية بشأن تدريب الجنس الأسود، وأن نكرر برفق – ولكن بكل إخلاص – التساؤل الذى يتجدد دائمًا فى كل عصر: أليست الحياة أكثر من مجرد لحم؟ أليس

الجسد أكثر من مجرد رداء؟ والناس يوجهون هذا السؤال اليوم باهتمام أكبر بسبب المؤشرات السيئة فى الاتجاهات الحديثة فى التعليم، إن الاتجاه موجود هنا، ولدته العبودية، وسارعت بإحيائه الإمبريالية المجنونة السائدة اليوم، النظر إلى الكائنات البشرية على أنها من ضمن الموارد المادية، والتي ينبغى تدريبها بأنظار مركزة على أمر واحد وهو تحقيق الأرباح فى المستقبل، إننا متجهون إلى اعتبار التحيز العنصرى، الذى يضع السود والملونين فى "مكانهم" على أنه أمر نافع، مهما يكن مؤدياً إلى الحد من الطموح وإيذاء قلوب كائنات بشرية مناضلة، وقبل كل شىء فإننا نسمع كل يوم أن التعليم الذى يشجع الطموح، والذي يدعو إلى أرفع المثل، ويسعى إلى ثقافة عليا وأخلاق ممتازة وليس مجرد كسب العيش، هو ميزة يختص بها البيض، وأنه خطر ووهم بالنسبة للسود.

وبوجه خاص فقد وجِّه الانتقاد إلى جهود التعليم السابقة التى استهدفت مساعدة الزنوج، ففى الفترات الأربع التى أشرت إليها، نجد أولاً حماسة بغير حدود وبغير تخطيط واستعدادا للتضحية، ثم نجد إعدادا للمعلمين من أجل نظام واسع النطاق للمدارس العامة، ثم إقامة لهذا النظام وتوسيع نطاقه فى وسط صعوبات متزايدة، وأخيرا تدريب العمال من أجل الصناعات الجديدة والمتنامية، وقد وجه انتقاد حاد لهذا التطور ووصف بأنه مخالف للمنطق ومعاكس للطبيعة، وقيل لنا إنه كان ينبغى البدء أولا بتعليم الزنوج الاحتياجات الصناعية والعمل اليدوى، ثم يبدأ بعد ذلك تعليمهم المبادئ البسيطة للقراءة والكتابة، وفى النهاية، بعد سنوات، يمكن أن تستكمل النظام المدارس الثانوية ومدارس النورمال، بقدر ما يتطلبه ذكاء السود وثرواتهم.

ولسنا فى حاجة إلى تفكير عميق لنرى استحالة قيام نظام كهذا يتسم بالكمال المنطقى، فالتقدم فى الشئون الإنسانية غالبا ما يكون نتيجة جذب وليس نتيجة دفع، نتيجة سير إلى الأمام من جانب الشخص الاستثنائى، ورفع أشقائه الأقل كفاءة على مهل وبجهد شاق حتى يصلوا إلى مستواه، ولذا فلم يكن من قبيل المصادفة أن الجامعات ولدت قبل المدارس العامة بمئات السنين، وأن أصبحت هارفارد البديعة هى الزهرة الأولى فى بريتنا الموحشة، وهكذا كان الأمر فى الجنوب: فقد كانت الغالبية العظمى من الرجال الذين تحرروا فى نهاية الحرب تفتقر إلى الذكاء اللازم للعامل الحديث، وهم بحاجة لأن يمروا أولاً بالمدرسة العامة لتعلمهم القراءة والكتابة والحساب، ويجب أن ينتقلوا إلى مدرسة أعلى لتعليم المعلمين الذين سيقومون بهذه المهمة فى المدارس العامة، وقد اتجهت جموع المعلمين البيض التى تدفقت على الجنوب إلى إنشاء هذا النظام من المدارس العامة، ولم يكن بينهم غير قليلين يؤمنون بفكرة

إنشاء كليات جامعية، بل كان معظمهم يسخرون فى البداية من هذه الفكرة، ولكنهم واجهوا، كما واجه كل الناس بعد ذلك، المفارقة الرئيسة للجنوب: الفصل الاجتماعى بين الأجناس، والذى حدث فى ذلك الحين هو الانفصال البركانى المفاجئ لكل العلاقات تقريبا بين السود والبيض، فى العمل وفى الحكومة وفى الحياة العائلية. وقد حدث منذ ذلك الحين تصحيح جديد للعلاقات فى الشئون الاقتصادية والسياسية تصحيح هادئ ويصعب إدراكه، ولكنه بارع بوجه خاص، ويترك مع ذلك الهوة المخيفة القائمة عند خط اللون والتى يجتازها الناس متحملين مخاطرها، وهكذا ظهر فى ذلك الحين، كما هو الحال الآن، فى الجنوب عالمان منفصلان. وهما ليسا منفصلين فقط فى المجالات العليا للتعامل الاجتماعى بل أيضا فى الكنيسة والمدرسة، وفى السكك الحديدية والحافلات، وفى الفنادق والمسارح، وفى الشوارع وأحياء المدن، وفى الكتب والصحف، وفى الملاجئ والسجون، وفى المستشفيات والمدافن، ومازال هناك مجال واسع للاتصال من أجل التعاون فى المجال الاقتصادى وبين شتى الجماعات، ولكن الانفصال شديد وعميق بحيث يلغى فى الوقت الحالى وجود أى شيء يشبه التدريب الجماعي المتعاطف والفعال وقيادة أحد الجنسين للآخر، وهى أمور يجب أن يحصل عليها الزنوج الأمريكيون وكل الشعوب المتأخرة من أجل التقدم الفعلى.

ولم يلبث أن رأى ذلك مبشرو سنوات الستينات، وإذا كانت المدارس الصناعية والتجارية لم تنجح قبل إنشاء نظام للمدارس العامة، فمن المؤكد أنه لن يمكن إنشاء نظام فعال للمدارس العامة إلاّ حيث يوجد معلمون للتعليم فيها، فالبيض الجنوبيون لن يقوموا بتعليمهم. ولن يكون فى الوسع الحصول على العدد الكافى من البيض الشماليين، وإذا كان للزنجي أن يتعلم فهو يجب أن يقوم بتعليم نفسه بنفسه، والمساعدة المجدية التي يمكن أن تقدم له هى إنشاء مدارس لتخريج معلمين من الزنوج، هذه النتيجة وصل إليها ببطء ولكن بثقة كل دارس للوضع إلى أن أنشئ فى وقت واحد، فى مناطق متباعدة، وبدون تشاور أو وضع خطة منهجية، سلسلة من المؤسسات الرامية إلى توفير معلمين لمن لم يتعلموا، وفى مواجهة سخريات المنتقدين وتهكمهم على العيوب الظاهرة فى هذا التحرك يجب أن نضع قرينها الحاسم: أن هذه المؤسسات خرّجت فى جيل واحد ثلاثين ألفًا من المعلمين السود فى الجنوب، وقضت على أمية الغالبية من السود فى كل الوطن، وجعلت تاسكيجى أمرًا ممكنا.

ونزعت هذه المدارس للتعليم الأرقى بطبيعة الحال، إلى تعميق التنمية الأوسع: فقد كانت فى البداية مدارس عامة ومدارس للأجرومية، ثم أصبح بعضها مدارس ثانوية، وأخيرا فى ١٩٠٠ أصبح لدى أربع وثلاثين منها سنة أو أكثر من دراسات

المرحلة الجامعية، وقد تم التوصل إلى هذا التطور بدرجات مختلفة من السرعة في المؤسسات المختلفة، فهامتون مازالت مدرسة ثانوية، في حين بدأت جامعة فيسك تعليمها الجامعي في ١٨٧١، وبدأت سبيلمان سميزى تعليمها الجامعي في ١٨٩٦، وفي كل الحالات كان الهدف متماثلاً: الحفاظ على الحد الأدنى من مستويات التعليم بإعطاء المعلمين والقادة أفضل تدريب عملي، وقبل كل شيء تزويد العالم الأسود بمستويات مناسبة من الثقافة البشرية والمثل العليا للحياة، لم يكن كافيا أن يتدرب معلمو المعلمين بالأساليب الفنية المعتادة، بل يجب أيضا أن يكونوا - بقدر المستطاع - ذوى عقول متفتحة، ورجالاً ونساء مثقفين، لينشروا الحضارة بين أشخاص لم يكن جهلهم مقتصرا على الحروف بل كان شاملاً أيضا للحياة نفسها .

وهكذا يمكن أن نرى أن العمل في مجال التعليم في الجنوب بدأ بمؤسسات التعليم العليا، التي كان من نتائجها الطبيعية المدارس العامة ثم المدارس الصناعية في وقت لاحق، وسعت في الوقت نفسه إلى مد جذورها إلى أبعاد أعمق في التعليم الجامعي، ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذا التطور كان حتميا وضروريا، وكان يجب أن يحدث إن آجلا أو عاجلا، ولكن كان هناك، ولا يزال، سؤال يتردد في كثير من العقول عما إذا كان هذا النمو الطبيعي لم يكن مصطنعا، وما إذا كان التعليم الأعلى ليس مبالغا فيه أو أنه يتم بأساليب رخيصة وليست سليمة، وهذا الشعور منتشر وإيجابي بين الجنوبيين البيض. وقد أعربت مجلة جنوبية كبيرة عن هذا الرأى في مقالة افتتاحية نشرت مؤخرا :

"إن المحاولة التي بذلت لإعطاء الطلبة الملونين التعليم الكلاسيكي لم تكن مرضية، وعلى الرغم من أن الكثير تمكنوا من متابعة المنهج، فإن معظمهم تمكنوا من ذلك بطريقة الترديد الببغائي، يحفظون ما يتعلمون، ولكن لا يبدو أنهم يدركون صدق وجدوى ما يتعلمونه، وأنهم يتخرجون بدون غرض واضح أو حرفة مفيدة لمستقبلهم، وقد ثبت أن الخطة كلها هي تبديد للوقت والجهد وأموال الولاية"

وبينما يقدر الكثيرون من ذوى التفكير المعتدل أن هذا الرأى ينطوى على تطرف ومبالغة، فلاشك في أن الكثيرين يتساءلون عما إذا كان هناك عدد كاف من الزنوج على استعداد للتعليم الجامعي بحيث يبرر القيام بهذا الجهد؟ أليس هناك عدد كبير من الطلاب يدفعون إلى هذا دفعا قبل الأوان؟ ألا تكون نتيجة ذلك إثارة سخط الشاب الزنجي على بيئته؟ وهل ينجح هؤلاء الخريجون في الحياة الواقعية؟ إننا لا نستطيع أن نتجنب هذه الأسئلة الطبيعية، كما أنه لا يجوز من ناحية أخرى لأمة تتشكك

بطبيعتها فى قدرة الزنوج أن تأخذ بإجابة سلبية بدون بحث دقيق وانفتاح صبور، ولا يجوز أن ننسى أن معظم الأمريكيين يجيبون على جميع التساؤلات المتعلقة بالزنوج إجابة ثابتة ودون بحث، وأن أقل ما تتطلبه المراعاة البشرية هو الاستماع إلى الأدلة الموضوعية.

والمدافعون عن التعليم العالى للزنوج هم آخر من ينكر النواقص والعيوب الظاهرة فى النظام الحالى: فقد حاولت مؤسسات أكثر مما ينبغى أن تقوم بالعمل الجامعى، وكان العمل الذى تم فى بعض الحالات غير مستوف للاشتراطات، وجرى السعى فى بعض الحالات وراء الكمية دون النوعية، ولكن هذا يمكن أن يقال عن التعليم العالى فى كل أنحاء البلد، وهو يكاد يكون ظاهرة حتمية ملازمة للتوسع فى التعليم، ويترك السؤال الأعمق المتعلق بالحق الشرعى للزنوج فى التعليم العالى دون إجابة، وهذا السؤال الأخير لا يمكن الإجابة عنه إلاّ بطريقة واحدة، بدراسة الوقائع وباستقصاء مباشر، وإذا استبعدنا كل المؤسسات التى لم تقم فعليًا بتخريج طلاب درسوا منهجا أعلى من المنهج الذي تقدمه المدرسة الثانوية فى نيوإنجلاند– حتى إذا اتخذت اسم كليات جامعية – ثم تناولنا بعد ذلك المؤسسات الباقية الأربعة والثلاثين، فإننا نستطيع أن نستبعد الكثير من الأفكار الخاطئة بأن نسأل أنفسنا: أى نوع من المؤسسات هى؟ وماذا تقوم بتعليمه؟ وأى نوع من الطلاب تقوم بتخريجه؟

وينبغي أن نقول أولاً إن هذا النوع من الكليات الجامعية، بما فى ذلك أتلانتا وفيسك وهوارد وويلبرفورس وكلافلين وبيدل وشو وغيرها هى مؤسسات ذات طابع خاص، يكاد أن يكون فريدا، ومن خلال الأشجار المضيئة التى تهمس أمامى وأنا أكتب هذه الكلمات، أستطيع أن ألمح ومضات من جلمود جرانيتى من نيوإنجلاند، يغطى مقبرة، وضعه هناك خريجو جامعة أتلانتا، وقد كتب على الشاهد:

"إحياءً لذكرى معلمهم وصديقهم السابق، ولحياة الإيثار التىيعاشها، وتذكرة بالعمل النبيل الذى أداه، برجاء أن يباركهم الرب ويبارك أبناءهم وأبناء أبنائهم."

وكانت هذه هي المنحة التى منحتها نيوإنجلاند للزنوج الذين تحرروا: ليس إحسانا بل صداقة، ليس نقوداً بل أخلاقا، إنه ليس المال هو ما تحتاجه هذه الملايين المتوثبة، بل الحب والعطف، نبض القلوب التى تتدفق بالدم الحار، إنها منحة لا يستطيع اليوم أن يقدمها إلى الجماهير غير أبنائها وجنسها، ولكنها المنحة التي جاءت بها نفوس القديسين فى أحد الأيام إلى أبنائهم المختالين فى سنوات الستينات، والتى تعتبر أفضل ما شهده التاريخ الأمريكى، وواحدة من الأشياء القليلة التى لم

تصطبغ بالجشع السافر والتفاخر الرخيص. لقد جاء المعلمون إلى هذه المؤسسات لا بغرض "إبقاء الزنوج فى أماكنهم"، بل لإخراجهم من حمأة الأماكن التى دفعتهم العبودية إليها، وكانت الكليات التي أنشؤوها مستوطنات اجتماعية، كانت بيوتا اتصل فيها خيرة أبناء الرجال الذين تحرروا اتصالا وثيقا وعطوفا مع أفضل تقاليد نيوإنجلاند(٣) فقد كانوا معا يعيشون ويأكلون، ويدرسون ويعملون، يأملون ويتطلعون إلى ضوء الفجر الذى بدأ يشرق، ومن حيث المحتوى الفعلى لمناهجهم الدراسية فقد كانت بغير شك عتيقة، ولكنها من حيث قوتها التعليمية كانت فائقة، لأنها كانت اتصالاً بين الأرواح الحية.

ومن هذه المدارس تخرج ما يقرب من ألفين من الزنوج بدرجة البكالوريوس، وهذا العدد وحده يكفى للرد على القول بأن نسبة أكبر من اللازم من الزنوج يتلقون تعليما عاليا، فإذا أخذنا النسبة إلى مجموع الطلاب الزنوج فى كل أنحاء البلد، فى التعليم الجامعى والثانوى، فإن المفوض هاريس يؤكد لنا "إنها يجب أن تزيد بمقدار خمس مرات عن المتوسط الحالى" حتى تصل إلى المتوسط السائد فى البلد.

منذ ٥٠ سنة كان من الصعب إثبات قدرة الطلاب الزنوج بأية أعداد كبيرة على التفوق فى الدراسات الجامعية، أما اليوم فقد ثبتت هذه القدرة بحقيقة أن أربعمائة من الزنوج حصلوا على درجة البكالوريوس، وبعضهم بتقديرات ممتازة، من جامعات هارفارد وييل وأوبرلين و ٧٠ جامعة رئيسة أخرى، وهكذا نجد أنه قد أصبح لدينا ما يقرب من ألفى وخمسمائة خريج من الزنوج، يجب أن نسأل عنهم سؤالاً حاسماً وهو: إلى أى مدى هيأهم تعليمهم للحياة؟ ومن الطبيعى أن من الصعب للغاية الحصول على بيانات كافية عن نقطة كهذه، فمن الصعب الوصول إلى أولئك الأشخاص، والحصول على شهادات يمكن الاعتماد عليها، والحكم على تلك الشهادات بمعيار مقبول لدى الجميع بشأن النجاح، وفى سنة ١٩٠٠ قام "مجمع جامعات أتلانتا" بدراسة عن هؤلاء الخريجين، ونشر النتائج، سعى البحث أولاً إلى معرفة العمل الذى يقوم به هؤلاء الخريجون، ونجح فى الحصول على إجابات من حوالى ثلثى الباقين منهم على قيد الحياة، وكانت الشهادات المباشرة قد استمدت فى كل الحالات تقريبا من تقارير من

(٣) منطقة فى شمال شرقى الولايات المتحدة لم تكن الزراعة مهمة فيها بسبب تربتها الفقيرة والصخرية، لكنها تميزت بموانئ مناسبة ومصايد أسماك جعلت منها مركزا تجاريا، ونمت فيها الصناعة بسرعة فى القرن التاسع عشر وأصبحت من ذلك الحين تسيطر على الاقتصاد، وكانت الصناعات الرئيسة فيها هى الصناعات التقليدية مثل المنسوجات وصنع الأحذية وكانت هذه المنطقة مركزا لكثير من الأحداث التاريخية التى أدت إلى "الثورة الأمريكية". (المترجم)

الجامعة التى تخرجوا فيها، وبالتالى كانت التقارير فى جوهرها جديرة بالقبول. وتبين أن ٥٣ فى المائة من هؤلاء الخريجين يشتغلون بالتعليم كرؤساء مؤسسات ، أو نُظار للمدارس الثانوية، أو مديرين لإدارات التعليم فى المدن، وما إلى ذلك، وكان ١٧ فى المائة منهم من رجال الدين، و ١٧ فى المائة أخرى من المهنيين، ومن الأطباء أساسًا، وأكثر من ٦ فى المائة يشتغلون بالتجارة أو الزراعة أو الحرف اليدوية، وكان ٤ فى المائة موظفين حكوميين، وإذا افترضنا حتى أن نسبة كبيرة من الثلث الذى لم نحصل على بيانات عنه لم تحقق النجاح، فإن هذا السجل يعبر عما حققه تعليمهم من جدوى، وقد عرفت شخصيا مئات كثيرة من هؤلاء الخريجين، وهناك مراسلات بينى وبين أكثر من ألف منهم، ومن خلال آخرين تابعت بعناية عمل العشرات، وقد سبق أن عرفت بعضهم وبعض التلاميذ الذين قاموا بتعليمهم، وعشت فى بيوت قاموا ببنائها، ونظرت إلى الحياة من خلال عيونهم، وعندما أقارنهم بمجموعة من زملائى الدارسين فى نيوإنجلاند وفى أوروبا، لا أتردد فى القول بأنى لم أجد فى أى مكان آخر رجالاً ونساء لديهم استعداد أكبر للمساعدة، أو كرسوا أنفسهم بعمق أكبر لعمل حياتهم، ولديهم تصميم أشد على النجاح على الرغم من الصعوبات المريرة، أكبر مما وجدته لدى الزنوج الذين تخرجوا من الجامعات، وبينهم بغير شك نسبة من غير الموفقين، ومن بطيئى الفهم، وقليلى الاطلاع، ولكن هذه النسبة ضئيلة للغاية بينهم. وليس لديهم ذلك الأسلوب المتعالى الذى نربطه غريزيًا بخريجى الجامعة، ناسين أن هذا السلوك فى الواقع هو تراث البيوت المثقفة، وأنه لا يمكن لأناس خرجوا من العبودية من جيل واحد أن يفلتوا من قدر من البدائية والغلظة، على الرغم من حصولهم على أفضل تعليم.

ومع كل اتساع رؤيتهم وعمق حساسيتهم، كان هؤلاء الرجال فى العادة قادة محافظين ومدققين ، ونادراً ما كانوا مهيجين، وقاوموا إغراء التحرك على رأس الجموع، وعملوا بثبات وإخلاص فى آلاف المجتمعات المحلية فى الجنوب، وهم كمعلمين منحوا الجنوب نظاما جديرا بالثناء من مدارس المدن، وأعدادا كبيرة من المدارس والأكاديميات الخاصة، وقد عمل الخريجون الملونون جنبًا إلى جنب مع خريجى الجامعات البيض فى هامبتون، منذ بداية العمود الفقرى لقوة التعليم فى تاسكيجى والتى تشكلت من خريجى جامعتى فيسك وأتلانتا. وأصبحت هذه المؤسسة اليوم زاخرة بخريجى الجامعات، بدءاً من زوجة العميد النشيطة حتى مدرس الزراعة، بما فى ذلك ما يقرب من نصف المجلس الاستشارى وأغلبية رؤساء الأقسام. ومن حيث المهن، فإن خريجى الجامعة يتولون ببطء ولكن بثقة مواقع المسئولية فى كنائس

الزنوج، ويعالجون ويشتغلون بالوقاية من الأمراض المهلكة، وبدأوا في توفير الحماية القانونية لحريات وممتلكات الجماهير الكادحة، وكل هذا عمل مطلوب، ومن كان سيقوم به لو لم يفعل الزنوج؟ وكيف كان الزنوج سيقومون به إذا لم يدربوا جيداً عليه؟ إذا كان الأهالى البيض يحتاجون إلى الجامعة لتزويدهم بالمعلمين ورجال الدين والمحامين والأطباء ألا يحتاج الأهالى السود إلى شيء مماثل؟

وإذا كان من الصحيح أن هناك عددا غير قليل من شباب الزنوج القادر بأخلاقه وموهبته على تلقى هذا التعليم الراقى، والذى نهايته الثقافة، وإذا كان الألفان والخمسمائة الذين حصلوا على قدر من هذا التدريب فى السابق قد أثبتوا أنهم مفيدون لجنسهم وجيلهم، فعند ذلك يثور السؤال: ما الموضع الذى ينبغى أن يشغله فى التطور المقبل للجنوب والجامعات الزنجية الرجال الذين تعلموا فيها؟ من الواضح أن الانفصال الاجتماعى الحالى والحساسية الحادة إزاء الأجناس يجب أن تخلى مكانها فى نهاية الأمر لتأثير الثقافة، مع زيادة التحضر فى الجنوب. لكن تحولاً كهذا يحتاج إلى قدر كبير من الحكمة والصبر. وإذا كان من اللازم، أثناء تضميد هذا الجرح العميق، أن تعيش الأجناس جنبًا إلى جنب خلال سنوات طويلة، يجمع بينها الجهد الاقتصادى والخضوع لحكومة مشتركة، والحساسية لأفكار ومشاعر متبادلة، ومع ذلك فصل بينها فى صمت وهدوء كثير من الأمور المتعلقة بالتقارب الإنسانى الأعمق ، إذا كان هذا التطور غير المألوف سوف يستمر فى ظل السلام والنظام، والاحترام المتبادل والذكاء المتزايد، فسوف يحتاج إلى جراحة اجتماعية هى فى وقت واحد أدق وأجمل جراحة فى التاريخ الحديث، إنها ستحتاج إلى أناس ذوى عقل متفتح، واستقامة، من البيض والسود على السواء وعندما يتم ذلك سوف تنتصر الحضارة الأمريكية، وفيما يتعلق بالرجال البيض، أصبحت هذه الحقيقة مسلما بها الآن فى الجنوب، ويبدو أننا سنشهد قريبا نهضة فى التعليم الجامعى، ولكن نفس الأصوات التى ترحب بهذا العمل الطيب هى للغرابة تلزم الصمت أو العداء للتعليم العالى للزنوج.

إنه أمر غريب، لأنه من المؤكد أنه لا يمكن أن تبنى حضارة مستقرة فى الجنوب بينما يظل الزنوج يمثلون بروليتاريا جاهلة ومضطربة، ولنفترض أننا سنسعى لعلاج هذا الوضع بجعلهم عمالاً وليس شيئا آخر: إنهم ليسوا بلهاء، وهم قد تذوقوا رحيق "شجرة الحياة "(٤) وهم لن يكفوا عن التفكير، ولن يكفوا عن محاولة قراءة لغز العالم،

(٤) فى التوراة، شجرة فى وسط جنة عدن تعطى ثماراً تمنح الحياة الأبدية، أو شجرة ذات أوراق تشفى من الأمراض (المترجم).

فإذا نزعتم أفضل معلميهم وقادتهم، وإذا أغلقتم باب الفرصة فى وجه أشجع وأذكى عقولهم هل سيكتفون بمصيرهم؟ أم أنكم ستنزعون قيادتهم من أيدى رجال تعلموا كيف يفكرون وتضعونها فى أيدي ديماجوجيين غير متعلمين؟ يجب ألا ننسى أنه على الرغم من ضغط الفقر، وعلى الرغم من عدم التشجيع بل والسخرية من جانب الأصدقاء، إن الطلب على التعليم العالى يزيد بإطراد بين شباب الزنوج: كان عدد الخريجين فى السنوات من ١٨٧٥ إلى ١٨٨٠، ٢٢ زنجيا في جامعات الشمال، وفى الفترة بين ١٨٨٥ إلى ١٨٩٠ بلغ عددهم ٤٣ خريجا، ومن ١٨٩٥ إلى ١٩٠٠ بلغ حوالي ١٠٠ خريج، وفى نفس الفترات كان عدد الخريجين من الجامعات الزنجية فى الجنوب ١٤٣، و ٤١٣، وأكثر من ٥٠٠ خريج، وهنا يظهر التعطش الصريح للتعليم، فإذا رفضنا إعطاء مفتاح المعرفة للعشر المتميز بالموهبة، هل يتصور عاقل أنهم سيتخلون ببساطة عن شوقهم الملح وسيرضون بأن يصبحوا نساجين للصوف وحمالين للماء؟

لا، إن المنطق الواضح للزنوج سوف يتأكد أكثر فأكثر فى ذلك اليوم الذي تزداد فيه الثروة ويؤدى التنظيم الاجتماعى المعقد إلى منع الجنوب من أن يغدو – كما هو الآن فى معظم الأحيان – مجرد معسكر مسلح هدفه إذلال الأهالى السود، إن هذا التبديد للطاقة لا يمكن أن يحتمل إذا أريد أن يلحق الجنوب بالحضارة، وعندما يزداد الثلث الأسود للوطن ثراء ومهارات، فما لم يتم قيادته ببراعة فى فلسفته الأوسع نطاقا، فإنه سيفكر أكثر فأكثر فى ماضيه، وفى حاضره الزاحف المشوه، إلى أن يتبنى إنجيل الثورة والثأر ويلقى بطاقاته الجديدة بعيداً عن مجرى التقدم، وحتى منذ اليوم ترى جموع الزنوج بوضوح تام ما فى وضعهم من شذوذ وما فى أخلاقكم من تشويه، وقد تكون لديكم شكاوى قوية ضدهم، ولكن صيحاتهم المضادة، وإن كانت تفتقر إلى المنطق الشكلى، لها فى داخلها صدق ملتهب لا يسعكم أن تتجاهلوه تماماً يا سادة الجنوب إذا كنتم تشكون من وجودهم هنا، فهم يسألون: من الذي أحضرنا؟ وعندما تصيحون: أنقذونا من رؤية الزواج المختلط، فهم يجيبون إن الزواج الشرعى أفضل بكثير من اتخاذ السرارى بشكل منتظم والبغاء، وإذا كنتم على حق فى غضبكم عندما تتهمون رعاعهم بالاعتداء على النساء، فإنهم يمكن أن يجيبوا بغضب مماثل: إن أعمال الاغتصاب التى قام بها رجالكم وكان ضحيتها النساء السوداوات اللاتى لا حول لهن ولا قوة وبالخروج علي قوانينكم، مكتوبة على جباه مليونين من المولدين، ومكتوبة بدماء لا تمحى، وأخيراً، فعندما تلصقون الجريمة بهذا الجنس باعتبارها سمة خاصة به، فإنهم يجيبون بأن الاستعباد كان الجريمة الكبرى، وأن

السحل والقتل كانا توأمه، وأن لونهم وجنسهم ليسا بالجرائم، ومع ذلك فهما يلقيان فى هذا البلد إدانة لا تتوقف، فى الشمال، والشرق أو الجنوب أو الغرب.

ولن أقول إن هذه الحجج لها بالكامل ما يبررها، لن أتمسك بأنه ليس هناك جانب آخر للدرع، ولكنى أقول إنه من بين الزنوج التسعة ملايين فى هذا البلد، لا يكاد يوجد واحد غادر المهد لم تكن هذه الحجج بالنسبة له واقعًا يراه فى كل يوم مرتدياً رداء حقيقة مرعبة، إنى أقول أن سؤال المستقبل هو عن أفضل طريقة لمنع هذه الملايين من إطالة التفكير فى مظالم الماضى وصعوبات الحاضر، حتى يمكن أن يوجهوا طاقاتهم نحو مساع بهيجة ونحو التعاون مع جيرانهم البيض سعيًا إلى مستقبل أرحب وأعدل وأكثر امتلاء، وأن الوسيلة الحكيمة الوحيدة لتحقيق ذلك هى زيادة ربط الزنوج بالإمكانات الصناعية الهائلة للجنوب، وأن ذلك ما تعمل المدارس العامة والتدريب اليدوى ومدارس التجارة على تحقيقه، ولكن هذا وحده لا يكفى، فأسس المعرفة لدى هذا الجنس، كما لدى غيره، يجب أن تغرس بعمق فى الجامعات والكليات إذا أردنا أن نبنى هيكلاً متيناً ودائمًا، ولا مفر من أن تأتى المشكلات الداخلية للتقدم الاجتماعى: مشكلات العمل والأجور، والأسر والبيوت، والأخلاق والتقييم الحقيقى لأشياء الحياة، وينبغى أن يواجه الزنوج كل هذه المشكلات الحتمية وغيرها من آثار الحضارة، وأن يقوموا بحلها لأنفسهم، بسبب عزلتهم، وهل يمكن أن يكون هناك حل ممكن إلاّ عن طريق الدراسة والتفكير، والاستفادة بخبرة الماضى الغنية؟ أليست هناك، داخل مثل هذه الجماعة وفى مواجهة مثل هذه الأزمة، مخاطر أكبر بكثير يجب أن نخشاها من العقول التى لقيت نصف تعليم ؟ لا شك أن لدينا من العقل ما يكفى لإنشاء جامعة للزنوج مجهزة ومهيأة لتبحر بنجاح وتحول دون تكوين متحذلقين أو بلهاء، ولا أعتقد أننا سنستطيع إقناع الرجال السود بأنه إذا امتلأت معدتهم فإن أمر عقلهم لا يهم كثيرا، وهم منذ الآن يدركون بشكل ما أن مسالك السلام التى تمر بالكدح الشريف والرجولة المحترمة تحتاج إلى توجيه من مفكرين ماهرين، وإلى روح الزمالة القائمة على الحب والاحترام بين السود المتخلفين والسود الذين تحرروا بواسطة التعليم والثقافة.

وعلى ذلك فإن مهمة جامعة الزنوج واضحة: أنها يجب أن تحافظ على معايير التعليم السائدة، وأن تسعى إلى التجديد الاجتماعى للزنوج، وأن تساعد فى حل مشكلتى التعامل والتعاون بين الأجناس، وأخيراً، وما هو أبعد من كل هذا، يجب أن تعمل على تطوير الرجال، ففوق اشتراكيتنا الحديثة، ونتيجة لتقديسنا للجماهير، يجب أن تتطور تلك الفردية الراقية التى تحميها مراكز الثقافة، يجب أن يأتى احترام أكثر

سموا بالنفس البشرية ذات السيادة التى تسعى لأن تعرف نفسها والعالم المحيط بها، والتى تسعى لحرية الحصول على المزيد وتنمية الذات ، والتى سوف تمارس الحب والكراهية والعمل بطريقتها الخاصة ، غير مقيدة بالقديم أو الجديد على السواء ، إن مثل هذه النفوس قد ألهمت وقادت العوالم فى السابق ، ولكننا إذا لم ننخدع تماما بالذهب ، فإن تلك المشاعر سوف تعود، وفى هذا ينبغى احترام تطلعات الرجال السود : الأغنياء والأعماق المريرة لتجربتهم ، والكنوز المجهولة لحياتهم الداخلية ، والغرائب التى شهدوها من معطيات الطبيعة ، وقد يعطى هذا كله العالم وجهات نظر جديدة ويجعل حبهم ، وعيشهم ، وأفعالهم ، ذا قيمة كبرى لكل قلوب البشر ، وهم فى هذه الأيام التى ترهق أرواحهم ، يجدون أن فرصة التحليق فى الهواء القاتم فوق الدخان تداعب أفئدتهم وتعوضهم عما يفقدونه فوق الأرض بسبب لونهم الأسود .

إنى أجلس مع شكسبير وهو لا يشيح بوجهه عنى ، وعبر خط اللون أسير يداً فى يد مع بلزاك وديماس ، حيث يمر رجال ونساء مبتسمون ومرحبون عبر القاعات المذهبة ، ومن كهوف المساء التى تتأرجح بين تراب الأرض القوى والنسيج الرقيق المحيط بالنجوم ، أستدعى أرسطو وأورليوس وأية روح أرغب فى لقائها ، وهم جميعا يأتون مرحبين بلا احتقار ولا تعال ، وهكذا عندما أقترن بالحقيقة فإنى أعلو فوق "الحجاب"، فهل هذه هى الحياة التى تستكثرينها علينا يا أمريكا المجيدة ؟ هل هذه هى الحياة التى تريدين أن تحوليها إلى الركود والمظالم السائدة فى جورجيا ؟ هل تخشون أننا عندما نتطلع من هذه القمة العالية[5] بين الفلسيين والعماليق[6] سنرى أرض الميعاد ؟ .

(٥) فى الأصل High Pisgah جبل البسجة، وهو جبل مرتفع فى فلسطين القديمة (فى الأردن الآن) ومنه نظر النبى موسى إلى مايسمى "أرض الميعاد" (المترجم .)

(٦) الفيلسيون شعب من أصول غير سامية كان يعيش فى فلسطين ابتداء من القرن الثانى عشر قبل الميلاد، ويستخدم اللفظ الآن كتابية عن الأشخاص غير المثقفين ، والعماليق من الشعوب القديمة التى كانت تعيش فى تلك المنطقة وتشير إليها التوراة وتقول إنهم خدموا اليهود أثناء هروبهم من مصر (المترجم) .

الفصل السابع

عن الحزام الأسود

خرج القطار مدويا من الشمال وفتحنا أعيننا لنرى أرض جورجيا القرمزية تمتد إلى مسافات بعيدة ، قاحلة ورتيبة ، على اليمين وعلى الشمال ، هنا وهناك ترقد قرى متخلفة غير بهيجة ، وهناك رجال هزيلو البدن يتسكعون بلا عمل عند المخازن ، ثم تأتى مرة أخرى المساحات الممتدة من شجر الصنوبر والطين ، ومع ذلك لم يثقل النعاس جفوننا ولم نمل المنظر المتكرر ، لأن هذه أرض تاريخية ، عبر الطريق الذى نقطعه تماماً ، قبل ثلاثمائة وستين سنة ، كان يضرب فى الأرض ركب فرناندو دى سوتو (*) باحثًا عن الذهب ، و "البحر العظيم" ، وقد اختفى مع أسراه الحفاة هناك فى غابات الغرب المظلمة ، وهنا تجلس أتلانتا ، مدينة التلال المائة ، وبها شىء غربى ، وشىء جنوبى ، وشىء خاص بها ، فى حياتها المزدحمة ، وهذا الجانب من أتلانتا هو بلاد الشيروكى [1] ، وإلى الجنوب الغربى ، غير بعيد عن الموضع الذى قتل فيه سام هوز ربما تقف فى بقعة هى اليوم مركز لمشكلة الزنوج : مركز لأولئك الملايين التسعة من الرجال الذين يمثلون التركة السوداء لأمريكا من عصر العبودية وتجارة العبيد .

وليس هذا فقط ما يجعل جورجيا البؤرة الجغرافية لسكاننا الزنوج بل إنه من نواح عديدة أخرى ، الآن وبالأمس على السواء ، بدا أن مشاكل الزنوج تتركز فى هذه

(*) مستكشف عسكرى أسبانى رحل إلى نهر المسيسيبى سنة ١٥٤١ (المترجم) .

(١) الشيروكى واحدة من أكبر قبائل الأمريكيين الأصليين فى الجنوب الشرقى من الولايات المتحدة ، ووقعت بينهم وبين المستوطنين الأوروبيين معارك عديدة فى القرن الثامن عشر ، وقد حرموا من أراضيهم ، ومات الآلاف منهم فى مسيرة إلى الغرب فى ١٨٣٨ تعرف فى تاريخهم باسم "طريق الدموع" ، واليوم يعيش نحو ٤٥ ألف منهم فى أوكلاهوما ، كما لا يزال بضعة آلاف يعيشون فى كارولينا الشمالية (المترجم) .

الولاية ، وليست هناك ولاية أخرى فى الاتحاد تستطيع أن تعد مليونًا من الزنوج بين مواطنيها وهو عدد يكاد يصل إلى مجموع الزنوج فى كل الاتحاد فى سنة ١٨٠٠ ، وليست هناك ولاية أخرى قاتلت بإصرار ولأمد طويل ليتجمع لديها هذا العدد من الأفارقة ، وكان أوجلى ثورب [٢] يعتقد أن العبودية مخالفة للقانون والدين ، ولكن الظروف التى أعطت جورجيا أول ساكنيها لم تكن لتمنحها سكانًا ذوى أفكار متقدمة ، وعلى الرغم من حظر نظام الكفالة فإن هؤلاء الجورجيين ، شأن بعض خلفائهم ، اتجهوا إلى أخذ القانون بيدهم ، وكان القضاة متعاونين ، وكان التهريب مكشوفًا ، وكانت صلوات وايت فيلد [٣] حارة ، بحيث لم يأت منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت كل القيود قد انجرفت ، ومضت تجارة العبيد طليقة لمدة ٥٠ سنة أو أكثر .

وفى مدينة دارين ، حيث وقعت اضطرابات ديليجال فى الصيف منذ سنوات قليلة ، كانت تسمع صيحات احتجاج قوية ضد العبودية من جانب "الجبليين الأسكتلنديين" ، كما أعرب "المورافيون من أتباع أبنزر" عن عدم رضاهم عن النظام ، ولكن ظل الأمر كما هو إلى أن وقع "إرهاب توسينت الهايتى" وعند ذلك توقف الاتجار فى البشر ، فى حين أن القانون الوطنى الصادر فى ١٨٠٨ لم يكن كافيًا لوقفه ، وكم تدفق من الأفارقة على الولاية ! خمسون ألفا بين ١٧٩٠ و ١٨١٠ ، وبعد ذلك جاءوا من فرجينيا وعلى يد المهربين ، بمعدل ألفين فى كل سنة لسنوات طويلة بعد ذلك ، ومن ثم فإن الزنوج فى جورجيا ، الذين كان عددهم ٣٠ ألفا فى ١٧٩٠ ، تضاعف عددهم خلال عقد واحد وأصبحوا أكثر من مائة ألف فى ١٨١٠ ، ووصل عددهم إلى مائتى ألف فى ١٨٢٠ ، ونصف مليون فى وقت الحرب ، وهكذا تصاعد عدد السود عدة مرات .

(٢) جيمس إدوارد أوجلى ثورب (١٦٩٦-١٧٨٥) قائد بريطانى ، قام فى ١٧٣٣ بإنشاء مستعمرة جورجيا الأمريكية لتكون ملجأ للمدينين ، وقد دافع عن بقاء الولاية وهزم قوة أسبانية فى ١٧٤٢ (المترجم) .

(٣) جورج وايت فيلد (١٧١٤-١٧٧٠) واعظ إنجيلى بريطانى ، مؤسس الكنيسة الماثودية الكلفينية ، وابتداء من ١٧٣٨ قام بسبع زيارات لأمريكا حيث تأثر بالحركة المسماة "اليقظة الكبرى" ، ومات فى نيوبيرى بورت فى ماساشوستس (المترجم) .

ولكننا يجب أن نسرع فى رحلتنا ، فهذه البطاح التى نعبرها عند اقترابنا من أتلانتا هى الأراضى القديمة لقبائل الشيروكى تلك الأمة الهندية الشجاعة التى ناضلت طويلا من أجل وطنها ، إلى أن طاردها القدر وحكومة الولايات المتحدة ودفعها إلى ما وراء المسيسيبى ، وإذا كنت تريد أن تركب معى فعليك أن تمتطى "مركبة جيم كراو" فلن يكون هناك اعتراض فهناك بالفعل أربعة من الرجال البيض الآخرين ، وفتاة بيضاء صغيرة مع مربيتها ، فالمعتاد أن تمتزج الأجناس فى هذه العربة ، أما العربة البيضاء فكل ركابها من البيض ، وهذه العربة طبعا ليست جيدة كالأخرى ، ولكنها نظيفة مريحة إلى حد ما ، ولكن كان عدم الارتياح جاثما على قلوب أولئك الأشخاص الأربعة السود ، وعلى قلبى .

ونحن نمضى فى طريقنا بهدوء ، ويبدأ الطين الأحمر الأجرد وأشجار الصنوبر فى شمال جورجيا فى الاختفاء ، وتظهر فى مكانها أراض متموجة غنية ، زاخرة بالنبات ، ومزروعة بعناية هنا وهناك ، وهذه هى أراضى "هنود النهير" [٤] والتى وجد سكان جورجيا مشقة فى الاستيلاء عليها ، وها هى المدن تظهر بتواتر أكبر وتصبح أكثر تسلية ، وهناك محالج للقطن مبنية حديثا تظهر فى الجانبين ، فبعد ماكون [٥] يصبح العالم أقل بياضًا ، ونحن الآن نقترب من الحزام الأسود أراضى الأشباح الغربية ، التى كان العبيد نفسهم يشحب لونهم عند الوصول إليها ، والتى لا يصدر عنها الآن غير همهمات خافتة وغير واضحة إلى العالم الذى وراءها و "سيارة جيم كراو" تصبح أكبر حجما وأحسن صورة ، ويصحبنا فيها ثلاثة من عمال الحقول ذوى الأيدى الخشنة واثنان أو ثلاثة من المتسكعين البيض ، ومازال بائع الصحف يعرض بضاعته فى أحد جوانبها ، فالشمس تغرب ، ولكننا نستطيع أن نرى بلاد القطن

(٤) Creek Indians وهم مجموعة من الهنود الأمريكيين الأصليين كانت لهم مستوطنات فى ألاباما وجورجيا ، وكانوا يمثلون مجتمعا زراعيا مستقرا يعتمد على الأنهار والنهيرات المنتشرة فى المنطقة ، وفى ١٨١٣-١٨١٤ فقدوا معظم أرضهم فى حرب قادها القائد العسكرى الأمريكى أندرو جاكسون ، وبحلول ١٨٤٠ كانت القبيلة كلها قد نقلت إلى أوكلاهوما ، حيث لا يزال معظم خلفاءها يعيشون اليوم (المترجم) .

(٥) مدينة صغيرة يقطنها حاليا حوالى ٣٠٠ ألف نسمة فى وسط جورجيا ، تقع على نهر كوكمولجى وهى حاضرة إنتاج القطن وتصنيعه وتصديره ، وقد اتخذت اسمها من اسم مؤسسها ناسانيال ماكون (المترجم) .

العظيمة ونحن ندخل إليها وقد أصبحت التربة الآن سوداء وخصبة فى بعض المواضع ، خفيفة ورمادية فى مواضع أخرى ، وتتناثر أشجار فاكهة ومبان متهدمة على امتداد الطريق إلى ألبانى [٦] .

وفى ألبانى ، فى قلب "الحزام الأسود" نتوقف ، وعلى مبعدة مائتى ميل إلى الجنوب من أتلانتا ، ومائتى ميل إلى الغرب من المحيط الأطلنطى ، ومائة ميل إلى الشمال من "الخليج العظيم" تقع مقاطعة دوجيرتى التى يقطنها عشرة آلاف زنجى وألفان من البيض ويعبرها نهر فلنت منحدراً من أندرسون فيل ثم ينحنى فجأة عند ألبانى عاصمة المقاطعة ، ثم يسارع ليلتقى بالشتاهوكى والبحر ، وكان أندرو جاكسون [٧] يعرف فلنت جيداً وقد زحف عبره فى أحد الأيام لينتقم من "مذبحة الهنود" فى "فورت ميمز" ، وكان ذلك فى سنة ١٨١٤ ، ليس قبل معركة نيو أورليانز بوقت طويل ، وعندما وقعت معاهدة كريك التى أعقبت حملته سلمت مقاطعة دوجيرتى بكاملها ومساحات كبيرة أخرى من الأراضى الغنية إلى جورجيا ، ومع ذلك كان المستوطنون يهربون من تلك الأراضى ، لأن الهنود كانوا موجودين فى كل مكان ، وكانوا جيراناً غير مستحبين فى تلك الأيام ، وكان الذعر الذى ساد فى ١٨٣٧ ، والذى كان تركة جاكسون لفان بورين [٨] قد أبعد المزارعين عن الأراضى الفقيرة فى فرجينيا وكارولينا وشرقى جورجيا فى اتجاه الغرب ، وقد نقل الهنود إلى ما سمى "أراضى الهنود" [٩] وتدفق المستوطنون إلى هذه الأراضى المشتهاة ليستعيدوا ثرواتهم المفقودة ، وفى منطقة يبلغ نصف قطرها مائة ميل حول ألبانى كانت تمتد أراض

(٦) عاصمة ولاية نيويورك منذ ١٧٩٧ ، ويبلغ سكانها حالياً حوالى المليون ، وتقع على الضفة الغربية لنهر هدسون على مسافة نحو ٢٣٣ كيلو متر إلى الشمال من مدينة نيويورك (المترجم) .

(٧) أندرو جاكسون (١٧٦٧–١٨٤٥) الرئيس السابع للولايات المتحدة (المترجم) .

(٨) مارتين فان بورين (١٧٨٢–١٨٦٢) الرئيس الثامن للولايات المتحدة (المترجم) .

(٩) مساحات خصصت للهنود بمقتضى قانون صدر فى سنة ١٨٣٤ ، وكانت حكومة الولايات المتحدة قد بدأت فى نقل قبائل شيروكى لكاريك وسيمنول وشكتو إلى غرب نهر المسيسيبى ، ثم جاء قانون ١٨٣٤ فخصص المنطقة التى أصبحت الآن أوكلاهوما للهنود ، ولكن هذا القانون ألغى فى سنة ١٩٠٧ عند انضمام أوكلاهوما إلى الاتحاد (المترجم) .

خصبة عظيمة ، تزخر بغابات الصنوبر والسسيان والجوز والحور ، تدفئها الشمس وترطبها المستنقعات ، وهنا تم إرساء حجر الزاوية لـ "مملكة القطن" .

وقد أصبحت ألبانى اليوم مدينة جنوبية هادئة ذات شوارع عريضة ، وبها مجموعة كبيرة من المحلات وقاعات الاحتفالات ، وصفوف منتظمة من المساكن : البيض عادة فى ناحية الشمال ، والسود ناحية الجنوب . وخلال ستة أيام فى الأسبوع تبدو المدينة بغير شك أصغر من أن تتسع لأنشطتها ، وتأخذ فترات الراحة متكررة ومتطاولة ، ولكن فى أيام السبت تنطلق فجأة المقاطعة بكاملها من عقالها وتأتى إلى الميدان ، ويتدفق سيل من الفلاحين السود خلال الشوارع ، ويملأون المحلات ويسدون الشوارع الجانبية ويخنقون الطرق الرئيسة ويستولون على المدينة استيلاء كاملاً ، وهم من الأهالى السود مفتولى العضلات من الريفيين الخشنين ، ذوى الطبيعة السمحة والبساطة ، كثيرى الكلام إلى حد ما ، ولكنهم مع ذلك أكثر صمتا وسكونا عن الجموع فى فاين بالس أو نابولى أو كراكوف ، وهم يشربون كميات كبيرة من الويسكى ولكنهم لا يسكرون بشدة ويتكلمون ويضحكون بصوت عال أحياناً ، لكنهم نادرا ما يتشاجرون أو يتقاتلون ، يسيرون فى الشوارع جيئة وذهابا ، ويلتقون بالأصدقاء ويثرثرون ، ويحملقون فى واجهات المحلات ويشترون البن والحلويات الرخيصة والملابس ، وعند الغروب يركبون سياراتهم عائدين إلى مساكنهم سعداء ؟ الواقع لا ، ليسوا سعداء تماماً ، ولكن أسعد مما لو أنهم لم يأتوا .

وهكذا فإن ألبانى عاصمة حقيقية ومدينة جنوبية رئيسة نموذجية ، إنها مركز الحياة لعشرة آلاف شخص ، وهى نقطة اتصالهم مع العالم الخارجى ، ومركز الأخبار والشائعات ، وهى سوق البيع والشراء ، والاقتراض والإقراض ، وهى منبع العدالة والقانون لديهم ، فى وقت من الأوقات كنا نعرف حياة الريف معرفة وثيقة وحياة المدينة معرفة قليلة ، ولكننا كنا نصور حياة المدينة كما لو كانت حياة منطقة ريفية مزدحمة بالسكان ، أما الآن فقد نسى العالم ما هو الريف ، وعلينا أن نتصور مدينة صغيرة يتناثر فيها السود متباعدين فى ثلاثمائة ميل مربع موحشة من الأراضى ، ليس بها قطار أو باص ، فى وسط شجيرات القطن والذرة ، وبقع واسعة من الرمل والتربة الخالية .

والقيظ يشتد فى جورجيا الجنوبية فى شهر يوليو ، حر متسلط متشدد يبدو وكأنه مستقل تماما عن الشمس ، ولذا تطلّب الأمر منا بضعة أيام حتى نستجمع شجاعتنا ونغادر موقعنا تحت السقيفة ، ونغامر بالخروج إلى الشوارع الريفية الطويلة حتى نتعرف على هذا العالم المجهول ، وأخيرا بدأنا مسيرتنا ، كانت الساعة حوالى العاشرة صباحاً ، تضيئها نسمة خفيفة ، وسرنا مسرعين باتجاه الجنوب فى وادى فلنت ، عبرنا الأكواخ المتناثرة الشبيهة بالصناديق والصفوف الطويلة من الواجهات ذات العقود المسماة "الفُلْك" ولم نلبث أن وجدنا أنفسنا فى الخلاء ، وعلى حدود المزارع الكبرى للأيام الخوالى ، وهناك "ميدان جو فيلدز" الذى كان رجلاً قوى الشكيمة ، قتل فى زمانه العديد من الزنوج Nigger ، وكانت مزرعته قائمة على امتداد ١٢ ميلاً وكأنها ملكية أحد الأمراء ، وهى تكاد أن تكون قد انقرضت الآن ، لم يبق منها غير فتات مملوكة للأسرة ، أما الباقى فقد انتقل إلى اليهود والزنوج ، وحتى المساحات الصغيرة التى بقيت مثقلة بالديون ، وشأن غيرها من الأراضى يزرعها المستأجرون ، وها هو واحد منهم رجل طويل أسمر اللون ، يشتغل بقوة ويشرب بكثرة ، أمى ، ولكنه واسع الاطلاع على شئون الزراعة كما يتبين من محاصيله الناجحة ، وهذا البيت المحزن من ألواح الخشب هو مسكنه ، وقد انتقل إليه لتوه من ذلك الكوخ الذى غطاه الطُحلب والذى لا يضم غير غرفة مربعة واحدة .

ومن خلال الستائر فى بيت "بنتون" ، بعد مسافة قصيرة على الطريق ، هناك وجه أسمر يحملق فى الغرباء ، لأن العربات العابرة ليست من الوقائع التى تحدث هنا كل يوم ، وبنتون رجل أصفر ذكى له أسرة معقولة الحجم ، ويدير مزرعة عصفت بها الحرب ويقوم الآن بإصلاح القائم الخشبى الذى يدعم الشباك ، وهو قد يكون ميسور الحال كما يقولون ولكنه يفرط فى شرب الخمر فى ألبانى ، ويبدو أن روح الأهمال النابعة من التربة نفسها قد أستقرت فوق هذه الأفدنة ، ففى الأيام الماضية كانت هنا محالج للقطن وآلات ، ولكن الصدأ قد علاها وتبددت .

وتبدو الأرض كلها بائسة ومهجورة ، هنا بقايا المزارع الشاسعة لآل شيلدون وآل بيللوت وآل رنسون ، ولكن روحها لم تعد باقية فالمساكن القائمة شبه خرابات ، أو اختفت تماما ، والأسوار قد سقطت والأسر تائهة فى العالم ، لقد واجه هؤلاء السادة السابقون تقلبات غريبة فى صروف الأيام ، فهناك تمتد الأفدنة العديدة التى كان

يملكها بيلداد ريسور ، وقد مات فى وقت الحرب ولكن الخولى المتواضع سارع بزواج الأرملة ، ولكنه ذهب ، وكذلك ذهب جيرانه ، ولم يبق الآن غير المستأجر الأسود ، ولكن اليد الشبحية لأحد أحفاد أعمام أو أخوال المالك تمتد من مساحات رمادية لتجمع إيجار الأرض بلا ندم ، ولذا فالأرض غير معتنى بها وضعيفة ، ولا يستطيع أن يتحمل مثل هذا النظام غير المستأجرين السود ، وهم لا يتحملونه إلا لأنهم لا يجدون سبيلاً آخر ، لقد استمرت رحلتنا اليوم عشرة أميال ولم نر وجها أبيض واحدا .

ويتملكنا ببطء شعور بالتراخى ، على الرغم من أشعة الشمس الباهرة وحقول القطن الخضراء ، وهذه إذا هى "مملكة القطن" إنها الشبح الباقى من حلم بديع ، وأين ذهب الملك ؟ ربما يكون هذا هو ذلك العامل الذى يتصبب عرقًا ويعمل بالمحراث ، ليفلح أفدنته الثمانين معتمدا على هذين البغلين النحيلين ، ويخوض معركة قاسية للإفلات من الديون ، وها نحن نجلس نتأمل الأحوال ، إلى أن نصادف عند انحناء الطريق فوق الأرض الرملية منظرًا مفاجئًا أكثر بهجة : منزلا صغيرا نظيفا يتربع مستقرا على جانب الطريق ، وبجانبه محل صغير، وعند المدخل يقف رجل طويل برنزى اللون عندما نحييه ، ويأتى إلى عربتنا ، طوله يبلغ ستة أقدام ، له وجه يقظ ويبتسم بحزن ، وهويسير بقامة مستقيمة تجعلنا نؤكد أنه ليس مستأجراً ؛ نعم ، إنه يملك ١٤٠ فدانا وهو يقول " لقد تدهورت أحوال الأراضى منذ أيام العز فى ١٨٥٠" وقد انخفض ثمن القطن ، وهناك ثلاثة مستأجرين من السود يعيشون فى مزرعته ، وهو يحتفظ فى المحل الصغير بقدر ضئيل من التبغ والنشوق والصابون والمشروبات الخفيفة لمن يسكنون فى المنطقة القريبة ، وهذا هو محلجه الذى اشترى له آلات جديدة تم تركيبها مؤخرا ، وقد قام فى العام السابق بحلج ثلاثمائة بالة من القطن ، وله ولدان ، أرسلهما إلى المدرسة ، وهو يقول بحزن : أجل ، إن أحواله لا بأس بها ، ولكن سعر القطن انخفض إلى أربع سنتات ، وإنى أعرف كيف يظل "الدين يثقل كاهله" .

وإينما كان "الملك" فإن حدائق وقصور مملكة القطن لم تختف تمامًا فنحن نمر حتى الآن بمساحات كبيرة من شجر البلوط والصنوبر العالى المحلق ، إلى جانب نباتات أرضية من الريحان والشجيرات ، كان هذا هو البيت الذى يقيم فيه آل طومسون الذين كان يجر عربتهم أربعة جياد فى الماضى السعيد ، وقد أصبح كل هذا صامتًا الآن ، ورمادًا ، وأعشابًا مختلطة ، وقد وضع المالك كل ثروته فى صناعة القطن

التى كانت نامية فى الخمسينات ، وعندما انخفضت الأسعار فى الثمانينات جمع أشياءه وتسلل خارجًا ، وهناك على مسافة قريبة حوش آخر به نجيل غير مقصوص به أشجار مجنوليا ضخمة وممرات بها أعشاب نامية ، وهذا "البيت الكبير" يكاد يكون مهدما ، وبابه الأمامى الكبير يحدق فى الطريق بغير فهم ، والجزء الخلفى قد رمم كيفما اتفق لمستأجره الأسود، وهو زنجى رث الثياب قوى البنية ، سىء الحظ وقليل العزم ، وهو يعمل فى الحقل بجد حتى يتمكن من دفع الإيجار للفتاة البيضاء التى تملك ما بقى من المكان ، وقد تزوجت رجل شرطة وتعيش فى مدينة سافانا .

ومن حين لآخر نأتى إلى كنائس ، وها هى واحدة الآن يسمونها شبرد (الراعى الصالح) وهى مبنى ضخم مطلى باللون الأبيض ، يجثم على قواعد من الحجر ، يتطلع إلى العالم كله كما لو كان يستريح هنا قليلاً ويتوقع أن يقوم فى أى لحظة ويمضى فى الطريق ، ومع ذلك هو مركز لمائة من مساكن الأكواخ ، ويحدث من حين لآخر - فى بعض أيام الأحد - أن يتجمع هناك خمسمائة شخص من القريب والبعيد يتحدثون ويأكلون ويغنون ، وهناك على مقربة مبنى لمدرسة مبنى خال مفتوح للهواء ، ولكن هذا يعتبر أحسن مما كان الحال فى السابق ، لأن التعليم كان يجرى عادة فى الكنيسة ، والكنائس تتراوح من أكواخ مبنية من جذوع الشجر إلى تلك الشبيهة بكنيسة الراعى الصالح إلى الكنائس التى لم تكن شيئا والتى تظل وديعة على حدود المقاطعة ، وهى بيت صغير مبنى من ألواح الخشب ، ربما كانت أبعادها ١٠×٢٠ ، وبداخلها صفان متقابلان من الدكك الخشنة غير الممسوحة ، والتى يقوم معظمها على أرجل ، وأحيانا على صناديق ، وفى مواجهة الباب يوجد مكتب صناعة منزلية ، وفى أحد الأركان بقايا موقد ، وفى ركن آخر سبورة قاتمة اللون ، وهذا هو أجمل مبانى المدارس الذى رأيته فى دوجيرتى ، باستثناء ما رأيته داخل المدينة ، ووراء مبنى المدرسة هناك نزل من طابقين لم يستكمل بعد ، وهناك تعقد الجمعيات اجتماعاتها : جمعيات "لرعاية المرضى ودفن الموتى" وهذه الجمعيات تنمو وتزدهر .

لقد وصلنا إلى حدود دوجيرتى ، وأوشكنا أن ننحرف يساراً على امتداد خط المقاطعة ، عندما أشار لنا على جميع هذه الرؤى رجل لطيف كبير السن ، أسود ذو شعر أبيض ، فى حوالى السبعين من العمر ، لقد عاش هناك خمسة وأربعين عاماً ،

وهو الآن يعول نفسه وزوجته العجوز بتقديم المساعدة لمن يذهبون إلى هناك ، ومن خلال الصدقات التى يحصل عليها من جيرانه السود ، وهو يرينا مزرعة آل هيل عبر خط المقاطعة مباشرة فى مدينة بيكر ، وهى أسرة تتألف من أرملة وابنين يافعين ، وقد أنتجوا عشر بالات (ولا يحتاج المرء لأن يضيف هنا عبارة "من القطن") ، وهناك أسوار وخنازير وأبقار ، وهناك الشاب ممنون ذو الصوت الخفيض والبشرة المخملية الذى تقدم إلينا خجلاً ليرحب بالأغراب ، فخورا ببيته ، ونحن ننحرف الآن نحو الغرب على امتداد خط المقاطعة ، وها هى أجذاع ضخمة جرداء لأشجار الصنوبر تحلق فوق حقول القطن الخضراء ، وتفرقع بأصابعها العارية المغضنة باتجاه حدود الغابة الحية وراءها ، وليس الجمال كثيراً فى هذه المنطقة ، ليس هناك غير نوع من الاستسلام الخشن الذى يوحى بالقوة وكأنها عظمة عارية ، فالمساكن مستقيمة وبلا طلاء ، وليست هناك أراجيح للنوم (هاموكس) أو كراسى مريحة ، وقليل من الزهور ، ولذا فعندما يرى المرء – كما يرى هنا فى بيت آل رودون – تكعيبة عنب فوق مدخل صغير ، ونوافذ على غرار نوافذ البيوت تطل من وراء الأسوار ، فإنه يأخذ نفساً عميقاً ، وفى اعتقادى إنى لم أدرك من قبل مكان "السور" فى الحضارة ، فهذه هى "البلاد التى بلا أسوار" حيث تتجمع على كلا الجانبين عشرات الأكواخ القبيحة التى يتألف كل منها من غرفة واحدة ، وغير بهيجة ، هنا تكمن مشكلة الزنوج فى قذارتها وإملاقها الصارخ ، وهنا لا توجد أسوار ، ولكن توجد من حين لآخر قضبان متقاطعة أو قوائم مستقيمة تبرز أمام العين ، وعند ذلك نعرف أن ثمة لمسة للحضارة قريبة ، وبطبيعة الحال فإن هاريسون جوهاجن رجل هادىء أصفر اللون ، صغير السن ، ناعم الوجه ومجتهد مثابر ، من الطبيعى أنه يملك بضع مئات من الأفدنة ، ونحن نتوقع أن نرى غرفاً معتنى بها وأسرة سميكة وأطفالاً يضحكون ، أو ليست لديه أسوار قوية ؟ أما أولئك الذين على مبعدة ، فلماذا يبنون أسوار حول الأراضى التى يدفعون إيجارها بالكاد ؟ إن ذلك لن يؤدى إلا إلى زيادة ما يدفعونه من إيجار .

ونحن نمضى فى سبيلنا ، عبر الرمال وأشجار الصنوبر ولمحات من المزارع القديمة ، إلى أن تزحف أمام أعيننا مجموعة متقاربة من المبانى من الخشب والطوب ، والمصانع والبيوت ، وأكواخ متناثرة ، لقد بدت وكأنها قرية ، ولكن عندما اقترب المشهد

أكثر فأكثر تغير موضوع الرؤية : فقد كانت المساكن مهدمة ، والطوب يتساقط ، والمصانع صامتة ، وكان المتجر مغلقا ، فقط فى الأكواخ كان يظهر من حين لآخر قدر من حياة كسولة ، كنت أستطيع أن أتصور أن المكان واقع تحت تأثير تعويذة مخيفة ، وأن عقله المسلوب يحول بينه وبين البحث عن الأميرة ، وتطوع رجل كبير السن مهلهل الثياب ، تبدو عليه الأمانة والبساطة غير متكلف ، بأن يروى لنا الحكاية ، إن "ساحر الشمال" – الرأسمالى – اندفع هنا فى السبعينات ليتودد إلى هذه التربة الحبيبة السمراء ، فاشترى ميلاً مربعا أو أكثر ، ولفترة من الزمن كان عمال الحقول يغنون ، وكانت المغازل تدور ، والمحالج تطن ، ثم حدث تغيير فقد اختلس ابن الوكيل الأموال وهرب بها ، وبعد ذلك اختفى الوكيل نفسه ، وفى النهاية سرق الوكيل الجديد حتى الدفاتر ، وغضبت الشركة وأغلقت أعمالها وبيوتها ، ورفضت أن تبيع ، وتركت المساكن والأثاث والآلات لتصدأ وتبلى ، وهكذا هبط الصمت على مزرعة "ووترز لورينج" بسبب لعنة عدم الأمانة ، وتقف كأنها توبيخ هادئ لأرض محترقة .

وبشكل ما أنهت هذه المزرعة رحلتنا فى ذلك اليوم ، لأنى لم استطع أن أتخلص من تأثير ذلك المشهد الصامت ، واتجهنا عائدين إلى المدينة ، عابرين الصنوبرات المستقيمة كأنها الخيط ، وعبر بركة ماء داكنة يتبعثر فيها الشجر حيث كان الهواء مثقلا برائحة عذبة ، وكانت تعدو بجانبنا طيور الماء ذات السيقان الرشيقة ، وبدت نوارات القطن مبتهجة فى مواجهة أعوادها الخضراء والأرجوانية ، وكانت هناك فتاة فلاحة تعزق فى الحقل ، وقد غطت رأسها بقلنسوة بيضاء وبدت أطرافها سوداء ، شاهدنا هذا كله ، ولكن التعويذة كانت لا تزال تفعل فعلها فينا .

وما أعجبها هذه الأرض كم تزخر بحكايات لم يروها أحد ، بالمآسى والضحك ، وبالتركة الغنية لحياة البشر ، مغلفة بظلال الماضى المأسوى ووعود المستقبل الكبرى ، هذا هو الحزام الأسود فى جورجيا ، ومقاطعة دوجيرتى هى الطرف الغربى للحزام الأسود وقد أسماها الرجال فى وقت من الأوقات "مصر اتحاد الولايات" ، وهى زاخرة بالمواد التاريخية الشيقة ، فهناك أولاً "الأرض الرخوة" ناحية الغرب حيث تنحدر مياه نهر شيكا شاوتشى عادة باتجاه الجنوب ، وهناك ظل لمزرعة قديمة يرقد عند حافتها ، منعزلاً ومظلمًا ، ثم يأتى مجمع المياه ، فتظهر الطحالب الرمادية العالقة والمياه شبه

المالحة ، وتظهر الغابات الزاخرة بالطيور البرية ، وفى أحد الأماكن هناك نار مشتعلة فى الغابة ، تتأجج بغضب أحمر مدمدم ، ولكن ذلك لا يثير اهتمام أحد ، وبعد ذلك تزداد الأرض الرخوة جمالاً ، وهناك طريق مرتفع بناه الزنوج المحكوم عليهم والمقيدون بالأغلال ، ليعملوا فى تلك الأراضى ، ويشكلوا طريقًا ذا أسوار ومغطى تقريبيًا بالخضرة المنعشة ، وهناك أشجار متناثرة تنبع من أرضية تزهو بما فيها من نباتات قصيرة سخية ، وتتداخل الظلال الضخمة غامقة الخضرة فى الخلفية السوداء ، حتى يصبح الكل كتلة واحدة متداخلة من أوراق الأشجار شبه الاستوائية ، بديعة فى روعتها البدائية ، وقد عبرنا فى وقت من الأوقات مجرى مائى أسود صامت ، حيث بدت الأشجار الحزينة والنباتات المتسلقة المتعرجة ، والتى تبرق كلها بالأصفر والأخضر الملتهب ، وكأنها كاتدرائية فسيحة كأنها "ميلانو" خضراء بنيت من الأشجار البرية ، وأثناء عبورى ، بدا لى أنى أرى مرة أخرى تلك المأساة البشعة التى حدثت منذ سبعين عامًا ، فقد قام " أسكولا" الرئيس الزنجي الهندى فى أراضى فلوريدا الرخوة مطالبًا بالثأر ، ووصلت صيحته إلى مناطق مجارى الماء الصغيرة فى دوجيرتى ، وترددت صيحة الحرب فى تلك المنطقة من شتى هوكى حتى البحر ، وكان الرجال والنساء والأطفال يهربون أمام القادمين من الخارج والمتقدمين نحو دوجيرتى ، وكان هناك شبح لمقاتل لون بشرته بألوان بشعة قد تسلل فى صمت إلى المنطقة وأعقبه آخر وآخر ، حتى بلغ من تسللوا إلى المستنقع غير المأمون ثلاثمائة منهم ، وعندما أحاط بهم الطين اللزج المراوغ انطلقت صيحة الرجال البيض من ناحية الشرق ، ودار القتال بين الفريقين فى مياه تصل إلى منتصف الجسد ، تحت الأشجار العالية ، إلى أن خمدت صيحة الحرب وانسحب الهنود عائدين ناحية الغرب ، ولا غرابة فى أن الغابة يكسوها اللون الأحمر .

وبعد ذلك جاء العبيد السود ، ويومًا بعد يوم كانت خشخشة الأقدام المقيدة بالأغلال والقادمة من فرجينيا وكاروليتا إلى جورجيا تسمع فى تلك الأراضى الرخوة الغنية ، ويومًا بعد يوم كانت أغانى المعذبين ، وبكاء اليتامى ، ولعنات البؤساء يتردد صداها من نهر فلنت حتى نهر شيكاساواتشى ، حتى نشأت بحلول ١٨٦٠ فى دوجيرتى الغربية ربما أغنى مملكة عبودية عرفها العالم الحديث فى أى وقت ، فقد كان هناك مائة وخمسون بارونًا يتحكمون فى عمل ما يقرب من ستة آلاف زنجى ،

ويسيطرون على مزارع تضم ٩٠ فدانًا من الأرض المحروثة ، قدرت قيمتها حتى فى زمن رخص الأراضى بثلاثة ملايين دولار ، وكانت ترسل منها عشرون ألف بالة من القطن المحلوج سنويًا إلى إنجلاند ، القديمة والجديدة ، وكان الرجال الذين جاءوا إلى هناك مفلسين قد جمعوا مالاً وأصبحوا أثرياء ، وخلال عقد واحد من الزمان زاد إنتاج القطن أربعة أضعاف وزادت قيمة الأراضى ثلاثة أمثال ، لقد كانت تلك أيام العز للأغنياء الجدد ، وانتشرت بين السادة حياة الإسراف المستهتر ، فكانت العربات تجرها أربعة خيول أو ستة من الخيول المؤصلة ليذهب بها أصحابها إلى المدينة ، وكانت الضيافة المفتوحة على مصراعيها والتسلية البهيجة هى القاعدة ، وأنشئت الحدائق والمتنزهات ، وامتلأت بالزهور والكروم ، وفى وسطها كانت تقوم المساكن المنخفضة المصنوعة من جذوع الأشجار ذات القاعات الفسيحة ، والمداخل والأعمدة والمدافئ الضخمة .

ومع كل هذا كان هناك شىء كريه ، شىء مصطنع نوع من القلق المحموم واللامبالاة ، أفلم يكن كل هذا التظاهر والطنين مبنيًا على الشكوى والأنين ؟ "لقد كانت هذه الأرض صورة مصغرة من الجحيم" هكذا قال لى رجل أسمر مغضن الوجه يرتدى أسمالاً بالية ، كنا جالسين بالقرب من محل للحدادة على جانب الطريق ، وكانت وراءنا البقايا العارية لبيت أحد السادة ، " لقد رأيت زنوجًا يسقطون إعياء فى الأخدود الذى يشقه المحراث ، ولكنهم كانوا يزاحون جانبا ، ولا يتوقف المحراث لحظة واحدة ، وكان الدم يتدفق ليروى الأرض " .

والمملكة التى تقوم على أساس كهذا لابد أن تتداعى مع الوقت وتسقط ، وقد انتقل السادة إلى ماكون وأوجستا ، ولم يبق فى الأرض غير المشرفين غير المسؤولين ، وكانت النتيجة خرابا كهذا الذى أراه : أشجار بلوط ضخمة تتأرجح أغصانها ، ومساحات من العشب الأخضر والريحان وأشجار الكستناء ، كلها رثة وبرية ، وهناك بوابة قائمة وحدها حيث كان فى وقت من الأوقات مدخل لقصر ، وسندان عتيق صدئ وإلى جانبه كير متعفن وأخشاب متناثرة بين بقايا ورشة للحدادة ، ودار فخمة قديمة كثيرة الغرف والدهاليز المبعثرة بغير انتظام ، مكان داكن ومقبض للصدر ، ممتلئ الآن بأحفاد العبيد الذين كانوا يخدمون على موائده فى يوم من الأيام ، وبينما تضاءلت

أسرة السيد ولم يعد باقيًا منها غير امرأتين منفردتين ، تعيشان فى ماكون وتطعمان على بقايا أرستقراطية زائلة ، وهكذا مضينا فى طريقنا ، عبر بوابات شبحية وبيوت متساقطة عبر المزارع التى كانت مزدهرة لآل سميث وآل جاندى وآل لاجور ونجدها كلها متداعية وشبه مخربة ، حتى حيثما تجلس امرأة بيضاء وحيدة ، ومن بقايا الأيام الماضية ، فى زهو بين أميال من الزنوج ، وتركب مركبتها العتيقة إلى المدينة كل يوم .

وكانت هذه حقًا هى "مصر الولايات"(*) المزرعة الغنية التى يتدفق منها البطاطس والذرة والقطن إلى قوات الاتحاد الجائعة ذات الثياب الممزقة وهى تقاتل من أجل قضية خسرتها منذ زمن طويل قبل ١٨٦١ ، ونظرًا لحصانتها وأمنها ، أصبحت ملجأ للعائلات والثروات والعبيد ، ولكن حتى فى ذلك الوقت كان الاغتصاب القاسى للأراضى قد بدأ يُحْدث أثره فالتربة التحتية الطينية الحمراء كانت قد بدأت تظهر فوق الرمل والصلصال ، وكلما زادت القسوة فى دفع العبيد زادوا هم أيضًا إهمالا وعدم عناية بالزراعة ، وجاءت بعد ذلك الثورة المصاحبة للحرب و "التحرير" ، والحيرة التى أثارتها حركة التعمير ، والآن ماذا أصاب "مصر الولايات" وما معناها بالنسبة لخير الوطن أو شره ؟

إنها ساحة المتناقضات ومزيج غريب من الأمل والألم ، ها هنا تجلس حسناء صغيرة زرقاء العينين تخفى قدميها العاريتين ، لم يمض على زواجها غير أسبوع واحد ، وهناك فى الحقل نجد زوجها الشاب الأسمر ، يحنى قامته ليعولها ، فى مقابل ٣٠ سنتًا فى اليوم بدون حق فى الإقامة أو الطعام ، وعلى الجانب الآخر من الطريق نجد جاتسبى ، طويلاً بنى اللون ، سيدا على ألفى فدان حصل عليها بالمهارة واحتفظ بها بمشقة ، وهناك محل يديره ابنه الأسود ، محل للحدادة ، ومحلج للقطن ، وعلى مبعدة خمسة أميال توجد مدينة صغيرة يملكها ويسيطر عليها واحد من البيض القادمين من نيوإنجلاند ، وهو يملك مساحة تكاد تماثل مساحة رود أيلاند ، تضم آلاف الأفدنة ومئات العمال المعدمين السود ، وأكواخهم تبدو أفضل من أكواخ الكثيرين من أمثالهم ، والمزرعة ، التى تحوى آلات وتستخدم أسمدة ، أكثر تقدمًا من مزارع

(*) تعبير يعنى أنها منطقة غنية بالثروة الزراعية (المترجم) .

أخرى عديدة ، وإن كان مديرها يجرى مساومات متشددة فى الأجور ، وإذا حولنا وجوهنا الآن ونظرنا إلى مبعدة خمسة أميال ، نجد على حافة المدينة الصغيرة خمس بيوت للبغايا : اثنتين من السود وثلاث من البيض ، وفى أحد بيوت البغايا البيض تم القبض قبل سنتين على فتى أسود سيء الحظ ، وحكم عليه بالشنق بتهمة الاغتصاب ، وهنا أيضا يوجد السور العالى المبنى باللون الأبيض والذى يسمى بالمخزن ، وهى التسمية المحلية لسجن المنطقة ، ويقول البيض إن المكان ممتلئ دائما بالمجرمين السود ، ويقول السود إن الفتيان الملونين وحدهم هم الذين يلقى بهم فى السجن ، وليس ذلك لأنهم مذنبون بل لأن "الولاية" تحتاج إلى مجرمين حتى تستطيع أن تحصل على دخلها من عملهم بالسخرة .

والمهاجرون هم ورثة بارون العبيد فى دوجيرتى ، وعندما نواصل رحلتنا نحو الغرب ، نمر بحقول ذرة واسعة وممتدة وحدائق للخوخ والكمثرى ، ونرى على كل جانب داخل دائرة الغابة المعتمة "أرضًا لكنعان" ، وهنا وهناك نسمع قصصا عن مشاريع لكسب الأموال ، ولدت فى الأيام السريعة للتعمير ، شركات "للتحسين" ، وشركات للنبيذ ، ومطاحن ومصانع معظمها فشل ، ورثها أشخاص أجانب ، وهى أرض بديعة ، هذه الدوجيرتى ، إلى الغرب من فلنت ، والغابات مدهشة ، وقد اختفت أشجار الصنوبر الوقورة ، وهذه هى "غابات القرو" بثروتها من السنديان والخوخ وغيرها ، ولكن فوق هذه الأرض الجميلة يخيم شبح الديون ، فالتجار مدينون لتجار الجملة ، والمزارعون مدينون للتجار ، ومستأجرو الأراضى مدينون لأصحاب الزراعات ، والعمال ينحنون ويقاسون تحت عبء هذا كله ، وهنا وهناك نجد رجلاً رفع رأسه فوق هذه المياه المضطربة ، وقد مررنا عبر مزرعة مسورة لتربية الماشية ورأينا داخلها العشب والماشية التى تعيش عليه ، وبدا لنا ذلك مشهدا قريبًا إلى نفوسنا بعد الحقول التى لا نهاية لها من الذرة والقطن ، وهنا وهناك يوجد بعض أصحاب الأراضى من السود : هناك جاكسون فارع القامة ، الذى يملك مائة فدان ، وهو يقول بلهجة مطعمة بالفلسفة إنى أقول : "انظر إلى أعلى ! إذا لم تنظر إلى أعلى لن ترتفع إلى أعلى" ، وهو قد تمكن من الصعود ، ومخازن غلال كارتر الأسمر شهادة جيدة لمزارعى نيوإنجلاند ، وقد ساعده سيده ليحقق البداية ، ولكن عندما مات الرجل الأسود فى

الخريف الماضى سارع أبناء سيده على الفور للمطالبة بحقهم فى المزرعة ، وقال زميلى فى الرحلة" وسوف يحصلون عليها أيضاً هؤلاء البيض" .

وإنى أخرج من هذه الفدادين المعنى بها بشعور مريح بأن الزنوج آخذون فى التقدم ، ومع ذلك فإن الحقول تبدأ تتحول مع تقدمنا فى المسير إلى اللون الأحمر وتختفى الأشجار ، وتبدو صفوف من الأكواخ القديمة زاخرة بالمستأجرين والعمال الزراعيين متجهمين ، وحفاة ، تكسوهم القذارة فى معظم الأحيان وإن كان الزمن والتحلل يجعلان المشهد يبدو من حين لآخر كأنما رسمته يد فنان ، ويتقدم شاب أسود لتحيتنا ، إنه فى الثانية والعشرين ، وقد تزوج لتوه ، وحتى العام الماضى كان حظه طيبا فى الاستئجار ، ولكن زراعة القطن لم تنجح ، وجاء "الشريف" فاستولى على الأرض ، وباع الفتى كل ما كان يملك ، ولذا انتقل إلى هنا ، حيث الإيجار أعلى ، والأرض أضعف ، والمالك لا يتساهل ، وهو يستأجر بغلا ثمنه ٤٠ دولاراً مقابل ٢٠ دولاراً فى السنة ، لقد أصبحت هذه المزرعة ، التى يملكها الآن أجنبى ، جزءاً من مزرعة بولتون الشهيرة ، وكان يقوم بزراعتها لسنوات طويلة بعد الحرب مجموعات من المسجونين السود ، وكان السجناء السود فى ذلك الوقت متوافرين أكثر مما هم الآن ، وكانت تلك وسيلة لدفع الزنوج إلى العمل ، أما مسألة الجريمة التى ارتكبوها فلم تكن تهم كثيراً ، وهناك قصص كثيرة عن القسوة وسوء المعاملة للرجال الأحرار الذين قيدوا بالسلاسل ، ولكن سلطات المنطقة كانت تصم أذنيها حتى كادت سوق العمال الأحرار تغلق أبوابها نتيجة للهجرة الجماعية ، وعند ذلك كانوا يأخذون المساجين من المزارع . واستمر ذلك حتى دمرت إحدى أفضل المناطق فى "غابات القرو" وتحولت إلى خرابة حمراء ، لا يستطيع غير يانكى أو مهاجر أن يعتصر منها مزيدا من الدماء من المستأجرين الذين تنزل بهم لعنة الديون .

ولم يكن من المستغرب أن يتقدم نحو عربتنا "لوك بلاك" البطىء والمتردد ، ويتحدث معنا حديث اليائس ، فلماذا يكدح ؟ إن كل عام يجىء يجده أكثر غرقًا فى الدين ، ومن الغريب أن جورجيا ، هذا الملجأ الشهير للمدينين الفقراء ، تعامل نزلاءها بنفس القسوة التى كانت تعاملهم بها إنجلاند دائما ! إن الأرض الفقيرة تشكو من آلام المخاض ، وتنتج بالكاد مائة باوند من القطن فى الفدان ، بينما كانت تعطى قبل

٥٠ عامًا ثمانية أمثال هذا القدر ، ومن هذه الحصيلة الضئيلة يدفع المستأجر من الربع إلى الثلث كإيجار ، ومعظم الباقى كفائدة على الطعام والمستلزمات التى اشتراها على سبيل القرض ، وقبل ٢٠ عامًا كان الرجال السود يعملون فى ظل ذلك النظام ، أما الآن فقد تحولوا إلى عمال يومية ، ومن خلال هذا العمل يكون على العامل أن يعول زوجته ويستأجر مكانًا يقيم فيه من أجره الذى يبلغ دولارًا ونصف دولار فى الأسبوع ، والذى لا يحصل عليه إلا فى بعض أيام السنة .

وكانت مزرعة سجن بولتون تضم فى السابق المزرعة المجاورة ، وهنا كان المساجين يقيمون فى سجن الإيواء الضخم الذى مازال قائمًا ، وهو مازال مكانًا بائسا ، وحوله صفوف من الأكواخ القبيحة الحافلة بمستأجرين جهلاء ، سألتهم "كم تدفعون أجرًا لهذا المكان ؟" كانت الإجابة "لا أعرف كم الأجر ياسام؟" وأجاب سام : "كل ما نحصل عليه ، وهو مكان يدعو للاكتئاب ليس به أثاث ، ولا شىء يحجب الشمس ، وليس به بقايا من الصحبة القديمة ، لم تعد هناك غير ذكرى الكدح البشرى بالإكراه الآن ، ووقتها ، وقبل الحرب ، وهم ليسوا سعداء ، هؤلاء الرجال السود الذين نلقاهم فى كل أنحاء هذه المنطقة ، ليس هناك غير القليل من اللامبالاة واللعب اللذين اعتدنا أن نصف بهما الزنجى العامل فى المزارع ، وفى أفضل الأحوال فإن الطيبة الطبيعية مغلفة بالشكوى أو انقلبت إلى سكوت ووجوم ، ومن آن لآخر تشتعل فى غضب مقنع ولكنه ساخن ، وإننى لأتذكر رجلاً أسود كبير الحجم أحمر العينين التقينا به على جانب الطريق ، لقد عمل طوال خمسة وأربعين عاما فى هذه المزرعة ، بدأ وليس لديه شىء وحتى الآن ليس لديه شىء ، ولابد أن نذكر أنه تمكن من إرسال أربعة من أبنائه إلى المدرسة العامة ، وربما لو لم يصدر القانون الجديد بإنشاء الأسوار وسمح بزراعة المحاصيل بدون أسوار فى دوجيرتى الغربية لكان الآن يملك بعض رؤوس الماشية واستمر حاله مقبولاً ، أما والوضع كما هو ، فهو غارق فى الدين بلا أمل ، ومستاء ، ويشعر بالمرارة ، وقد استوقفنا ليسأل عن الصبى الأسود من أبناء "ألبانى" الذى قيل إن أحد رجال الشرطة أطلق عليه النار وقتله لأنه يتحدث بصوت عال فى الممشى وقال بعد ذلك ببطء : "إذا لمسنى أحد الرجال البيض ، سوف أقتله ، وإنى لا أتفاخر بذلك ولا أردد هذا القول علنًا ، ولا أمام الأطفال ولكنى أعنيه ، وقد رأيتهم

يضربون أبى بالسوط وأمى العجوز فى صفوف جمع القطن حتى سال دمها" ، وسرنا فى طريقنا .

والآن قابلنا شخصًا يدعى سيرن ، لقيناه يستريح تحت عدد من أشجار السنديان ، كان من نوع آخر تمامًا ، هل أنت سعيد ؟ يمكن أن أقول نعم ، وضحك ورمى بعض الحصى ، وقال إنه يعتقد أن العالم على حاله كما كان دائما ، لقد عمل هنا اثنتى عشرة سنة وليس لديه شىء غير بغل مرهون ، أطفال ؟ نعم ، سبعة ، ولكنهم لم يذهبوا إلى المدرسة هذه السنة ، لم يستطع شراء الكتب والملابس ، ولا يستطيع أن يفرط فى عملهم ، وهذا عدد منهم ذاهب إلى الحقول الآن ، ثلاثة أبناء كبار إلى جانب البغال ، وفتاة ضئيلة الحجم هزيلة الساقين ، هنا الجهل واللامبالاة ، والكراهية الشديدة ، والميل للانتقام ، ها هنا الأشكال المتطرفة لمشكلة الزنوج التى واجهناها ذلك اليوم ، ولم نستطع أن نحدد أيهما نفضل .

وهنا وهناك نقابل شخصيات متميزة بعيدة عن المألوف ، خرج إلينا أحدهم من منطقة أزيلت أشجارها حديثًا ، ودار دورة طويلة ليتجنب الأفاعى ، كان رجلا متقدمًا فى السن ، غائر الوجنتين ، وجهه أسمر طويل وله طابع خاص ، كان له نوع من الغرابة المكتفية بذاتها ، وله ميل للفكاهة القاسية يصعب وصفه ، ونوع من المبالاة يدعو إلى الحيرة ، قال : "كان الزنوج يحسدوننى فى ذلك المكان الآخر ، ولذا أتيت أنا وزوجتى العجوز إلى هذه القطعة من الأرض ، وقمت بقطع أشجارها بنفسى ، ولم أعمل شيئًا طوال عامين ، ولكن أعتقد أن لدى الآن محصولا" ، وبدت شجيرات القطن مرتفعة وغنية ، وأبدينا إعجابنا بها ، انحنى لنا بأدب ، ثم زادت انحناءته حتى كاد رأسه يصل إلى الأرض ، وبدأ على وجهه تجهم كاد يدفعنا إلى الشك ، ثم استمر يقول "إن البغل الذى استعين به مات فى الأسبوع الماضى" وهى كارثة فى هذه الأراضى مماثلة لنشوب حريق مدمر فى المدينة "ولكن رجلا أبيض أقرضنى بغلا آخر" ثم أضاف ، وهو ينظر فى أعيننا "أجل ، إنى على وفاق مع الأهالى البيض" وحولنا اتجاه الحديث ، سألنا : هل توجد هنا دببة ؟ أو غزلان ؟ أجاب : "ربما كان هناك فى الماضى" ، ثم أطلق سلسلة من العبارات البذيئة ، وروى بعض القصص عن صيد الحيوان فى المناطق الحافلة بالمستنقعات ، وتركناه واقفا فى مكانه فى منتصف الطريق ينظر فى اتجاهنا ، ومع ذلك يبدو أنه غير منتبه لنا .

إن منطقة "ويسل" التى تضم قطعته من الأرض ، اشترتها بعد الحرب مباشرة شركة إنجليزية باسم "شركة ديكسى للقطن والذرة" ، وعاش أصحاب الشركة عيشة مرفهة ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم ، وأغرقوا فى ذلك إلى حد دفع المزرعة إلى الإفلاس ، ولم يعد أحد يعيش فى البيت القديم الآن ، ولكن رجلاً يأتى فى كل شتاء من الشمال ويقوم بتحصيل الإيجارات المرتفعة ، ولست أدرى أى القصص مؤثرة أكثر من غيرها : هذه المساكن الخالية القديمة ، أم بيوت أبناء السادة . إن وراء هذه الأبواب البيضاء قصص حزينة ومريرة : قصص الفقر ، والنضال ، وفقد الأمل ، إن ثورة كتلك التى وقعت فى سنة ٦٣ لهى شىء مخيف ، فأولئك الذين صحوا أغنياء فى الصباح كثيراً ما ناموا فى فراش المتسولين ، لقد تفوق عليهم الشحاذون والمضاربون الأفظاظ ، وتشرد أبناءهم فى كل سبيل ، انظر هناك إلى ذلك البيت الحزين ، بما يحيط به من أكواخ وأسوار ومحاصيل مزدهرة ! إنه ليس سعيداً من الداخل ، ففى الشهر السابق كتب ابن الأب المكافح يطلب من المدينة مساعدة مالية من أبيه ، المال ! من أين يتأتى به ؟ وماذا يفعل الابن ، قام فى الليل وقتل ابنه الوليد ، وقتل زوجته ، ثم أطلق على رأسه الرصاص ، ومضى العالم فى طريقه .

وأذكر أنى مررت حول منعطف فى الطريق إلى جانب مساحة مشجرة جميلة ومجرى ماء يغنى ، وواجهنا بيت طويل منخفض ، له مساحة خارجية وأعمدة طائرة ، وباب كبير من خشب السنديان ، وحديقة عشبية عريضة تلمع تحت شمس الغروب ، ولكن إطارات النوافذ لم تكن هناك ، والأعمدة أكلها السوس ، والسقف الذى نبت فيه العفن أخذ يتساقط ، نظرت مستطلعاً من الباب الموارب ، ورأيت على الحائط المواجه للباب ، عبارة مكتوبة بحروف كانت بهيجة فى يوم من الأيام تقول "مرحبا" .

وعلى النقيض من الأوضاع فى الجزء الجنوبى الغربى من دوجيرتى الأوضاع فى الشمال الغربى ، فهو غارق فى أشجار السنديان والصنوبر ، ولكن ليس به شىء من ذلك الثراء شبه الاستوائى الذى يتسم به الجنوب الغربى ، وهنا أيضا الإشارات أقل إلى الماضى الرومانسى ، والمزيد من انتزاع الأراضى والسعى الحديث وراء المال ، والأشخاص البيض يظهرون هنا أكثر مما هناك ، والمزارعون والعمال الأجراء يحلون إلى حد ما محل الملاك الغائبين والمستأجرين الفقراء ، ولا تتسم المحاصيل بوفرة

الأراضى الغنية ولا بمظاهر الإهمال التى كثيراً ما رأيناها ، وهناك أسوار ومراع هنا وهناك ، كان الجانب الأكبر من هذه الأراضى فقيراً ، وكان خاضعا لإمرة بارونات العبيد قبل الحرب ، ومن ذلك الحين حصل عليها أقاربهم الفقراء والمهاجرون الأجانب ، والعائدات التى يحصل عليها المزارع ضئيلة إلى حد لا يترك له الكثير ليدفعه كأجور ، ومع ذلك فإنه لا يقبل أن يبيع تلك المزارع الصغيرة ، هنا التقينا الزنجى سان فورد ، لقد عمل لمدة أربعة عشر عامًا مشرفا على مزرعة لاندسون و "دفع فى شراء الأسمدة مبالغ كانت تكفى لشراء مزرعة" ولكن المالك لا يريد أن يبيع بضعة فدادين قليلة .

وهاهما اثنان من أبنائه – ولد وبنت – يقومان بنشاط بعزق الأرض فى حقول المزرعة التى يعمل بها كورليس ، وهو رجل ناعم الوجه بنى اللون ، يقيم سوراً حول المنطقة التى يربى فيها خنازير ، وكان منذ فترة يدير محلجًا ناجحًا للقطن ، ولكن "شركة زيت بذور القطن" هبطت بأسعار الحليج إلى حد يقول إنه لا يكاد يغطى مصاريفه ، وهو يشير إلى بيت قديم محترم عبر الطريق ويقول إنه بيت "باويلس" واهتممنا بالذهاب إليه ، لأن "باويلس" كان هو موسى الأسود الطويل مفتول الذراعين الذى قاد الزنوج على امتداد جيل كامل ، وكانت قيادته لهم جيدة ، كان واعظًا معمدانيًا ، وعندما مات سار وراءه ألفان من السود إلى مقبرته ، وهم الآن يقيمون صلاة تذكارية له كل سنة ، وأرملته تعيش هنا ، امرأة صغيرة الحجم حادة الملامح ، وردت بطريقة مهذبة عندما قمنا بتحيتها ، وعلى مسافة أخرى يعيش جاك ديلسون أكثر المزارعين الزنوج رخاء فى المنطقة ، ومقابلته عملية مفرحة فهو رجل كبير الحجم عريض المنكبين وسيم التقاطيع ، ذكى ومرح ، وهو يملك ستمائة وخمسين فدانًا ولديه أحد عشر مستأجراً من السود ، وبيته نظيف ومستقر فى وسط حديقة من الزهور وإلى جانبه مخزن صغير .

ومررنا بمكان يسمى "منسون" حيث تعيش امرأة ممتلئة بيضاء تقوم بتأجير الغرف وتناضل من أجل الحياة ، وهنا أيضًا الفدادين الألف والمائة التى تضمها مزرعة "سينيت" والخولى الذى يديرها رجل أسود ، وبعد ذلك يبدأ طابع المزارع فى التغير ، وكل الأراضى تقريباً يملكها يهود روس ، والمشرفون على العمال من البيض ، والأكواخ مساكن من ألواح الخشب العارى متناثرة هنا وهناك ، والإيجارات مرتفعة ، وعمال اليومية وعمال "العقود" متوافرون ، والحياة هناك كفاح شاق ، والقليلون يجدون وقتا

للكلام ، وبعد أن تعبنا من الركوب لمسافة طويلة أسعدنا أن ندخل إلى جيلونزفيل ، وهى مجموعة صامتة من مساكن المزارعين تقف عند مفترق الطرق ، وأحد محليها مغلق والآخر يديره واعظ أسود ، وهم يروون حكايات كثيرة عن أوقات ازدهار جيلونزفيل قبل أن تأتى الطرق الحديدية إلى البنى ، وأصبح هذا كله الآن مجرد ذكرى ، نسير لمسافة على الطرق ، ونقف عند المكان الذى يديره الواعظ فنجلس أمام الباب ، كان مشهداً من تلك المشاهد التى لا ينساها الإنسان بسرعة : منزل عريض منخفض صغير ، يمتد سقفه إلى الخارج ويلقى بالظل على مدخل صغير أنيق ، هناك جلسنا بعد المسيرة الطويلة فى الجو الحار ، نشرب ماء بارداً أجلس ومعى عامل الحانوت الثرثار الذى رافقنى طوال اليوم ، والمرأة السوداء المتقدمة فى السن الصامتة والتى كانت تقوم بترقيع بنطلون ولم تنبس قط بكلمة واحدة ، وتلك الصورة الناطقة بسوء الحظ التى أتت لمجرد رؤية الواعظ ، وأخيراً زوجة الواعظ الأنيقة التى لها طابع الأم ، ممتلئة ، صفراء ، ويبدو عليها الذكاء ، أجابت على اسئلتنا : "نملك أرضًا ؟ حسنًا ، هذا البيت فقط ثم أضافت بصوت خفيض "لقد سبق أن اشترينا سبعمائة فدان هناك ، ودفعنا الثمن ، "ولكنهم نصبوا علينا ، وكان المالك هو سيلز "سيلز !" ردد الرجل البائس الكلمة ، والذى كان واقفا على مقربة يستمع إلينا ، وأضاف " إنه لص" ، وقد عملت لأجله ٣٧ يوما فى هذا الربيع ودفع لى شيكات على أنه سيقبض قيمتها هذا الشهر ، ولكنه لم يدفع قيمتها أبداً ، ظل يؤجل طول الوقت ، وعند ذلك جاء الشريف فأخذ بغلتى وقمحى وأثاث بيتى ، "سألته" أثاث ؟ ولكن الأثاث معفى من الاستيلاء بحكم القانون" وقال الرجل ذو الوجه الجامد "ومع ذلك فقد أخذه ولم يمنعه من ذلك شيء" .

الفصل الثامن

البحث عن الجزة الذهبية [1]

هل رأيت أبداً حقلاً للقطن، أبيض وقد نضج فيه المحصول وجزته الذهبية تتأرجح فوق الأرض السوداء وكأنها غمامة فضية موشاة بالأخضر الداكن، والعلامات البيضاء الجريئة تتراقص وكأنها الزبد متنقلة من كارولينا إلى تكساس عبر البحر البشرى الأسود؟ لقد كنت أتصور أحياناً أنه هنا ترك الكبش المجنح "كريسومالوس" تلك الجزة التى كان جاسون ومساعدوه يسعون وراءها فى الشرق الغامض قبل ثلاثة آلاف عام ، ولاشك فى أن المرء يستطيع أن يجد تشابهاً جميلاً وليس مستبعداً بين السحر وأسنان التنين، والدم والرجال المسلحين، بين البحث عن الجزة الذهبية فى البحر الأسود فى الزمن القديم والحديث.

والآن ، تم العثور على الجزة الذهبية، ولم يتم العثور عليها فقط ، بل وتم أيضا نسجها فى المكان الذى وجدت فيه ، لأن همهمة مصانع القطن هى أحدث وأهم شىء الآن فى النيو ساوث ، على امتداد ولايتى كارولينا وجورجيا، وامتدادا حتى المكسيك ، تقوم هذه المبانى الحمراء الضخمة، عارية ومألوفة ، ومع ذلك فهى شغالة وصاخبة بحيث يصعب على المرء أن يتصور أنها تنتمى لهذه الأراضى البطيئة والناعسة ، ربما تكون قد نشأت من أسنان التنين ، وهكذا مازالت "مملكة القطن" تعيش، ومازال العالم ينحنى أمام صولجانها ، وحتى الأسواق التى تحدتها فى يوم من الأيام قد زحفت

(١) فى الأساطير الإغريقية هى الصوف الذهبى لكبش مجنح مقدس ، وقد أرسل الملك بلياس ابن شقيقه للحصول على هذه الجزة من كهف محاط بالحراس حتى يعرف ما إذا كان الفتى جديرا باعتلاء العرش، وقبل النجاح فى الحصول عليها اضطر الفتى إلى مواجهة تنين خبيث تساقطت أسنانه أثناء القتال ونبع من كل منها رجل شرس وكان عليه أن يقاتلهم جميعا وينتصر عليهم (المترجم).

واحدة بعد أخرى عبر البحار، ولكنها اتجهت ببطء وبلا حماس، ولكن بشكل مؤكد، نحو "الحزام الأسود" .

ولاشك أن هناك من سيهزون رؤوسهم هزة العارفين ويقولون لنا إن عاصمة مملكة القطن انتقلت من الحزام الأسود إلى الحزام الأبيض وأن زنوج اليوم لا ينتجون أكثر من نصف محصول القطن ، وينسى هؤلاء الناس أن محصول القطن قد تضاعف ، بل وزاد أكثر من الضعف ، منذ عصر العبودية ، وأننا حتى إذا أخذنا بمقولتهم نجد أن الزنجي مازال هو العنصر الأكبر في مملكة للقطن في مساحات أوسع من المساحات التي بني عليها الاتحاد آماله ، وبذا فإن الزنجي يشكل اليوم واحداً من الشخصيات الرئيسة في صناعة عظيمة على نطاق العالم وأن هذا في حد ذاته على ضوء الاهتمامات التاريخية يجعل من العاملين بأيديهم في حقول دولة القطن موضوعاً جديراً بالدراسة .

إننا نادراً ما ندرس أحوال الزنوج اليوم بأمانة وعناية ، ومن الأيسر كثيرا افتراض أننا نعرف كل شيء عنها ، أو لعلنا ، بعد أن وصلنا إلى نتائج في أذهاننا ، نرفض أن نتخلى عنها بالاستماع إلى الحقائق ، ومع ذلك، فما أقل ما نعرفه حقا عن هذه الملايين : عن حياتهم اليومية ورغباتهم، وعن مسراتهم وأحزانهم المنزلية، وعن عيوبهم الحقيقية ومعنى جرائمهم ! وهذا كله لا نستطيع أن نعرفه إلاّ بالاتصال الحميم مع الجماهير، وليس بالحجج التي تقدم بالجملة والتي تغطي الملايين المنفصلين في الزمان والمكان، والذين بينهم فروق كبيرة في التعليم والثقافة، ولذا أرجو أن تسمح لي سيدي القارئ بأن نحول وجوهنا اليوم إلى الحزام الأسود في جورجيا، وأن نسعى فقط إلى معرفة حالة عمال الزراعة السود في إحدى المقاطعات بها .

كان يعيش هنا في ١٨٩٠ عشرة آلاف زنجي وألفان من البيض، وأراضي هذه المنطقة خصبة، ولكن أهاليها فقراء والنغمة الرئيسة في الحزام الأسود هي الديون، ليست ديونا تجارية، بل الديون بمعنى العجز المستمر من جانب عامة السكان عن جعل الدخل يغطي المصاريف، وهذا هو الميراث المباشر الذي تلقاه الغرب من اقتصاد التبذير في ظل نظام الاستعباد، ولكنه ازداد فوصل إلى حد الأزمة بسبب "تحرير" العبيد، في ١٨٦٠ كان في مقاطعة دوجيرتي ستة آلاف عبد، تبلغ قيمتهم على الأقل

مليونين ونصف مليون من الدولارات، وقدرت مزارعها بثلاثة ملايين أى أن مجموع ثمن الممتلكات كان يبلغ خمسة ملايين ونصف المليون، وكانت قيمتها تعتمد فى المقام الأول على نظام الاستعباد، وعلى الطلب والمضاربة على أراض كانت فى وقت من الأوقات خصبة للغاية ولكنها فقدت جزءًا من خصوبتها نتيجة للزراعة المهملة والمرهقة، ثم جاءت الحرب فكان معناها انهيار مالى، وفى مكان الملايين الخمسة ونصف المليون فى ١٨٦٠ لم يكن هناك فى ١٨٧٠ غير مزارع قدرت قيمتها بأقل من مليونين ، إلى جانب هذا جاءت المنافسة فى زراعة القطن فى الأراضى الخصبة فى تكساس، وأعقب ذلك انخفاض متصل فى الأسعار المعتادة للقطن، من حوالى ١٤ سنتًا للباوند فى ١٨٦٠ حتى وصل إلى أربع سنتات فى ١٨٩٨، وكان هذا التطور المالى هو الذى أسقط الملاك فى حزام القطن فى براثن الدين ، وإذا كانت الأمور قد ساءت بالنسبة للسيد، فكيف يكون حالها مع المسود؟ .

ولم تكن المزارع فى مقاطعة دوجيرتى فى أيام العبودية مهيبة ولا أرستقراطية شأن المزارع فى فرجينيا، وكان "البيت الكبير" أصغر حجمًا ويتألف فى العادة من طابق واحد، ويقع قريبا جدا من أكواخ العبيد، وكانت هذه الأكواخ تمتد أحيانا على الجانبين على هيئة أجنحة، وتمتد أحيانا أخرى فى اتجاه واحد، مؤلفة من صفين، أو تمتد على حافة الطريق المؤدى إلى المزرعة من الطريق الرئيس، وشكل أكواخ العمال وتوزيعها فى كل أنحاء الحزام الأسود هما اليوم مثلما كانا فى أيام العبودية، والبعض يعيشون فى الأكواخ ذاتها، وآخرون يعيشون فى أكواخ أعيد بناؤها فى موقع الأكواخ القديمة، وكلها متناثرة فى مجموعات صغيرة على وجه الأرض، وتتركز حول "بيت كبير" متداع يعيش فيه أكبر المستأجرين أو وكيل المالك، ومازال الطابع العام والترتيب الأساسى لهذه المساكن بلا تغيير فى المجموع، وكان يوجد فى المقاطعة، خارج مدينة "ألبانى" التي تضم معظم الشركات، حوالى ١٥٠٠ أسرة زنجية فى ١٨٩٨، ومن بين هؤلاء جميعا، لم تكن هناك غير أسرة واحدة تشغل بيتا يتألف من سبع غرف، و ١٤ أسرة تملك بيتا من خمس غرف أو أكثر، أما الغالبية العظمى فتعيش فى بيوت تتألف من غرفة واحدة أو غرفتين .

وحجم المسكن الشعبى وترتيباته لا يعتبر مؤشرًا ظالمًا لظروفهم، فإذا دققنا فى التعرف على داخلية هذه المساكن نجد الكثير مما لا يرضينا، فعلى امتداد المساحة

نجد الأكواخ المؤلفة من غرفة واحدة تقف فى ظل "البيت الكبير"، وتبدأ الآن من الطريق المترب، وتقف سوداء كئيبة فى وسط خضرة حقول القطن، وهى فى كل الأحوال تقريبا قديمة وعارية، مبنية بألواح خشبية خشنة، وليست مدهونة ولا مسقوفة، والضوء والتهوية لا يوفرهما غير الباب الوحيد والفراغ المربع فى الحائط بشيشه الخشبى، فليس هناك زجاج، ولا رقعة أمام البيت، ولا أى تجميل فى الخارج، وفى الداخل توجد مدفأة سوداء ومدخنة، وغالبًا غير مستقرة فى موضعها بسبب العمر، وفراش أو اثنان، ومائدة، وصندوق خشبى، وقليل من المقاعد يتألف منها الأثاث، بينما يوجد من حين لآخر إعلان قديم أو صفحة جريدة لتزيين الحوائط، ومن حين لآخر قد يجد المرء كوخًا معتنىً به بشدة، به مدفأة تشتعل فيها النار مبتهجة وبابها يرحب بالطارقين، ولكن الأغلبية قذرة متهدمة، تنتشر فيها روائح الطعام والنوم، سيئة التهوية، وهى أى شىء غير أن تكون مسكنًا ملائمًا .

وقبل كل شىء، فالأكواخ مزدحمة، وقد اعتدنا أن نربط الازدحام بالمساكن فى المدن وحدها تقريبا، وذلك فى المقام الأول لأن معلوماتنا الدقيقة عن حياة الريف ضئيلة للغاية، فهنا فى مقاطعة دوجيرتى قد نجد عائلات من ثمانية أو عشرة أشخاص تشغل غرفة واحدة أو غرفتين، وفى كل عشر غرف للزنوج يوجد ٢٥ شخصا، وأسوأ ظروف السكن فى نيويورك لا يوجد بها أكثر من ٢٢ شخصا لكل عشر غرف، بطبيعة الحال فإن الغرفة الصغيرة المغلقة فى المدينة، بدون حوش، هى من جوانب كثيرة أسوأ من الغرفة الواحدة الأوسع فى الريف، ولكنها من نواح أخرى أفضل منها، إذ بها نوافذ زجاجية، ومدفأة مناسبة، وأرضية يمكن الاطمئنان إليها، والميزة الكبرى الوحيدة للفلاح الزنجى هى أنه ربما يقضى الجانب الأكبر من حياته خارج كهفه، فى الحقول المفتوحة .

وهناك أربعة أسباب أساسية لهذه المساكن البائسة: الأول، أن الاعتياد الطويل الناتج عن العبودية خصص هذه المساكن للزنوج، أما العمال البيض فتوفر لهم مساكن أفضل، وربما لهذا السبب وأمثاله يعطون عملا أفضل، والثانى، أن الزنوج وقد اعتادوا على هذه الأوضاع، لا يطالبون عادة بأوضاع أفضل، فهم لا يعرفون ماذا تعنيه المساكن الأفضل، وثالثا، أن أصحاب الأراضى كطبقة لم يدركوا بعد أن من الاستثمار

الجيد أن يرفعوا مستوى المعيشة بين العمال بوسائل بطيئة ومجزية، وأن العامل الزنجي الذي يطلب ثلاث غرف وخمسين سنتا في اليوم سيعطي عملا أكثر كفاءة ويترك ربحًا أكبر من الكادح اليائس الذي يحشر أسرته في غرفة واحدة ويعمل من أجل ثلاثين سنتا، وأخيرًا، في مثل ظروف الحياة هذه لا توجد حوافز تدفع العامل لأن يصبح مزارعا أفضل، وإذا كان طموحا، فهو ينتقل إلى المدينة أو يجرب العمل في مجال آخر، لأن الاحتمالات أمامه كمزارع مستأجر تكاد تكون ميئوسا منها، وهو إذ يقبلها بصورة مؤقتة فإنه يقبل البيت المتاح له دون اعتراض .

وفي مثل هذه المساكن يعيش الفلاحون السود، أما العائلات ففيها الصغير والكبير، هناك مستأجرون عديدون منفردون : أرامل وعزاب، وبقايا من مجموعات تحطمت، فنظام العمل وحجم المساكن كلاهما يساعد على تحطيم المجموعات الأسرية: الأطفال عندما يكبرون يذهبون للعمل مقابل عقود أو يهاجرون إلى المدن، والأخت تمضي في سبيل الخدمة، وهكذا نرى كثيرًا من العائلات لديها مجموعات كبيرة من الأطفال الصغار، وأزواجا عديدين تزوجوا حديثا، ولكننا لا نجد غير عائلات قليلة نسبيا بها أبناء وبنات بلغوا مرحلة الشباب، ولاشك في أن متوسط حجم الأسرة الزنجية قد انخفض منذ انتهاء الحرب، وذلك أساسا بسبب الضغوط الاقتصادية، وفي روسيا نجد أن أكثر من ثلث العرسان وأكثر من نصف العرائس يقل عمرهم عن العشرين، وكان هذا هو نفس الوضع بالنسبة للزنوج في الماضي، أما الآن فإن عددا قليلا للغاية من البنين وأقل من خمس البنات الزنجيات تحت سن العشرين، متزوجون، والشباب يتزوجون في عمر بين الخمسة والعشرين والخمسة والثلاثين، والفتيات بين العشرين والثلاثين، وهذا التأخير يرجع إلى صعوبة كسب ما يكفي لإعالة أسرة. وذلك يؤدي بغير شك، في الأحياء الريفية، إلى الممارسات الجنسية اللاأخلاقية، غير أن صورة هذه الممارسات نادرًا ما تكون في صورة البغاء، وهي تتخذ طابع اللاشرعية بصورة أقل مما يتصور المرء، فهي عادة تتخذ صورة الانفصال والهجر بعد تكوين مجموعة أسرية، وعدد الأفراد المنفصلين يبلغ خمسا وثلاثين في كل ألف وهو عدد كبير للغاية، وبطبيعة الحال فليس من الإنصاف مقارنة هذا الرقم بإحصاءات الطلاق، لأن الكثير من هؤلاء النساء المنفصلات هن في الواقع أرامل لو عُرفت الحقيقة، وفي حالات أخرى يكون الانفصال غير دائم، ومع ذلك، فهنا مصدر لأكبر الأخطار المعنوية، ليست

هناك دعارة، أو توجد دعارة قليلة، بين هؤلاء الزنوج، وأكثر من ثلاثة أرباع الأسر - كما بيَّن بحث اعتمد على المرور من بيت إلى آخر - تستحق أن توصف بأنها أسر من أشخاص محترمين لديهم قدر كبير من التقدير لعفة المرأة، ولاشك فى أن أفكار الجمهور لا تناسب "نيوإنجلاند" فهناك الكثير من العادات والأفكار المتساهلة، ولكن معدل اللاشرعية هو بلا ريب أقل منه فى النمسا أو إيطاليا، والنساء كطبقة قليلات المطالب، ونقطة السوء فى العلاقات الجنسية هى سهولة الزواج وسهولة الانفصال، وليس هذا تطوراً مفاجئاً، ولا هو ثمرة "التحرير"، وإنما هو ميراث من العبودية، ففى تلك الأيام كان سام، بموافقة سيده، "يقيم علاقة" مع ميرى، ولم يكن من الضرورى إقامة احتفال، وفى الحياة المزدحمة فى المزارع الكبرى فى الحزام الأسود الاحتفال فى العادة يستغنى عنه، وإذا احتاج السيد عمل سام فى مزرعة أخرى أو فى جزء آخر من نفس المزرعة، أو إذا خطر له أن يبيع العبد، تنتهى حياة سام الزوجية مع ميرى على غير انتظار، ثم يكون من مصلحة السيد بعد ذلك أن يدفع كلا منهما ليكون له زميل حياة آخر، وهذه العادة المنتشرة والتى استمرت قرنين من الزمان، لم يتم القضاء عليها فى ثلاثين عاماً، واليوم فإن حفيد سام "يقيم علاقة" مع امرأة بدون ترخيص أو احتفال، وهما يقيمان معا باحترام ونزاهة، ويكونان لكل الأغراض والمعاملات رجلا وزوجة، وفى بعض الأحيان لا تنتهى هذه الارتباطات إلاّ بالموت، ولكن يحدث فى أحيان كثيرة أن تؤدى المنازعات العائلية، أو العين الزائغة، أو وجود حبيب منافس، أو على الأغلب خوض معركة ميئوس منها لإعالة الأسرة، إلى الانفصال، وتكون نتيجة ذلك انهيار العائلة، وقد بذلت الكنيسة الزنجية جهدا كبيرا للتخلى عن هذه الممارسة، والآن يقوم القس بعقد الزيجات فى معظم الحالات، ومع ذلك، مازال الشر محتفظاً بجذوره، ولن يقضى عليه غير الارتفاع العام بمستوى المعيشة .

وإذا نظرنا الآن إلى السكان السود فى المقاطعة فى مجموعهم،لا نخالف الإنصاف إذا وصفناهم بأنهم فقراء وغير متعلمين، ربما يشكل الميسورون منهم وأفضل العمال عشرة فى المائة، فى حين أن تسعة فى المائة على الأقل شريرون وسيئون، أما الباقى، وهم أكثر من ثمانين فى المائة، فهم فقراء وجهلة، وأمناء عموما وحسنو النية، يتخبطون فى مدارج الحياة، بلا هدف إلى حد ما، وبقدر من التحلل الجنسى ولكنه بدرجة غير كبيرة، ومثل هذه الخطوط الفاصلة بين الفئات ليست ثابتة

بأى حال، ويمكن أن نقول إنها تختلف باختلاف سعر القطن، وليس من السهل التعبير عن درجة الجهل، فنستطيع مثلا أن نقول إن ما يقرب من ثلثيهم لا يقرأون ولا يكتبون، ولكن ذلك لا يعبر عن الحقيقة إلاّ تعبيرا جزئيًا، وهم يجهلون العالم المحيط بهم، ويجهلون التنظيم الاقتصادى الحديث، ويجهلون دور الحكومة، وقيمة الفرد وقدراته، ويجهلون تقريبًا كل تلك الأشياء التى حرصت العبودية، فى الدفاع عن نفسها، على عدم معرفتهم بها، فالكثير مما يستوعبه الطفل الأبيض من بيئته الاجتماعية الأولى تعتبر مشاكل محيرة للصبى الأسود بعد أن يتقدم فى العمر، إن أمريكا ليست مكانًا للفرص لكل أبنائها .

ومن السهل أن نفقد طريقنا عندما ندخل فى التفاصيل محاولين إدراك الوضع الحقيقى لهذه الفئة الكبيرة من البشر، وكثيرا ما ننسى أن كل وحدة فى هذا الجمهور هى نفس بشرية نابضة بالحياة، قد تكون نفسًا جاهلة، والفقر يقعدها، سوداء ومضطربة فى الحركة والفكر، ومع ذلك فهى تحب وتكره، وتكدح وتتعب، وتضحك وتبكى بدموع غزيرة، وتنظر برغبة غامضة ومستريبة إلى الأفق المظلم لحياتها، وهى تمثل هذا كله، وهى فى هذا شبيهة بك وبى، إن هؤلاء الآلاف من السود ليسوا فى الحقيقة كسالى، وإنما هم يائسون وغير مهتمين، وهم مصرون على كسر رتابة الكدح بإلقاء نظرة خاطفة على عالم المدينة العظيم فى أيام السبت، ولديهم المتسكعون والأشرار من بينهم، ولكن جموعهم الأساسية تعمل بلا كلل وبإخلاص من أجل عائد، وفى ظل ظروف لن تستدعى جهدا تطوعيًا أكبر من أى طبقة عاملة حديثة أخرى، وأكثر من ٨٨ فى المائة منهم – رجالا ونساء وأطفالا – يشتغلون بالزراعة، بل إن هذه تكاد تكون صناعتهم الوحيدة، ومعظم الأطفال لا يذهبون إلى المدارس إلاّ بعد "جنى المحصول"، وقليلون هم الذين يستمرون فى الدراسة بعد أن يبدأ العمل فى الربيع، وهنا نجد عمل الأطفال فى بعض من أسوأ صوره، لأنه يشجع الجهل ويحول دون التطور الجسدى ويفضى إلى التقزم، وبين الرجال الكبار ليس هناك غير تنوع محدود فى العمل : ١٣٠٠ مزارع ، ومائتا عامل ومعاون إلخ، بما فى ذلك ٢٤ من أصحاب الحرف ، و ١٠ تجار و ٢١ واعظا، و ٤ معلمين، ويبلغ ضيق الحياة هذا ذروته بين النساء : ١٣٥٠ منهن عاملات زراعيات، و ١٠٠ من الخادمات والغسالات، ولا يبقى غير ٦٥ ربة بيت، وثمانى معلمات و ست خياطات .

وبين هؤلاء الناس ليست هناك طبقة خالية اليد من العمل، ونحن غالبًا ما ننسى أن أكثر من نصف الشبان والكبار فى الولايات المتحدة ليسوا فى عالم كسب الدخل، وإنما هم يصنعون بيوتا، أو يتعرفون على العالم، أو يستريحون بعد حرارة الكدح، أما هنا فإن ٦٩ فى المائة يكدحون، وليس هناك أحد لديه وقت الفراغ اللازم لتحويل الكوخ العارى والمقبض إلى منزل، وليس هناك كبار متقدمون فى السن يجلسون إلى جانب المدفأة ويسلمون إلى أبنائهم تراث الماضى، وليس هناك غير القليل من الطفولة اللاهية السعيدة والشباب الحالم، والرتابة الكئيبة للكدح اليومى لا يكسرها إلاّ متعة رحلة يوم السبت اللاهية إلى المدينة . والكدح، شأن كل الكدح فى الزراعة . رتيب، ولا يوجد هنا غير القليل من الآلات وعدد محدود من الأدوات لتخفيف عبئها الثقيل، ولكن مع هذا كله فإن العمل يجرى فى الهواء الطلق النظيف، وذلك شيء له قيمته عندما يكون فيه الهواء الطلق نادراً .

والأرض بوجه عام مازالت خصبة، بالرغم من إساءة معاملتها لفترات طويلة، وخلال تسعة أشهر أو عشرة على التوالى ستعطى المحاصيل إذا طُلب منها: الخضر البستانية فى أبريل، والحبوب فى مايو، والفاكهة فى يونيو ويوليو، والدريس فى أغسطس، والبطاطا الحلوة فى سبتمبر، والقطن من هذا الموعد حتى وقت الكريسماس، ومع ذلك فإن ثلثى الأرض لا تعطى غير محصول واحد، وذلك يترك الكادحين غارقين فى الديون، ولماذا الوضع كذلك؟ .

توجد على مقربة على طريق "بيسان" حيث تقع على جانبى الحقول المسطحة غابات سنديان ضخمة، مزرعة كانت فى الماضى تشغل عدة آلاف من الأفدنة، هنا وهناك ووراء الغابة الكبرى، هنا كان ١٣٠٠ إنسان يطيعون رجلا واحداً كانوا يطيعونه جسدا، ويخضعون له روحًا إلى حد كبير، ومازال هناك واحد منهم يعيش هناك – رجل قصير ممتلئ القامة وجهه البنى اللون معروق ومنسحب، وشعره المجعد رمادى وأبيض، والمحاصيل؟ تكفى بالكاد، هكذا قال. تكفى بالكاد، الأمور تسير ؟ لا، الأمور لا تسير على الإطلاق، وسميث من ألبانى "يساعده"، وإيجاره يبلغ ٨٠٠ باوند من القطن. وبذلك لا يبقى له شيء، ولماذا لم يشتر أرضًا؟ إن شراء الأرض يحتاج إلى مال، وهو يتركنا ويمضى، لقد أصبح حراً ! وأفضل شيء فى وسط الدمار الأسود

الذى نتج عن الحرب، وبين ثروات السادة التى تبددت، والآمال المحبطة للأمهات والزوجات، وسقوط إمبراطورية كاملة، كان الشيء الجميل الوحيد بين كل هذا هو الرجل الأسود الذى نال حريته، والذى ألقى بالفأس لأن العالم أطلق عليه وصف الحرية، ماذا تعنى هذه الحرية الجوفاء ؟ إنها لا تعنى سنتًا واحدًا من المال، ولا بوصة من الأرض، ولا حفنة من الطعام بل ولا ملكية الأسمال التى يضعها على ظهره، إنه حر ! فى يوم السبت، مرة أو مرتين فى الشهر، كان السيد القديم، قبل الحرب، يقدم خبزًا ولحم الخنزير للزنوج التابعين له، وبعد أن انقضت الفرحة الأولى بالحرية ، وبدأ الزنجى المتحرر يدرك ألا حول له ولا قوة، عاد مرة أخرى وحمل الفأس، ومازال سيده القديم يعطيه الخبز ولحم الخنزير، وقد اختلف الشكل القانونى للخدمة نظريًا اختلافًا كبيرًا، أما فى الواقع فإن العمل الإلزامى أو "المزارعة" قد استبدل بالكدح اليومى فى مجموعات، وأصبح العبد بالتدريج عاملاً أو مستأجرًا بالحصص يوميا، ولكنه عامل بدون أجر محدد فى الواقع .

واستمر سعر القطن فى الهبوط، وبالتدريج هجر ملاك الأراضى مزارعهم، وبدأت سيادة التجار، وتجار الحزام الأسود يمثلون مؤسسة غريبة فهم يقومون جزئيًا بدور البنك، وجزئيًا بدور مالك الأرض، وجزئيًا بدور المقاول، وجزئيًا بدور الحاكم المستبد، وقد انتقل الآن متجره، الذى كان يقف عادة عند مفترق الطرق ويصبح مركزا لسوق تنعقد كل أسبوع، انتقل الآن إلى المدينة، وإلى هناك يتبعه المستأجر الزنجى، والتاجر يحتفظ بكل شيء : الملابس والأحذية، والبن والسكر، ولحم الخنزير والدقيق، والسلع المعلبة والمجففة، والفؤوس والمحاريث، والتقاوى والأسمدة وما لا يتوافر لديه يستطيع أن يعطيك أمرا للحصول عليه من المخزن الآخر الموجود عبر الطريق، هنا إذن يأتى المستأجر، "سام سكوت"، بعد أن يكون قد تعاقد مع وكيل أحد ملاك الأراضى الغائبين على استئجار أربعين فدانًا من الأرض، وهو يضغط على قبعته بعصبية بانتظار أن ينتهى التاجر من ثرثرته الصباحية مع الكولونيل ساندرز، ثم يصيح "حسنًا يا سام، ماذا تريد؟" إن سام يريد منه أن يزوده باحتياجاته : أى أن يقدم له الطعام والملابس اللازمة لمدة سنة، وربما يعطيه التقاوى والأدوات إلى حين جنى المحصول وبيعه، وإذا بدا سام خاضعًا مطيعًا، فإنه يذهب مع التاجر إلى أحد المحامين، ويعقد سام رهنًا

على بغله وعربته فى مقابل التقاوى والطعام الذى يكفى لمدة أسبوع، وبمجرد ظهور أوراق القطن الخضراء فوق الأرض، يعقد رهنًا آخر على "المحصول"، وفى كل يوم سبت، أو على فترات أطول، يذهب سام إلى التاجر ليحصل على "التموين"، فالأسرة المؤلفة من خمسة أفراد تحصل عادة على ما يقرب من ٣٠ باوندا من دهن الخنزير وبضعة أقداح من دقيق الذرة فى الشهر، ويجب إلى جانب ذلك تزويده بالملابس والأحذية، وإذا مرض سام أو أحد أفراد أسرته فإنه يستطيع أن يلجأ إلى الصيدلى والطبيب، وإذا احتاج البغل إلى حدوة يستطيع أن يحصل على أمر للحداد، إلخ، وإذا كان سام من الجادين فى عملهم ومحصوله يبدو واعداً، فإنه يلقى فى العادة تشجيعًا على شراء المزيد : سكر، وملابس أخرى، وربما عربة. ولكن نادرا ما يشجعه أحد على الادخار، وعندما ارتفع ثمن القطن إلى عشر سنتات فى الخريف الماضى، باع تجار مقاطعة دوجيرتى الأذكياء ألف عربة فى موسم واحد، معظمها لرجال سود .

وقد يبدو أن الضمان المقدم لهذه المعاملات - رهن المحصول والماشية - ضئيل فى أول الأمر، والواقع أن التجار يروون كثيراً من الحكايات عن الغش والخداع، عن القمح الذى يجمع فى الليل، والبغال التى تختفى، والمستأجرين الذين يفرون سراً، ولكن فى المجموع فإن تاجر الحزام الأسود هو أكثر الأشخاص ثراء فى المنطقة. فهو يجدل قيود القانون حول المستأجر ببراعة بحيث - غالبا - يضطر الرجل الأسود للاختيار بين الإفلاس والجريمة، وهو يسلم كل ما ينص عليه العقد، ولا يستطيع أن يمس محصوله المرهون الذى يضعه القانون بكامله تقريبا تحت سيطرة مالك الأرض والتاجر، وأثناء نمو المحصول يراقبه التاجر بعين الصقر، وعندما يكون صالحًا للتسويق يضع يده عليه، ويبيعه، ويدفع لمالك الأرض إيجاره، ويخصم فاتورته لما قدمه من احتياجات، فإذا بقى شيء كما يحدث أحيانا، فهو يسلمه للقن الأسود من أجل الاحتفال بعيد الكريسماس.

والنتيجة المباشرة لذلك هى وجود نظام كامل لزراعة القطن مع استمرار إفلاس المستأجرين، والعملة المتداولة فى الحزام الأسود هى القطن، فهو محصول يمكن بيعه فى أى وقت مقابل نقود حاضرة، وعادة لا يتعرض لتقلبات سنوية كبيرة فى السعر، وهو محصول يعرف الزنوج كيف يزرعونه، ولذا فإن صاحب الأرض يطلب إيجاره

قطنًا، والتاجر لا يقبل الرهن على أى محصول آخر، ومن ثم فلا جدوى من أن نطلب من المستأجر الأسود أن ينوع محاصيله فهو لا يقدر على ذلك فى ظل النظام القائم، بالإضافة إلى أن النظام يرمى إلى إفلاس المستأجر، وإنى لأذكر أنى قابلت مرة عربة صغيرة يجرها بغل واحد على طريق النهر، وكان شاب أسود يجلس فى مقعد القيادة فاتر الهمة، واضعًا كوعيه على ركبتيه، وتجلس إلى جانبه زوجته داكنة الوجه، صامتة رابطة الجأش .

صاح سائقى – وله طريقة غير مهذبة فى الحديث إلى هؤلاء الناس، وإن كان يبدو أنهم معتادون عليها – قال : "ماذا معكم؟"

أجاب الرجل وهو يتوقف : "لحم ودقيق"، وكانا يضعان اللحم بلا غطاء فى قاع العربة قطعة كبيرة نحيلة من خنزير سمين مغطاة بالملح، وكان الدقيق فى شوال صغير أبيض.

– كم دفعت ثمنًا لهذا اللحم؟

– عشر سنتات للباوند وكان فى الوسع شراؤه بست أو سبع سنتات إذا دفع الثمن نقدا.

– والدقيق؟

– دولاران، والسعر هو دولار واحد وعشر سنتات نقدا فى المدينة، وهاهنا رجل يدفع خمسه دولارات لسلع كان يستطيع أن يشتريها بثلاث دولارات نقدا، وزيد عليه الثمن بمقدار دولار أو دولار ونصف.

ولكن الغلطة ليست بكاملها غلطته، فقد بدأ المزارع الزنجى عمله مغبونًا ، بدأ مدينًا وهذا أمر لم يكن له فيه خيار، ولكنها جريمة هذه الأمة التى مازالت تتخبط فى مآسى "التعمير" وفترات حربها الأسبانية، ومغامرات الفلبين المحزنة، فما أن يبدأ المرء فى الاستدانة، حتى يصبح من الصعب على جنس بكامله أن يخرج من وحدته.

فى سنة انخفاض سعر القطن– ١٨٩٨ من بين ثلاثمائة أسرة للمستأجرين، انتهى الأمر بـ ١٧٥ أسرة من عمل ذلك العام مدينة بمبلغ وصل إلى ١٤ ألف دولار،

خمسون أسرة لم تحصل على شيء والخمس والسبعون الباقية حصلت على ربح إجمالي ١٦٠٠ دولار، وربما بلغت المديونية الصافية للأسر السوداء من المستأجرين في المقاطعة بكاملها ٦٠ ألف دولار على الأقل، .وفي السنوات الأكثر رخاء يكون الوضع أفضل بكثير، ولكن في المتوسط تنتهي أغلبية أسر المستأجرين إما بإيراد مساو للمصاريف أو مدينة، بمعنى أنها تعمل مقابل الإقامة والملابس، ومثل هذا التنظيم الاقتصادي خاطئ من أساسه، وعلى من يقع اللوم ؟ .

إن الأسباب الكامنة وراء هذا الوضع معقدة ولكن يمكن فهمها، وأهمها- بعيدا عن عدم اهتمام الأمة بترك العبيد يبدأون حياتهم بلا شيء - الرأى المنتشر بين التجار وأصحاب الأعمال في الحزام الأسود ومؤداه أن عبودية المديونية هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يظل بها الزنجي يعمل، ولاشك في أنه كان هناك قدر من الضغط لازم في بداية نظام العمل الحر حتى يستمر الكسالى وفاترو الهمة في العمل. وحتى اليوم فإن جموع العمال الزنوج يحتاجون إلى متابعة أدق مما يحتاجها عمال الشمال، ولكن وراء هذا الرأى الأمين والمنتشر يجد الغش والخداع للعمال الجهلة فرصة جيدة للتخفي، ويجب أن يضاف إلى هذا كله حقيقة واضحة هي أن الانحدار من أسلاف من العبيد ونظام الكدح الذي لم يتوقف، لم يؤد إلى تحسين كفاءة عامة العمال السود أو تحسين مشاعرهم، ثم إن هذا ليس أمراً خاصاً بسامبو، بل إن له تاريخاً مماثلاً بالنسبة لجون وهانز، لجاك وبات، وكل الفقراء المطحونين، وهذا هو وضع عامة الزنوج في الحزام الأسود اليوم، وهم يفكرون في هذا الوضع، والنتيجة الحتمية لهذا التفكير هي الجريمة، ونوع رخيص وخطر من الاشتراكية. وإني أرى الآن ذلك الرجل الأسود ذا الثياب الممزقة، يجلس فوق كتلة من الخشب، يبرى عصاة بلا هدف، وقد همس لي، بهمس أجيال عديدة قائلاً : "الرجل الأبيض يجلس طول السنة، والزنجي يعمل نهاراً وليلاً وينتج المحاصيل، والزنجي لا يكاد يحصل على الخبز واللحم، والرجل الأبيض الجالس بلا عمل يحصل على كل شيء، وهذه خطيئة" وماذا تفعل الطبقات الأفضل حالاً من الزنوج من أجل تحسين وضعها؟ واحداً من أمرين: إذا كان هناك سبيل فإنهم يشترون الأرض، فإذا لم يكن فإنهم يهاجرون إلى المدينة، وكما كان الحال قبل عدة قرون، لم يكن من السهل على القن أن يهرب إلى الحرية وحياة المدينة، والأمر كذلك

حتى الآن حيث توضع عقبات فى طريق العمال المعدمين فى المقاطعات، وفى مناطق كثيرة من كل ولايات الخليج - وخاصة المسيسيبى ولويزيانا وأركنساس - مازال الزنوج العاملون فى المزارع فى المناطق السوداء يعملون بالسخرة وبدون أجر تقريبا، ويصدق ذلك على الأخص فى المناطق التى يتألف المزارعون فيها من الطبقة الأشد جهلاً بين البيض الفقراء، وحيث يكون الزنوج خارج نطاق المدارس والتفاعل مع إخوانهم المتقدمين، وإذا حاول ذلك الزنجى الهرب، فإن "الشريف" الذى يختاره الناخبون البيض، يمكن فى العادة الاعتماد عليه فى القبض على الهارب، وإعادته، وعدم توجيه أية أسئلة وإذا هرب إلى مقاطعة أخرى فإن اتهامًا بسرقة صغيرة - يمكن إثباته بسهولة - يمكن الاعتماد عليه فى ضمان عودته، وإذا تمسك شخص ما على غير العادة بإجراء محاكمة، فإن شهادة الجيران يرجح أن تجعل الحكم عليه أمرا مؤكدا، وبالتالى يستطيع السيد أن يشترى بسهولة ما يحتاج إليه من أيد عاملة، وهذا النظام مستحيل فى الأجزاء الأكثر تحضراً فى الجنوب، أو بالقرب من المدن والبلدات الكبيرة، ولكن فى تلك المساحات الشاسعة من الأراضى التى لا يصل إليها التلغراف أو الصحف، فإن روح "التعديل الثالث عشر" تُكسر بشكل محزن (*) (وهذا يمثل حضيض الأعماق الاقتصادية التى يصل إليها الفلاح الأمريكى الأسود. وعندما نجرى دراسة لظهور وأوضاع الزنجى المالك الحر يجب أن نتتبع تحركه الاقتصادى وخروجه من هذه العبودية الحديثة) .

وحتى فى المناطق الأفضل نظاما فى الجنوب، فإن الانتقال الحر للعامل الزراعى تحول دونه قوانين وكلاء الهجرة، وقد نشرت وكالة "أسوشيتدبرس" على العالم مؤخراً خبر القبض على شاب أبيض فى جورجيا الجنوبية يمثل "شركة الأطلنطى للإمدادات البحرية" وهو يحرض بعض العمال على الخروج من مزرعة السيد جون جرير والعمل لديه، والجريمة التى اعتقل هذا الشاب بشأنها تفرض غرامة ٥٠٠ دولار عن كل مقاطعة يسعى فيها وكيل الأعمال هذا لجمع الأيدى العاملة من أجل العمل خارج

(*) ينص التعديل الثالث عشر للدستور الأمريكى على أنه "يحظر الرق أو العمل بالإكراه فى الولايات المتحدة أو فى أى منطقة خاضعة لسلطانها إلاّ كعقاب عن جريمة توقع على مقترفها بعد إدانته وفقًا للقانون (المترجم) .

الولاية، ومن ثم فإن جهل الزنجي بسوق العمل خارج المنطقة القريبة منه يزيد ولا ينقص بسبب القوانين السائدة فى كل ولايات الجنوب تقريبا.

وشبيه بهذه التدابير، ذلك القانون غير المكتوب بشأن الأحياء الخلفية والمدن الصغيرة فى الجنوب، ومؤداه أنه يجب أن يحصل كل الزنوج غير المعروفين لعامة أفراد المجتمع على تزكية من بعض البيض، وهذا فى الواقع إحياء للفكرة الرومانية القديمة، فكرة الكفيل الذى يوضع الشخص الذى تحرر حديثًا تحت حمايته، وقد كان هذا النظام مفيدا للزنوج فى حالات كثيرة، فتحت حماية وتوجيه أسرة السيد القديم، أو غيره من الأصدقاء البيض، كان الرجل الذى اكتسب حريته يتحسن وضعه من حيث الثروة والأخلاق، ولكن نفس النظام أسفر فى حالات أخرى عن رفض مجتمعات بكاملها الاعتراف بحق الزنجي فى تغيير مسكنه أو أن يسيطر على مصيره، والأسود الغريب فى مقاطعة بيكر بولاية جورجيا مثلاً يمكن إيقافه فى أى مكان على الطريق العام وأن يطلب منه توضيح ماذا يعمل لأى شخص أبيض يستوقفه ويسأله، وإذا لم يقدم إجابة مناسبة، أو بدا عليه أنه يتمسك باستقلاله فإنه يتعرض للإيقاف أو للطرد بلا محاكمة.

وهكذا تقضى فى مناطق الريف فى الجنوب قواعد القانون المكتوب أو غير المكتوب، والعقبات الموضوعة فى سبيل هجرة العمال، ونظام سيادة البيض، قائم فى مساحات شاسعة، وإلى جانب ذلك فإن احتمالات القمع خارج نطاق القانون، والاستبداد غير المشروع، تزيد فى الريف كثيراً عنها فى المدن، وتكاد تكون كل الاضطرابات العنصرية الخطيرة التى وقعت فى العقد الأخير قد نشأت بسبب منازعات فى الريف بين السيد والمسود كما حدث مثلاً فى قضية سام هوز، ونتيجة لهذا الوضع، نشأ أولاً الحزام الأسود، وثانيًا الهجرة إلى المدن، فالحزام الأسود لم يكن، كما يتصور الكثيرون، حركة للانتقال إلى الحقول للعمل فى ظل ظروف مناخية أفضل بل كان فى المقام الأول محاولة لحماية النفس تجمع للسكان السود من أجل الدفاع المتبادل من أجل ضمان السلام والهدوء اللازمين للتقدم الاقتصادى، وقد حدث هذا التحرك فيما بين "التحرر" و ١٨٨٠، ولم يحقق النتائج المرجوة إلاّ بصورة جزئية، وكان الاندفاع إلى المدن منذ ١٨٨٠ هو التحرك المقابل من جانب الأشخاص الذين خاب أملهم فى العثور على فرصة اقتصادية فى الحزام الأسود.

ويستطيع المرء أن يرى بسهولة فى مقاطعة دوجيرتى - جورجيا، نتائج هذه التجربة فى التجمع من أجل الحماية، ولم يولد فى تلك المقاطعة غير عشرة فى المائة من السكان الكبار، ومع ذلك فإن السود يزيد عددهم عن البيض بنسبة ٤ أو ٥ إلى ١، ولاشك أن هناك قدراً من الأمن يتحقق للسود بمجرد كثرة عددهم أى التحرر الشخصى من المعاملة التعسفية، مما يدفع مئات العمال إلى التمسك بدوجيرتى على الرغم من انخفاض الأجور والضعف الاقتصادى، ولكن ثمة تغييرا فى الطريق، وببطء ولكن بخطى ثابتة حيث ينتقل العمال الزراعيون هنا نحو المدينة، ويتركون وراءهم الفدادين الفسيحة خالية، فلماذا يحدث ذلك؟ لماذا لا يصبح الزنوج ملاكًا للأراضى، ويبنون فئة فلاحية مالكة سوداء، وقد كان ذلك خلال جيل أو أكثر هو حلم المحسنين والسياسيين؟ لرجل الاجتماع الذى يعتمد على الرؤية من نافذة السيارة، ولمن يسعى إلى فهم الجنوب ومعرفته من خلال تخصيص ساعات فراغ قليلة أثناء رحلة فى أيام الإجازة لفض مغاليق معضلة استمرت عدة قرون ، ولهذا الشخص كثيراً ما يبدو أن كل المشكلة المتعلقة بالعامل الزراعى الأسود يمكن تلخيصها فى العبارة التى استخدمتها العمة أوفيليا "اللامبالاة!" فقد رأوا مراراً وتكراراً مشاهد مثل هذا المشهد الذى صادفته فى الصيف الماضى، كنا نسير على الطريق الرئيس إلى المدينة مع اقتراب نهاية يوم طويل حار، ومر بنا اثنان من الشباب السود فى عربة يجرها بغل، تحمل كمية غير صغيرة من أكواز الذرة السائبة، كان أحد الشابين يقود العربة، منحنيًا إلى الأمام وواضعًا كوعيه على ركبتيه ؛ صورة ناطقة بعدم الاهتمام وانعدام المسؤولية، وكان الآخر مستغرقًا فى النوم فى قاع العربة، وأثناء مرورنا لاحظنا أحد أكواز الذرة يسقط من العربة، لم يره أحد منهما، وبعد مسافة أخرى رأينا كوزا آخر على الأرض، وفى المسافة التى قطعها ذلك البغل الزاحف إلى المدينة أحصينا ٢٦ كوزا من الذرة، غير مهتمين ؟ نعم، لقد كان ذلك صورة كاملة من عدم الاهتمام، ومع ذلك فلنتابع هذين الصبيين: إنهما ليسا من الكسالى، ففى صباح غد سيستيقظان مع الشمس، ويعملان بجد، وهما مقبلان على العمل، ليست لديهما أساليب الأنانية السافرة والسعى للحصول على المال بأية وسيلة، بل إنهما لا يحترمان النقود فى حد ذاتها، فهما يتسكعان أمامك ويعملان من وراء ظهرك بأمانة وطيبة، قد يسرقان بطيخة ولكنهما يعيدان إليك محفظتك التى فقدتها بكل ما فيها، وعيبهما الرئيس كعمال هو افتقارهما للحافز إلى العمل بما

يتجاوز متعة التحرك البدنى، وهما لا يباليان، لأنهما وجدا أن المبالاة ليس لها عائد، وهما لا يعنيان بالعمل لأن غير المعنيين من معارفهم يحصلون على نفس النتيجة التى يحصل عليها من يبذلون جهدهم، وفوق كل شىء، فهما لا يريان سببًا يدفعهما لبذل جهد غير معتاد حتى تصبح أرض الرجل الأبيض أحسن حالا، أو لتسمين بغله، أو للحفاظ على ما تنتجه أرضه من ذرة، ومن ناحية أخرى يقول مالك الأرض الأبيض إن أية محاولة لتحسين أحوال هؤلاء العمال وزيادة مسؤوليتهم أو رفع أجورهم، أو إعطائهم مساكن أفضل، أو أرضا تكون لهم، سوف ينتهى بها الأمر إلى الفشل، وهو يدعو ضيفه الشمالى لرؤية الأراضى الممزقة والمهملة، والمساكن المهدمة، والتربة التى فقدت خصوبتها والفدادين المرهونة، ويقول "هذه هى حرية الزنوج! ".

ويتصادف أن يكون لدى السيد والمسود حجج كافية تؤيد وجهة نظرهما بحيث يصبح من الصعب أن يفهم كل منهما الآخر، فالزنجى يرى فى الرجل الأبيض كل المساوئ والشرور، فهو إذا كان فقيراً فلأن الرجل البيض يستولى على ثمرة كدحه، وإذا كان جاهلاً فلأن الرجل الأبيض لا يترك له الوقت ولا وسائل التعلم، بل وإذا صادفه أى قدر من سوء الحظ فذلك بسبب تدبير خفى من جانب "أولئك البيض"، ومن ناحية أخرى فإن السادة وأبنائهم لم يتمكنوا فى أى وقت من رؤية السبب الذى يدعو الزنوج، بدلاً من الاكتفاء بأن يكونوا عمال مياومة مقابل الحصول على الخبز والملابس، تتملكهم رغبة سخيفة فى الصعود فى العالم، ولماذا هم متجهمون ومتنمرون ومهملون ؟، فى حين كان آباؤهم سعداء ومخلصين، قال أحد التجار المتحيرين من ألبانى لزبونه الأسود "أنتم أيها الزنوج أحوالكم أفضل من أحوالى"، فأجابه "أجل، وكذلك خنازيرك".

ومن ثم، فإذا جعلنا نقطة بدايتنا العامل الزراعى المتذمر واللامبالى، فلنبحث ماذا فعل آلاف السود فى دوجيرتى لتحسين أحوالهم والسعى لتحقيق مثلهم الأعلى، وماذا يكون هذا المثل، إن الصراع الاجتماعى يتجلى أولاً فى تقدم الطبقات الاقتصادية، ثم الطبقات الاجتماعية، بين مجموعة متجانسة من الناس، واليوم تتمايز الطبقات الاقتصادية بين هؤلاء السود على النحو التالى.

هناك "عُشر غارق" من المزارعين، بعضهم معدمون، وأربعون فى المائة يغطون نفقاتهم، و٣٩ فى المائة يكادون يغطون نفقاتهم ويعملون مقابل أجر، يبقى ٥ فى المائة

ممن يستـأجـرون بالنقـود و ٦ فى المائة من الملاك الأحرار "العشـرة العليا" فى البلد، والعُشر الأول لا يملك أى رأس مـال، حتى بالمعنى المحدود للطعام أو المال اللازم للوفاء باحتياجاتهم من وقت غرس البذور حتى جنى المحصول، وكل ما يقدمونه هو عملهم، ويقـدم الملاك الأرض والبذور والأدوات والمسكـن، وفى آخر السنة يحصل العـامل على مـا بين الثلث والنصف من المحـصول، ولكنه يدفـع من حصـتـه الأصل والفوائد للطعام والملابس التى وفرت له خلال السنة، وهكذا نجد عاملاً بلا رأس مال وبلا أجر، وصاحب عـمل رأس مـاله فى الأسـاس هو أجـر العـاملين لديه، وذلك ترتيب غـيـر سليـم، سـواء للمـؤجر أو المستـأجر، وهـو ترتيب ينتشـر عادة فى المناطق الفقـيـرة ذات الملاك غيـر المتيسرين .

وفـوق هذه الفـئة من المزارعين تأتى الغالبية السـاحقة من السكان السـود الذين يزرعون الأراضـى على مسـؤوليتـهم الخاصـة، ويدفـعـون الإيجار من مـحصـول القطن، ويعتمـدون على نظام رهـن المحصول، وبعد الحرب كان هـذا النظام جذابًا لمن تحرروا حديثا، بسبب ما يوفره من قدر أكبر من الحرية وتحملهم المسؤولية عن تحقيق فائض، ولكن مـع تنفيذ نظام رهن المحصول، ومع تدهور الأراضـى، وعبـودية الاسـتدانة، انحط وضـع هؤلاء المسـتقلين بحيث أصبـحوا عمليا يكـدحون بلا طائل، فى الماضى كان كل المستأجرين لديهم قدر من رأس المال، وكان قدرا مذكورا فى كثير من الأحيان، ولكن اعتياد أصحاب الأراضى على الغيبة عن أراضيهم، وانتشار الإيجارات المنخفضة، وتدهور أسـعار القطن، حرمـهم من كل شىء تقريبًا، والأرجح أن أكثـر من نصفـهم لم يعودوا يملكون بغالهم، وقد حـدث التحـول من المزارعـة إلى الإيجار عن طريق تحـديد الإيجار، فإذا كان الإيجار معقولاً فإنه يكون حافزا للمستأجر ليبذل جهده، أما إذا كان الإيجار مرتفعا أكثـر مما يجب، أو كانت الأرض قد تدهورت، فإن النتيجة تكون مثبطة وداعيـة لعـدم بذل الجـهـد من جـانب الفـلاحين السـود، ولاشك فى صـدق هـذه الحـالة الأخيرة، ففى مقاطعة دوجيرتى حصل على كل ميزة اقتصـادية لارتفاع أسعار القطن فى السوق والجهود التى بذلها المستأجرون، ملاك الأراضـى والتجار، وابتلعها الإيجار والفائدة، فإذا ارتفع سعر القطن، ارتفع الإيجار بقدر أكبر، وإذا انخفض سـعر القطن يبقى الإيجار كما هو أو يهبط قليلا. وإذا عمل المستأجر باجتهاد وحصل على محصول

وافـر يزيد إيجاره فى السنة التالية، فـإذا فـشل المحـصـول فـى تلك السـنة يصـادر مـحـصـوله من الذرة ويبـاع بغله وفـاء للدين. وكانت هناك بطبيعة الحال استثناءات من ذلك حالات من الرأفة الشخصية والتسامح، ولكن فى أغلبية الأحوال كانت القاعدة هى الحصول على آخر مليم ممكن من جموع عمال الزراعة السود.

والمزارع بالمشاركة يدفع فى المتوسط ٢٠ إلى ٣٠ فى المائة من محصوله كإيجار، ولا يمكن أن تكون نتيجة هذا الإيجار المرتفع إلاّ نتيجة سيئة، إهمال التربة وإساءة استخدامها، وتدهور فى أخلاقيات العمال، وانتشار الشعور بالظلم، صاح آرثر يونج قائلاً "عندما تكون الأحوال سيئة يكون ذلك من نصيب المشتغلين بالمزارعة، وحالتهم أسوأ من حالة عمال اليومية "، وقد قال قولته هذه عندما كان يتحدث عن إيطاليا قبل قرن مضى، ولكن كلمته تصدق أيضا على حال دوجيرتى فى الوقت الحالى، وعلى الأخص فإن صدق ما قاله اليوم ينطبق على ما قاله عن فرنسا قبل الثورة: "إن المزارعين بالمشاركة لا يعتبرون أفضل من الخدم إلاّ بقليل، إذ يمكن طردهم حسب المشيئة، ويجب أن يخضعوا لإرادة مالك الأرض فى كل شىء"، وعند هذا المستوى المنخفض، يناضل الآن نصف الأهالى السود فى مقاطعة دوجيرتى، ربما أكثر من نصف الملايين السود فى هذا البلد.

وربما نضع فى درجة أعلى من هؤلاء، أولئك العمال الذين يتلقون أجرًا نقديًا مقابل عملهم، وبعضهم يحصل على مسكن ربما تلحق به قطعة أرض يزرعها، وعند ذلك فإنه يحصل على الغذاء والكساء مقدمًا، ويحصل على أجر ثابت يتسلمه فى آخر السنة، يتراوح بين ٣٠ و ٦٠ دولاراً، تدفع منها قيمة ما حصل عليه من مستلزمات، مع الفوائد، وينتمى إلى هذه الفئة من أشباه المزارعين بالمشاركة ما يقرب من ١٨ فى المائة من السكان، بينما يعمل ٢٨ فى المائة مقابل أجر شهرى أو سنوى، وهم إما يوفرون احتياجاتهم من مدخراتهم أو الأرجح أن يحصلوا عليها عن طريق تاجر يغامر باحتمالات السداد، وهؤلاء العمال يحصلون على ما بين ٣٥ إلى ٤٠ سنتًا فى اليوم فى موسم العمل، وهم عادة من الشبان غير المتزوجين، وبعضهم من النساء، وعندما يتزوجون فإنهم يهبطون إلى طبقة المزارعين بالمشاركة أو فى حالات أقل يصبحون مستأجرين.

والذين يستأجرون الأرض مقابل مبلغ نقدى محدد، هم أول الطبقات الصاعدة، ويمثلون ٥ فى المائة من العائلات، والميزة الوحيدة لهذه الفئة الصغيرة هى حرية اختيار محاصيلهم، والمسؤولية الأكبر التى تأتى عن طريق عقد صفقات مالية، ولئن كانت أحوال بعض المستأجرين لا تختلف كثيراً عن أحوال من يعملون على أساس المزارعة، فإنهم فى المجموع أكثر ذكاء وأكثر تحملا للمسؤولية، وهم عادة الأشخاص الذين يصبحون فى نهاية المطاف من ملاك الأراضى، وأخلاقهم ومهاراتهم الأكبر تمكنهم من أن يحصلوا على شروط أفضل فى الإيجار، فالمزارع المؤجرة، والتى تتراوح من ٤٠ إلى ١٠٠ فدان، يكون إيجارها فى المتوسط حوالى ٥٤ دولاراً فى السنة، ومن يتعاملون فى مزارع كهذه لا يظلون مستأجرين لأمد طويل، وهم إما أن ينحدروا إلى فئة المزارعة أو إذا حققوا سلسلة متصلة من المحاصيل الناجحة يتحولون إلى ملاك للأراضى .

وفى سنة ١٨٧٠ لا يرد فى دفاتر ضرائب دوجيرتى أى ذكر للزنوج كملاك للأراضى، وإذا كان هناك من تنطبق عليه هذه الصفة فى ذلك الوقت – وربما كان هناك قليل منهم – ربما كانت أراضيهم مسجلة باسم كفيل من البيض وهو أسلوب لم يكن غير مألوف فى عهد العبودية، وفى ١٨٧٥ بدأت ملكية الأراضى بسبعمائة وخمسين فداناً، وبعد عشر سنوات زاد هذا الرقم إلى أكثر من ٦٥٠٠ فدان ثم إلى تسعة آلاف فى ١٨٩٠ و عشرة آلاف فدان فى ١٩٠٠ ، وكان إجمالى تقديرات الضرائب فى نفس هذه الفترة قد زاد من ثمانين ألف دولار فى ١٨٧٥ إلى ٢٤٠ ألف دولار فى ١٩٠٠

وهناك أمران يؤديان إلى تعقيد هذا التطور، ويجعلان من الصعب التأكد من الاتجاهات الحقيقية فى بعض النواحى، هما حالة الفزع التى سادت فى ١٨٩٣، وانخفاض أسعار القطن فى ١٨٩٨، يضاف إلى ذلك أن نظام تقدير الضرائب فى أرياف جورجيا قديم إلى حد ما وليست قيمته الإحصائية مؤكدة، وليس هناك أشخاص مهمتهم التقييم، ويكتفى محصل الضرائب بكلمة وقسم كل مالك عما كسبه من دخل، ولذا فإن الرأى العام يلعب دورا مهما، وتختلف العائدات اختلافا غريبا من سنة إلى أخرى، ولاشك أن هذه الأرقام تكشف عن ضآلة حجم رأس المال المتراكم لدى الزنوج، وما يترتب على ذلك من اعتماد كبير على ما يحدث من رخاء مؤقت، وهم لا

يملكون ما يستطيعون أن يجتازوا به سنوات قليلة من التراجع الاقتصادى، وهم تحت رحمة سوق القطن بدرجة أكبر من البيض، ومن ثم فإن ملاك الأراضى، على الرغم مما يبذلونه من جهود هائلة، هم فى الواقع طبقة عابرة، تزيد باستمرار بعدد من يسقطون مرة أخرى فى فئة المستأجرين أو المزارعين، ويزيد من عددها القادمون الجدد من بين العامة، ومن بين المائة من ملاك الأراضى في ١٨٩٨، كان نصفهم قد اشترى أراضيه منذ ١٨٩٣، وربعهم بين ١٨٩٠ و ١٨٩٣، وخمسهم بين ١٨٨٤ و ١٨٩٠، والباقى بين ١٨٧٠ و ١٨٨٤، وفى المجموع تملك ١٨٥ زنجيًا الأراضى فى هذه المقاطعة منذ ١٨٧٥

ولو أن كل الملاك السود الذين ملكوا أرضًا هناك فى أى وقت قد احتفظوا بها أو تركوها فى يد رجال سود، لكان الزنوج قد امتلكوا ما يقرب من ٣٠ ألف فدان بدلاً من الخمسة عشرة ألفا التى يملكونها الآن، ومع ذلك فإن الـ ١٥٠٠٠ ألف فدان مساحة لا بأس بها دليل على وزن وحجم وقدرة الأهالى السود، ولو كانوا قد حصلوا على بداية اقتصادية فى وقت "التحرير"، ولو عاشوا فى مجتمع مستنير وغنى يرغب حقًا فى تحقيق مصلحتهم، لكانت هذه النتيجة ضئيلة وليست كافية، ولكن بالنسبة لبضعة آلاف من عمال الزراعة الفقراء الجهلة، فى ظروف الفقر وتراجع السوق والضغوط الاجتماعية، كان ادخار واستثمار مائتى ألف دولار خلال جيل واحد يعنى بذل جهد هائل، ونهوض الأمة، وتقدم يد طبقة اجتماعية، يعنى نضالاً مريرًا، ومعركة شاقة ومرهقة مع العالم، وهى معركة لم يخضها أو تعرفها الطبقات الأكثر حظا.

ومن بين الظروف الاقتصادية الصعبة التى واجهها هذا الجزء من الحزام الأسود، لم ينجح غير ٦ فى المائة من السكان فى التحول إلى ملكية الأراضى وهى ملكية ليست كلها ثابتة ومستقرة، ولكن عدد أصحابها يزيد وينقص مع تأرجح سوق القطن، وهناك نسبة بلغت ٩٤ فى المائة ناضلوا من أجل ملكية الأرض وفشلوا، ويواجه نصفهم القنانة التى لا أمل فى الخروج منها، وأمام هؤلاء ثمة طريق آخر للهروب اتجهوا إليه بأعداد متزايدة، وهو الهجرة إلى المدن. ونظرة عابرة على توزيع الأراضى بين الملاك السود تكشف هذه الحقيقة بوضوح، ففى ١٧٩٨ كانت الملكيات كما يلى: أقل من ٤٠ فدانًا، ٤٩ أسرة – ٤٠ فدانا إلى ٢٥٠ فدانا، ١٧ أسرة – ٢٥٠ إلى ١٠٠٠ فدان، ١٣ أسرة – ١٠٠٠ فدان أو أكثر، عائلتان. والآن فى ١٨٩٠ توجد ٤٤ مزرعة، ولكن من بينها تسعة

فقط تقل عن ٤٠ فداناً، ونتيجة للزيادة الكبيرة فى عدد المزارع كثر شراء أماكن إقامة صغيرة بالقرب من المدن، يشارك مالكوها حقا فى حياة المدينة، وهذا جزء من الاندفاع نحو المدن، وفى مقابل كل مالك للأراضى ممن سارعوا للابتعاد عن حياة الريف الضيقة وأوضاعها الصعبة، كم عدد عمال الزراعة، وكم عدد المستأجرين، وكم عدد من أفلسوا من المستأجرين والذين انضموا إلى ذلك الطابور الطويل؟ أليس ذلك تعويضاً غريباً؟ إن خطيئة أحياء الريف تلقى على كاهل المدن، والأدواء الاجتماعية فى حياة المدينة اليوم، هنا فى مقاطعة دوجيرتى وربما فى أماكن كثيرة قريبة وبعيدة، يجب البحث عن شفائها فى النهاية بعيداً عن أسوار المدن .

الفصل التاسع

عن أبناء السيد والمسود

إن الظاهرة القديمة قدم العالم، ظاهرة الاتصال بين أجناس الناس المختلفة، ستجد مثالا جديدا لها فى القرن الجديد، والواقع أن ما يميز عصرنا هو الاتصال بين الحضارة الأوروبية والشعوب المتخلفة فى أنحاء العالم، وأيًا كان ما نقوله عن نتائج هذا الاتصال فى الماضى، فلا شك فى أنه يشكل فصلا فى العمل الإنسانى لا يريح النظر إليه، فالحروب والقتل والاستعباد والتدمير والتعذيب كانت مرة بعد أخرى نتيجة حمل الحضارة والإنجيل المقدس إلى جزر البحار وإلى الكفرة بدون أن نحمل معهما القانون، كما أنه ليس مما يريح ضمير العالم الحديث أن يقال له على سبيل التهدئة إن كل ذلك كان حقًا وصوابًا، وأن ذلك كان هو الانتصار المكتوب للقوة على الضعف، وللخير على الشر، وللمتفوقين على المتأخرين، ولاشك فى أنه كان مما يريح المرء لو استطاع أن يصدق كل ذلك، لكن الوقائع القبيحة أكثر من أن تسمح بتفسير الأمور على هذا النحو. ونحن نشعر ونعرف بأن هناك بعض الفروق الدقيقة فى نفوس الأجناس، وأن هناك تغييرات بلا عدد لا تستطيع مقاييسنا الاجتماعية العاجزة أن تتابعها بدقة، وهى التى تفسر جانبًا كبيرًا من التاريخ والتطور الاجتماعى، ونعرف فى الوقت نفسه أن هذه الاعتبارات لم تفسر فى أى وقت أو تبرر انتصار القوة الغاشمة والخداع على الضعف والبراءة .

ومن ثم فمن واجب كل الناس الشرفاء فى القرن العشرين أن يروا فى التنافس المقبل بين الأجناس أن يكون معنى البقاء للأصلح هو فى انتصار الخير والجمال والحق، وأن نتمكن من أن تصون الحضارة المقبلة كل ما هو جميل ونبيل وقوى، وألا نستمر فى إعطاء الأولوية للجشع والصفاقة والقسوة، وحتى يتحقق هذا الأمل علينا أن

نتوجه كل يوم للمزيد والمزيد من الدراسة الواعية لظواهر الاتصال بين الأجناس ، وأن نجرى دراسة صريحة ومنصفة، وليست كاذبة ولا ملونة برغباتنا أو مخاوفنا، ولدينا فى "الجنوب" ميدان صالح لهذه الدراسة ليس أفضل منه فى العالم ، ميدان قد يرى العالم الأمريكى المتوسط أنه ليس على مستوى طموحاته، وأنه ميدان يعرف عنه الشخص العادى من غير العلماء كل شيء، ولكنه مع ذلك مجال للدراسة يتطلب منا اهتماما خاصا بسبب ما فى مسألة الأجناس من تعقيدات يبدو أن الله يوشك أن يعاقب بها هذه الأمة، علينا أن ندرس ونفكر وأن نسأل : ما هى العلاقات الفعلية بين البيض والسود فى الجنوب ؟ ويجب أن نتلقى الإجابة، ليس من خلال الاعتذار عما وقع من أخطاء، بل من خلال قصة صريحة، غير مزوقة .

فى الحياة المتحضرة اليوم، يجرى الاتصال بين الناس والعلاقات فيما بينهم فى مجالات رئيسة قليلة خلال العمل والاتصال ، هناك أولا : التقارب المادى للمساكن وأماكن الإقامة، وطريقة تجمع المناورات مع بعضها بعضا ، ودرجة التماس بينها، وثانيا : والأهم فى عصرنا، هناك العلاقات الاقتصادية والوسائل التى يتعاون بها الأفراد لكسب العيش، وللإشباع المتبادل للحاجات، ولإنتاج الثروة، ثم هناك العلاقات السياسية، والتعاون فى الضبط الاجتماعى، وفى حكم الجماعة، وتحديد وتسديد عبء الضرائب. وفى المكان الرابع هناك الأشكال غير الملموسة ولكنها بالغة الأهمية فى الاتصال والتبادل الفكرى، والتعرف على الأفكار من خلال الأحاديث وعقد المؤتمرات، ومن خلال الدوريات والمكتبات، وفوق كل شيء التشكيل التدريجى فى كل مجتمع لما يسمى الرأى العام، ويرتبط بذلك ارتباطا وثيقا الأشكال المختلفة من الاتصال الاجتماعى فى الحياة اليومية، فى السفر، وفى المسارح، وفى اللقاءات المنزلية، وفى الزواج وتزويج البنات، وأخيرا هناك الأشكال المختلفة للتعبد الدينى، وللتعاليم الأخلاقية، والسعى لعمل الخير، هذه هى الأشكال الرئيسة التى يدخل فيها الناس الذين يعيشون فى نفس المجتمع فى اتصال أحدهم بالآخر، ولذا فإن مهمتى الآن هى أن أبين، من وجهة نظرى، كيف يلتقى العنصر الأسود فى الجنوب ويمتزج بالبيض فى هذه المسائل من شؤون الحياة اليومية.

أولا : فيما يتعلق بالإقامة المادية، يمكن فى العادة أن نرسم فى كل مجتمع جنوبى تقريبًا، خطًا ماديًا للون على الخريطة، على أحد جانبيه يعيش البيض وعلى

الجانب الآخر يعيش الزنوج، والتواءات وتفصيلات خط اللون الجغرافي تختلف بطبيعة الحال فى المجتمعات المختلفة، وإنى أعرف مدنا إذا رسمنا فيها خطًا مستقيمًا فى منتصف الشارع الرئيسى فإنه يفصل تسعة أعشار البيض عن تسعة أعشار السود، وفى مدن أخرى نجد أن المستوطنة القديمة للبيض أحاطت بها حلقة عريضة من السود، وفى حالات غيرها نجد مستوطنات صغيرة أو نويات صغيرة من السود ظهرت فى وسط البيض الذين يحيطون بها، والمعتاد فى المدن أن يكون لكل شارع لونه المميز، ولا يتلاقى اللونان تلاقيا قريبا إلاّ لمامًا، وحتى فى الريف يوجد قدر من هذا التمييز فى المناطق الأصغر حجما، وبطبيعة الحال فى الظاهرة الأوسع فى الحزام الأسود .

وكل هذه التفرقة تبعًا للون مستقلة إلى حد كبير عن التجمع الطبيعى للشرائح الاجتماعية المألوفة فى كل المجتمعات، فحى السود الفقراء قد يكون مصدراً للخطر فى حى سكنى للبيض، فى حين من المألوف أن نجد حيًا فقيراً البيض مغروسًا فى قلب حى محترم للزنوج، غير أن ثمة شيئا نادرا ما يحدث: إن خيرة البيض وخيرة الزنوج لا يعيشون أبدًا على مقربة من بعضهما البعض، وهكذا نجد فى كل مدينة وبلدة جنوبية تقريبا، أن البيض والسود على السواء لا يرون عادة إلاّ أسوأ ما لدى كل منهما، وهذا يمثل تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال فى الماضى، حيث كان الاتصال الوثيق بين السيد والخادم فى البيت الأبوى الكبير من خير ما فى الجنسين فى اتصال حميم وتعاطف، بينما تكون دورة البؤس والسقم المحيطة بالكدح فى الريف بعيدة عن عين الأسرة وسمعها، ويسهل على المرء أن يرى كيف أن شخصًا ينظر إلى العبودية من أروقة بيت أبيه، ويرى الحرية فى شوارع مدينة كبيرة، لا يدرك ولا يفهم الصورة الجديدة بكاملها، ومن ناحية أخرى فإن الفكرة المستقرة لدى عامة الزنوج من أن الأشخاص البيض الجنوبيين لا يهتمون كثيراً بمصلحة الرجل الأسود قد ازدادت حدة في السنوات الأخيرة من خلال هذا الاتصال اليومى المستمر بين أفضل طبقات السود وأسوأ ممثلى العنصر الأبيض .

وإذا انتقلنا إلى العلاقات الاقتصادية بين العنصرين، فإننا ندخل إلى مجال طرقته الدراسات، وكثرة المناقشات، بُذِل فيه جهد خيرى غير قليل، ومع كل هذا فهناك الكثير من العناصر الجوهرية فى التعاون بين السود والبيض من أجل العمل والثروة

يجرى تجاهلها عادة أو لا تُفْهم فهما صحيحاً، فالأمريكى المتوسط يمكن أن يتصور أرضًا خصبة فى انتظار التنمية وحافلة بالعمال السود، ويرى أن مشكلة الجنوب هى ببساطة تحويل هؤلاء السود إلى رجال يعملون بكفاءة، وذلك بتزويدهم بالمهارة الفنية اللازمة ومساعدتهم برأس المال المستثمر، غير أن المشكلة ليست بهذه البساطة بأى حال، وذلك بسبب حقيقة واضحة وهى أن هؤلاء العمال قد تربوا خلال مئات السنين على أنهم عبيد، ولذا فإنهم يكشفون عن كل مميزات وعيوب هذه التربية، فهم راغبون فى العمل وطيبو القلوب، ولكن ينقصهم الاعتماد على النفس، أو حسن التعبير، أو العناية، وإذا أريد الآن تحقيق التنمية الاقتصادية للجنوب، كما يبدو هو الحال، فإن أمامنا عددا كبيرا من العاملين فيه يواجهون منافسة عاتية من العاملين فى العالم، ولكنهم معوقون بتدريب هو العكس تمامًا من التدريب الذى يحصل عليه العامل الحديث الديمقراطى المعتمد على النفس، وما يحتاج إليه العامل الأسود هو التوجيه الشخصى الحصين، والقيادة الجماعية من جانب رجال يحرصون على مصلحته، يدربونه على بعد النظر والعناية والأمانة، ولسنا بحاجة إلى نظريات محبوكة عن الفروق بين الأجناس لإثبات ضرورة هذا التدريب الجماعى بعد أن أخرجت عقول الجنس من محاجرها نتيجة ٢٥٠ سنة من التدريب المكثف على الخضوع وعدم الاهتمام والسرقة، وبعد "التحرير" كان من الواجب الواضح لشخص ما أن يقوم بهذه القيادة الجماعية، فيتولى تدريب العمال الزنوج، ولن أتوقف هنا لأبحث عمن كان ذلك واجبه وهل هو السيد السابق الأبيض الذى استفاد بالكدح بلا أجر، أم رجل الخير والإحسان الشمالى الذى كان استمرار وجوده هو السبب فى الأزمة، أم هو الحكومة الوطنية التى أصدرت قوانين تحرير العبيد؟ لن أتوقف لأسأل من كان يجب أن يقوم بهذا العمل، ولكنى أتمسك بأنه كان من واجب أى أحد ألا يترك هؤلاء العمال وشأنهم بلا قيادة ولا توجيه، وبلا رأس مال أو أرض، وبلا مهارة أو تنظيم اجتماعى، بل وبلا أبسط حماية من جانب القانون والنظام ، لقد تركوا فى أراض فسيحة، لا ليستقروا ويشرعوا فى تنمية داخلية بطيئة وحريصة، بل تركوا ليلقى بهم على الفور تقريبًا فى منافسة حادة وقاسية مع أفضل العمال العصريين فى ظل نظام اقتصادى يقاتل كل مشارك فيه من أجل نفسه، وغالبا ما يكون ذلك بغير مراعاة لحقوق جاره أو مصلحته .

ويجب ألا ننسى فى أى وقت أن النظام الاقتصادى فى الجنوب اليوم- والذى خلف النظام القديم- ليس هو نفس النظام الذى كان قائما فى الشمال الصناعى، أو فى إنجلترا أو فى فرنسا، بما لديها من نقابات عمالية، وقوانين تقييدية، وأعرافهم التجارية المكتوبة وغير المكتوبة، وخبرتهم الطويلة، وإنما كان نسخة من النظام الذى اتبعته إنجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر، قبل صدور قوانين المصانع ، إنجلترا التى استدرت الشفقة من المفكرين وأشعلت غضب كارلايل، وعصاة السلطة التى خرجت من يد السادة الجنوبيين فى ١٨٦٥، بالقوة جزئيًا، وبنزقهم جزئيا، لم تعد إليهم قط، وهى بدلاً من ذلك انتقلت إلى أولئك الرجال الذين أتوا ليتولوا مسؤولية الاستغلال الصناعى للجنوب الجديد، أبناء البيض الفقراء الذين تلهب صدورهم نيران التعطش الجديد للثروة والقوة، رجال يانكى حريصين وبخلاء، ومهاجرين بلا أخلاق، وفى يد هؤلاء الرجال وقع العمال الجنوبيون، البيض والسود، وكان ذلك لسوء حظهم، لأنه ليس للعاملين لدى هؤلاء الرجال من قادة الصناعة لا حب ولا كره، لا تعاطف ولا عواطف، وإنما الأمر هو دولارات وأرباح تحسب بعقل بارد، وفى ظل نظام كهذا لابد أن يعانى العمل بكل أشكاله، وحتى العمال البيض لم يصلوا بعد من الذكاء والحرص وجودة التدريب لما يكفى للوقوف أمام الأساليب الظالمة لرأس المال المنظم، والنتيجة حتى بينهم، ساعات طويلة من الكدح، وأجور منخفضة، وتشغيل للأطفال، وانعدام الحماية من الربا والغش، ولكن بين العمال السود يزداد هذا كله قسوة، أولاً بالتعصب العنصرى الذى يتراوح من الشك وعدم الثقة بين أفضل عناصر البيض والكراهية المحمومة بين أفضلهم، وثانيًا فإنه يتفاقم كما ذكرت بالتراث الاقتصادى التعس الذى أعقب التحرر من العبودية، ومع هذه التربية بات من الصعب على الرجال الذين تحرروا أن يتعلموا كيف يمسكون بتلابيب الفرص التى تفتحت أمامهم، أما الفرص الجديدة فنادراً ما أتيحت لهم، وإنما تتجه بالمحاباة إلى البيض .

وعندما تركت أفضل عناصر الجنوب ذلك العامل الأسود بلا حماية أو رعاية أصبح بالقانون والعرف ضحية لأسوأ الرجال وأكثرهم شراسة فى كل مجتمع، ونظام رهن المحصول الذى يفرغ الحقول فى الجنوب من العاملين، ليس مجرد نتيجة للإهمال من جانب الزنوج إنما هو أيضاً نتيجة تشريعات وضعت بخبث بشأن الرهن القانونى والرهن الحيازى وغيرها من الحيل القانونية التى يتلاعب بها رجال بلا ضمير للإيقاع

بالغافلين وتقييدهم حتى يصبح الفكاكُ مستحيلاً، والمزيد من الكدح أضحوكة، والاعتراض جريمة، وقد رأيت، فى الحزام الأسود لجورجيا، زنجيًا جاهلاً أمينًا يشترى ويدفع ثمن مزرعة بالتقسيط ثلاث مرات منفصلة، وبعد ذلك وفى مواجهة القانون والأخلاق فإن الأمريكى البارع الذى باعها له أخذ المال وحجة الأرض وترك الرجل الأسود معدمًا، يعمل فى أرضه مقابل ثلاثين سنتًا فى اليوم، ورأيت مزارعًا أسود يغرق فى الدين لتاجر أبيض، ورأيت ذلك التاجر يذهب إلى مزرعة الرجل الأسود ويجردها من كل سلع يمكن أن تباع : البغال والمحاريث، والمحاصيل المخزنة، والأدوات، والأثاث، والأسرة التى ينامون عليها، والساعات، والمرايا، وكل هذا بدون حكم قضائى ولا بإجراء قانونى، ولا بوجود ضابط أو شريف، وبالمخالفة للقانون الذى يحرم الحجز على المستلزمات المنزلية، وبدون تقديم أى تقرير أو حساب لأى شخص مسؤول، ومثل هذه الأعمال يمكن أن تحدث، وسوف تحدث، فى أى مجتمع يضع فيه عرف التعصب العنصرى الكادحين والجهلاء خارج نطاق التعاطف والتآخى بين الأجناس، ومادامت أفضل عناصر المجتمع لا تشعر بأنها ملزمة بحماية وتعليم ورعاية الأعضاء الأفقر، فإنهم يتركونهم فريسة يعتدى عليها النصابون والغشاشون .

هذا الوضع الاقتصادى السيئ لا يعنى الحيلولة دون أى تقدم فى الجنوب الأسود، أو عدم وجود طبقة من ملاك الأراضى السود والميكانيكيين الذين يجمعون بعض العقارات، على الرغم من العقبات، ويصبحون مواطنين طيبين، ولكنه يعنى أن هذه الطبقة ليست بالحجم الذى كان يمكن أن تكون عليه فى ظل نظام اقتصادى أكثر عدالة، وأن من يظلون على قيد الحياة فى المنافسة تقوم أمامهم العوائق بحيث ينجزون أقل كثيرا مما يستحقون، وأن العاملين لدى الطبقة الناجحة متروكون للحظ والمصادفة وليس لأى قدر من الانتقاء الذكى والاختيار المعقول، وليس لهذا الوضع غير علاج واحد، علينا أن نقبل قدراً من التعصب العنصرى فى الجنوب على أنه حقيقة واقعة حقيقة مؤسفة بمدى كثافتها، ومحزنة بنتائجها، وخطرة على المستقبل، ولكنها مع ذلك حقيقة واقعة لن يزيلها غير الزمن، ولذا فإننا لا نأمل فى هذا الجيل، أو خلال عدة أجيال، أن يدرك عامة البيض أن السود يحتاجون إلى تعاطف وثيق وقيادة تضحى بذاتها للخروج بهم من أوضاعهم الراهنة، فمثل هذه القيادة، وهذه التوعية والقدوة الاجتماعية، يجب أن تأتى من السود أنفسهم، وخلال فترة من الزمن كان الناس

يشكّون فيما إذا كان الزنوج قادرين على إيجاد مثل هؤلاء القادة، ولكن لم يعد هناك الآن من لا يرى جاداً قدرة الزنوج الأفراد على استيعاب الثقافة وأوليات الحضارة الحديثة، وعلى نقلها إلى أبنائه، وإلى أقرانه ولو إلى حد ما، فإذا كان ذلك صحيحاً، فهذا هو السبيل للخروج من الوضع الاقتصادى الحالى، وهذه هى الضرورة الحتمية لوجود قادة من السود على خلق وذكاء، رجال مهرة، مستنيرين وقادرين على تقدم الصفوف، من خريجى الجامعات، ورجال أعمال سود، ومبشرين بالثقافة، ورجال يفهمون ويعرفون الحضارة الحديثة جيداً، ويستطيعون أن يمسكوا بقياد المجتمعات السوداء، وأن يرفعوها ويدربوها بقوة الفكر والقدوة، والتعاطف العميق، وتراحم الدم المشترك والمثل المشتركة، ولكن حتى يتمكن هؤلاء الرجال من تحقيق أثر ملموس يجب أن يكون لهم قدر من السلطة، يجب أن يساندهم أفضل ما فى الرأى العام لهذه المجتمعات، وأن يكون فى وسعهم أن يستخدموا من أجل أهدافهم وأغراضهم أسلحة مثل الخبرة التى أثبت العالم أنه لا غنى عنها لتقدم البشر.

وربما كان أهم هذه الأسلحة فى العالم الحديث هى سلطة صندوق الانتخاب، وبهذا، انتقل الى شكل ثالث من أشكال الاتصال بين البيض والسود فى الجنوب ألا وهو العمل السياسى .

فى موقف العقل الأمريكى تجاه حق الزنوج فى الانتخاب، يمكن أن نتابع بدرجة من الدقة المفاهيم السائدة بشأن الحكم، ففى الخمسينات كنا قريبين للغاية من أصداء الثورة الفرنسية بحيث كنا نؤمن بحق الاقتراع العام، وكنا نقول – وفقا لما نراه أمراً منطقيا – إنه ليست هناك طبقة اجتماعية لديها من الخير والصدق وعدم الأنانية ما يجعلها جديرة بأن يعهد إليها بالكامل بالمصير السياسى لجيرانها، وإن أفضل المحكمين بشأن مصالحهم فى كل ولاية هم الأشخاص المتأثرون بها مباشرة، وبالتالى فعن طريق تسليح كل شخص بتذكرة انتخاب – أى الحق فى أن يكون له صوت فى سياسة الولاية – يتحقق أكبر قدر من الخير لأكبر عدد من الناس، وكانت هناك اعتراضات على هذه الحجج بغير شك، ولكننا كنا نتصور أننا رددنا عليها رداً مفحماً ومقنعاً. وإذا تحجج أحد بجهل الناخبين كان ردنا "علموهم"، وكان بعضهم يشكو من فساد خلقهم فكنا نقول "احرموهم من حق التصويت أو أودعوهم فى السجون"، وأخيراً

ففى مواجهة من كانوا يخشون الديماجوجيين والانحراف الطبيعى لبعض البشر كنا نقول إن الزمان والتجارب المريرة كفيلة بأن تعلم أنشف العقول، وفى هذا الوقت أثيرت مسألة حق الزنوج فى التصويت فى الجنوب، هنا كان أناس بسطاء قد أصبحوا أحرارًا على حين غرة، فكيف يمكن حمايتهم من أولئك الذين لا يؤمنون بحريتهم وقد عقدوا العزم على الإطاحة بها؟ قال الشمال : ليس بالقوة، وقال الجنوب، ليس بحماية الحكومة لهم، وعند ذلك قال المنطق البسيط للأمة: بصندوق الانتخاب، الدفاع الوحيد والشرعى للناس الأحرار، ولم يكن هناك من يتصور فى ذلك الحين أن من كانوا عبيداً يمكن أن يستخدموا بطاقة الاقتراع بذكاء أو بفاعلية كبيرة. ولكن كان الناس يعتقدون أن امتلاك سلطة كبيرة كهذه من جانب طبقة كبيرة فى الأمة سيلزم إخوانهم بتدريبهم عليها أو استخدامها بذكاء.

وفى الوقت نفسه جاءت إلى الأمة أفكار جديدة: لقد انتابتنا الحالة الحتمية للاسترجاع المعنوى والتلاعب السياسى التى تأتى دائما فى أعقاب الحرب، وباتت الفضائح السياسية صارخة إلى حد دفع الشرفاء إلى الابتعاد عن السياسة، وبالتالى أصبحت السياسة سيئة السمعة، وأصبح الناس يتفاخرون بأنه ليس لهم ارتباط بحكوماتهم، وأن يتفقوا ضمنا مع من ينظرون إلى الوظيفة العامة كوسيلة للاستغلال، وفى ظل هذه الحالة العقلية أصبح من السهل التغاضى عن قمع أصوات الزنوج فى الجنوب، وتقديم النصيحة للزنوج الذين يحترمون أنفسهم بالابتعاد عن السياسة تمامًا، وبات المواطنون الشرفاء وحسنو السمعة فى الشمال ممن أهملوا واجباتهم المدنية يسخرون من المبالغة فى الاهتمام التى ينظر بها الزنوج لحق الانتخاب، وهكذا حدث أن عدداً متزايداً من الطبقة الأفضل حالاً بين الزنوج اتبع المشورة القادمة من الخارج والضغط من الداخل، ولم يعودوا يهتمون بالسياسة، تاركين للامبالين والفاسدين من أفراد جنسهم ممارسة حقوقهم كناخبين، أما الأصوات السوداء التى ظلت متمسكة بحقها فلم تكن مدربة ولا متعلمة، وأسىء إليها بالرشوة الصريحة الفاجرة، أو بالقوة والتضليل، إلى درجة أن أصبح الناخب الزنجى موقنًا بفكرة أن السياسة هى وسيلة الكسب الشخصى بوسائل غير محترمة .

وأخيرًا فإننا الآن، اليوم، عندما أفقنا إلى أن استمرار وجود المؤسسات الديمقراطية فى هذه القارة يتوقف على تطهير عملية الانتخاب، والتدريب المدنى

للناخبين، ورفع التصويت إلى مستوى الواجب المقدس الذى لا يتخلى عنه المواطن وإلاّ أضر بمصيره ومصير أبنائه وأحفاده، فى هذا اليوم ونحن نسعى لإحياء الفضائل المدنية، ماذا سنقول للناخب الأسود فى الجنوب؟ هل سنستمر نقول له إن السياسة سيئة السمعة وشكلاً من أشكال النشاط البشرى؟ هل سندفع أفضل طبقات الزنوج ليقل اهتمامها بشؤون الحكم، وتتخلى عن حقها فى هذا الاهتمام بدون احتجاج؟ إنى لا أقول كلمة واحدة ضد الجهود المشروعة لتطهير عملية الانتخاب من الجهل والتسول والجريمة، لكن هناك من يتظاهر بأن الاتجاه الحالى لمنع حق الاقتراع فى الجنوب هو لهذا الغرض، وقد قيل صراحة وبلا مواربة فى كل الحالات تقريبًا إن الغرض من قوانين الحرمان من الانتخاب هو إبعاد الرجل الأسود عن السياسة.

والآن، هل هذه مسألة بسيطة لا تؤثر على المسألة الجوهرية المتعلقة بالتطور الصناعى والفكرى للزنوج؟ هل نستطيع أن نوجد جماعة من العمال والحرفيين وملاك الأراضى السود فى الجنوب – هم بحكم القانون والرأى العام – لا صوت لهم فى تشكيل القوانين التى يعيشون فى ظلها ويعملون؟ وهل يمكن تطبيق التنظيم الحديث للصناعة، بافتراض أنه يعمل فعلاً على تحرير الحكومة الديمقراطية ويوفر السلطة والقدرة للطبقات العاملة للإلزام بمصالحها ورخائها، هل يمكن تطبيق هذا النظام فى الجنوب فى حين أن نصف قوته العاملة بلا صوت فى المجالس العامة وبلا حول ولا قوة فى الدفاع عن نفسها ؟ إن الرجل الأسود فى الجنوب لا يكاد أن يقول شيئًا بشأن حجم الضرائب التى ستفرض عليه، أو كيفية التصرف فى تلك الضرائب، ولا من الذى ينفذ القوانين وكيف ينفذها، ولا بشأن من الذى يصنع القوانين وكيف يصنعها، ومن المحزن أنه لابد من بذل جهود خارقة فى الأوقات الحاسمة حتى يسمع صانعو القانون فى بعض الولايات ما يطرحه جانب السود من آراء فى المناقشات الجارية، وفى كل يوم يزداد الزنوج اقتناعا بأن القانون والعدالة ليسا موجودين لحمايتهم، وإنما هما مصدران للإذلال والإكراه، فالقوانين يصنعها رجال لا يهتمون بهم، وينفذها رجال ليس لديهم أى حافز لمعاملة الأهالى السود باحترام ومراعاة، وأخيرًا عندما يخرق أحدهم القانون فإنه لا يحاكم بواسطة أقرانه ولكن غالبًا على يد أشخاص يفضلون أن يعاقبوا عشرة زنوج أبرياء عن ترك مذنب واحد يفلت .

وإنى لآخر من ينكر جوانب الضعف والقصور بين الزنوج، وإنى لآخر من يبتعد عن التعاطف مع بيض الجنوب فى الجهود التى يبذلونها لحل مشاكلهم الاجتماعية المعقدة، ولكنى أعتقد أن من الممكن- ومن الأفضل أحيانا- أن يتولى شؤون فئات غير متطورة جزئيا أفضل جيرانها وأقواهم من أجل مصلحتها الخاصة، إلى أن يحين الوقت الذى تستطيع فيه أن تبدأ فى القتال وخوض معارك العالم منفردة، لقد سبق أن أوضحت مدى حاجة الزنوج المتحررين إلى التوجيه الاقتصادى والروحى، وإنى لعلى استعداد للاعتراف بأنه لو كان ممثلو أفضل ما فى الجنوب الأبيض من رأى عام هم الذين يحكمون ويقودون الأوضاع فى الجنوب اليوم لتحقق الكثير مما نطالب به، ولكن النقطة التى أتمسك بها، وأكررها هنا مرة أخرى، هى أن أفضل ما فى الرأى العام فى الجنوب اليوم ليس هو الرأى الحاكم، وأن ترك الزنوج بلا حول ولا طول وبدون حق الاقتراع اليوم معناه تركهم لا لقيادة أفضل العناصر بل للاستغلال والإكراه من جانب أسوأ العناصر، وهذا لا يصدق على الجنوب أكثر مما يصدق على الشمال، ولا على الشمال بأكثر مما يصدق على أوروبا: ففى أى بلد، وفى أية دولة تحكمها المنافسة الحرة الحديثة، يكون وضع أية طبقة من الضعاف والمحتقرين، سواء كانوا من البيض أو السود أو الزرق، تحت الرحمة السياسية لإخوانهم الأقوى والأغنى والأكثر حنكة، إنما هو إغراء نادراً ما تمكنت الطبيعة البشرية من التغلب عليه ونادراً ما ستقدر على ذلك فى المستقبل .

وفضلاً عن ذلك، فإن الوضع السياسى للزنجى فى الجنوب يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة الجريمة الزنجية، ولاشك فى أن الجريمة بين الزنوج زادت زيادة محسوسة فى السنوات الثلاثين الأخيرة، وقد ظهرت فى الأحياء الفقيرة فى المدن الكبرى طبقة إجرامية متميزة بين السود، وفى تفسير هذا التطور المؤسف ينبغى أن نلاحظ أمرين : (١) أنه كان من النتائج الحتمية لـ "التحرير" أن تزيد الجريمة والمجرمون (٢) أن نظام الشرطة فى الجنوب قد وضع فى المقام الأول للسيطرة على العبيد، وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يجب ألا ننسى أنه فى ظل نظام عبودى متشدد يندر أن يكون هناك شىء يسمى الجريمة، ولكن عندما تتفكك هذه الجزيئات البشرية المتنوعة فجأة ويلقى بها فى بحر الحياة، فإن بعضها سيعوم وبعضها سيغرق وبعضها سيظل معلقًا لتدفعه تيارات المصادفة إلى أعلى أو أسفل فى عالم يهرول فى طريقه مسرعًا، وإن ثورة اقتصادية

واجتماعية كبيرة كالثورة التى اجتاحت الجنوب فى سنة ١٨٦٣ كانت تعنى اقتلاع عدد من جوانب الضعف والشر بين الزنوج، وبداية التمايز بين الدرجات الاجتماعية، والآن فإن رفع مجموعة من الناس ليس رفعًا جسديًا عن الأرض مثل الكتل الصلبة التى لا حياة فيها، وإنما هو سعى للصعود مثلما يفعل النبات الحى الذى تظل جذوره مغروسة فى التربة، ولذا فإن ظهور المجرم الزنجى كان ظاهرة متوقعة، وهى إذا كانت تدعو للقلق فإنها يجب ألا تدعو للدهشة .

وهنا أيضًا فإن أمل المستقبل يعتمد بشكل خاص على التعامل الحريص والمتمعن مع هؤلاء المجرمين، فقد كانت أخطاؤهم فى البداية هى أخطاء الكسل والإهمال والاندفاع، وليست الميل للشر أو الاندفاع المنفلت، وهذه الأشكال من التصرف كانت بحاجة إلى معالجة مختلفة، حازمة ولكنها إصلاحية، ليس بها ما يوحى بالظلم ولكنها تقدم كل الأدلة على الإدانة، ومن أجل هذا التعامل مع المجرمين، البيض أو السود، لم تكن هناك أداة فى الجنوب، وليست هناك سجون أو إصلاحيات مناسبة، ونظام الشرطة فيها مرتب بحيث يتعامل مع السود وحدهم، ويفترض ضمنًا أن كل رجل أبيض هو بطبيعة الحال عضو فى الشرطة، ومن ثم نشأ نوع مزدوج من العدالة، يخطئ فى جانب البيض بالتساهل الذى لا موجب له والحصانة من وجود مجرمين يقبض عليهم متلبسين، ويخطئ فى جانب السود فى الشدة التى لا موجب لها، والظلم، وعدم التمييز، وذلك كما قلت لإن نظام الشرطة فى الجنوب قد صمم أصلاً لتعقب كل الزنوج وليس فقط المجرمين، وعندما تم تحرير الزنوج، وكان الجنوب كله على اقتناع بأن عمل الزنوج الأحرار أمر مستحيل، كانت الأداة الأولى المطبقة فى كل مكان فى الواقع هى استخدام المحاكم كوسيلة لإعادة استعباد السود، ولم يكن الأمر عند ذلك أمرَ جريمة بل أمراً يتعلق باللون، وكان ذلك هو ما يقرر الحكم الصادر على أى إنسان بأية تهمة كانت، ولذا أصبح الزنوج ينظرون إلى المحاكم على أنها أدوات للظلم والقمع، وإلى من تصدر عليهم أحكام منها على أنهم شهداء وضحايا .

أما الآن فقد ظهر مجرمون حقيقيون من الزنوج، وبدلاً من السرقات الصغيرة والتشرد بدأنا نسمع عن السرقات على الطرق السريعة، والسرقة بالإكراه، والقتل، والاغتصاب، وأحدث ذلك تأثيرا غريبا على الجانبين من خط اللون: فالزنوج يرفضون

تصديق الشهادات التى يقدمها الشهود البيض، كما لا يصدقون الإنصاف فى تقديرات المحكِّمين البيض، وهكذا ضاع أكبر رادع للجريمة، وهو الرأى العام للفئة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد، وأصبحت النظرة إلى المجرم أنه يعاقب بالصلب وليس بالشنق، ومن ناحية أخرى فإن البيض، الذين اعتادوا عدم الاهتمام بإدانة أو براءة الزنوج المتهمين، كانوا ينجرفون فى أوقات الاندفاع الى خارج نطاق القانون والعقل والسلوك المهذب، ومن شأن وضع كهذا أن يزيد الجريمة – وقد زادها بالفعل – فقد أضيفت إلى الشراسة الطبيعية والتشرد فى كل يوم دوافع للسخط والانتقام التى تثير الهمجية الكامنة لدى كل من العنصرين وتجعل الالتفات إلى التنمية الاقتصادية أمرًا مستحيلاً فى كثير من الأحيان.

ولكن المشكلة الرئيسة فى أى مجتمع مبتلى بالجريمة ليست معاقبة المجرمين بل منع الصغار من أن يدربوا على الجريمة، وهنا أيضا فان الظروف الخاصة بالجنوب حالت دون اتخاذ الاحتياطات الصحيحة، فقد رأيت أطفالاً فى سن الثانية عشرة يعملون مصفدين بالأغلال فى الشوارع الرئيسة لأتلانتا، وفي مكان مقابل تماما للمدارس، وبالاشتراك مع مجرمين أشداء وكبار في السن، وهذا الاختلاط العشوائى بين الرجال والنساء والأطفال يجعل من "عصابات السلاسل" مدارس مهيأة لتعليم الجريمة والفسوق، والصراع الدائر من أجل إنشاء إصلاحيات فى فرجينيا وجورجيا وغيرهما من الولايات سوى العلامة المشجعة الوحيدة على انتباه بعض المجتمعات إلى النتائج الانتحارية للسياسة الحالية.

غير أنها المدارس العامة هى التى يمكن أن تكون – خارج البيوت – أهم وسائل تخريج مواطنين مهذبين يحترمون أنفسهم، وقد استغرقتنا مؤخراً حماسة المناقشة حول المدارس المهنية والمدارس الثانوية إلى حد دفعنا إلى عدم رؤية المحنة المحزنة لنظام المدارس العامة فى الجنوب، فمن بين كل خمس دولارات تنفق على التعليم العام فى ولاية جورجيا، تحصل مدارس البيض على أربع دولارات ومدارس الزنوج على دولار واحد، وحتى مع ذلك فإن نظام المدارس العامة، باستثناء المدن، نظام سيئ ويحتاج بشدة إلى الإصلاح، وإذا كان هذا صحيحًا بالنسبة للبيض فما بالك بالسود؟ وإنى لأزداد كل يوم اقتناعا، إذ أنظر إلى نظام التعليم فى المدارس العامة فى الجنوب،

بأنه يجب على الحكومة الوطنية أن تتدخل وأن تساعد فى التعليم الشعبى بطريقة ما، واليوم فإن الجهود الشاقة التى بذلها بعض المفكرين فى الجنوب هى وحدها التى منعت إنقاص حصة الزنوج فى أموال التعليم إلى قدر لا يؤبه له فيما يقرب من عشر ولايات، ولا يمكن القول بأن هذا الاتجاه قد مات، بل إنه فى كثير من المجتمعات يزداد قوة، وباسم العقل، ما الذى تتوقعه هذه الأمة من شعب لا يتلقى تعليما ويدفع به فى منافسة اقتصادية شاقة، بدون حقوق سياسية وبمدارس عامة لا تتوافر بها المرافق اللازمة؟ ماذا تنتظر غير الجريمة واللامبالاة، والتى يواجهها هنا وهناك نضال مستميت من جانب سعداء الحظ الأقوى عزيمة الذين يراودهم الأمل فى أن الأمة ستعود إلى صوابها بمرور الوقت؟

لقد سعيت حتى الآن إلى توضيح العلاقات المادية والاقتصادية والسياسية بين الزنوج والبيض فى الجنوب، بما فى ذلك الجريمة والتعليم للأسباب التى ذكرتها، ولكن بعد أن قلنا كل هذا حول هذه المسائل الملموسة فى الاتصال البشرى، مازال هناك جزء لا غنى عنه فى الوصف الصحيح للجنوب، يصعب وصفه أو إصلاحه بعبارات يسهل أن يفهمها الغرباء، وهى ما يمكن أن يسمى المناخ السائد، الأفكار والمشاعر، آلاف الأفعال الصغيرة التى تتشكل منها الحياة، وفى كل مجتمع أو أمة تكون هذه الأشياء الصغيرة التى يصعب وضع اليد عليها هى أكثر الأشياء ضرورة للوصول إلى إدراك واضح لحياة الجماعة عند النظر إليها كوحدة متكاملة، ومن ثم فإن ما يصدق على كل المجتمعات يصدق بصورة خاصة على الجنوب، حيث كانت تجرى – خارج التاريخ المكتوب وخارج القانون المطبوع – على امتداد جيل كامل عاصفة عميقة وضغط على أرواح البشر، تصل إلى حد إثارة المشاعر، وتصل من التعقيد إلى حد إزهاق الأرواح، بشكل لم يشهده أى شعب من قبل، ففى داخل وخارج حجاب اللون هناك قوى اجتماعية هائلة تتحرك، جهود تبذل من أجل تحسين أحوال البشر، وتحركات نحو التفكك واليأس، مأساة وملهاة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتقلبات وارتفاعات وانخفاضات لقلوب البشر التى جعلت من هذه البلاد بلداناً يختلط فيها الحزن والبهجة، والتغير والبلبلة والقلق .

وكان مركز هذا القلق الروحى دائمًا هم ملايين السود الذين تحرروا وأبناؤهم، والذين يرتبط مصيرهم ارتباطًا لا فكاك منه بمصير الأمة، ومع ذلك فإن المراقب العابر الذى يزور الجنوب لا يرى فى البداية شيئًا من ذلك، فهو يلاحظ كثرة ظهور الوجوه السوداء أثناء عبوره، ولكن فيما عدا ذلك فإن الأيام تمضى متكاسلة، الشمس تشرق، ويبدو هذا العالم الصغير سعيدًا وراضيًا شأن العوالم الأخرى التى زارها، بل إنه فيما يتعلق بمسألة المسائل - مشكلة الزنوج - لا يسمع إلاّ القليل بحيث يبدو أن هناك مؤامرة للصمت، فصحف الصباح نادرًا ما تشير إلى المشكلة، وإذا فعلت فذلك يكون بطريقة أكاديمية تبحث عن جوانب غير مألوفة للمسألة، بل ويبدو أن كل شخص قد تجاهل أو نسى الجانب الأكثر قتامة، حتى يصل الزائر المندهش إلى حد التساؤل عما إذا كانت هناك مشكلة حقا فى هذه الأماكن، ولكنه إذا أقام فترة أطول فسوف ينتبه - وربما فى فورة عواطف مفاجئة تتركه فاغر الفم من شدتها - أو الأرجح أن يلتفت إليها بالتدريج، وإلى الظواهر التى لم تلفت نظره فى البداية، وببطء ولكن بثقة تبدأ عيونه فى رؤية ظلال خط اللون: فهو هنا يلتقى بمجموع من الزنوج والبيض، ثم ينتبه فجأة إلى أنه لا يستطيع أن يرى وجهًا أسود واحدًا، أو قد يجد فى نهاية تجواله طوال يوم أنه موجود وسط مجموعة غريبة، حيث كل الوجوه مصبوغة باللون البنى أو الأسود، ويتكون لديه شعور غامض وغير مريح بأنه غريب بينهم، ويدرك فى نهاية الأمر أن العالم حوله يتدفق صامتًا وبقوة منقسمًا إلى مسارين كبيرين: وهما يتدفقان تحت نور الشمس نفسها، وهما يتقاربان ويخلطان مياههما بلا مبالاة ظاهرية ثم ينقسمان ويجرى كل منهما فى اتجاه بعيد عن الآخر، وذلك يحدث بهدوء، لا أخطاء ترتكب، وإذا حدث خطأ فإن الذراع السريعة للقانون والرأى العام تهبط للحظة، كما حدث فى يوم قريب أن ضبط رجل أسود وامرأة بيضاء يتكلمان معًا فى شارع وايت هول فى أتلانتا .

والآن إذا لاحظ المرء بعناية، سيرى أنه بين هذين العالمين، على الرغم من قدر كبير من الاتصال المادى والاختلاط اليومى، لا يكاد يكون هناك اتصال فى الحياة الفكرية أو نقاط مرجعية يمكن فيها لأفكار ومشاعر أحد العنصرين أن تدخل فى اتصال مباشر وتعاطف مع أفكار ومشاعر العنصر الآخر، فقبل الحرب وبعدها مباشرة، عندما كان كل الزنوج الممتازين خدمًا فى بيوت أفضل الأسر البيضاء كانت

هناك روابط الاتصال الحميم، والتعاطف، وأحيانا علاقة الدم، بين العنصرين، كانوا يعيشون فى نفس البيت، ويشتركون فى حياة الأسرة، وكثيراً ما يرتادون نفس الكنيسة، ويتكلمون ويتحدثون أحدهم مع الآخر، ولكن زيادة التحضر بين الزنوج منذ ذلك الحين كان يعنى بطبيعة الحال نشوء طبقات أعلى : فهناك عدد متزايد من القساوسة، والمعلمين، والأطباء، والتجار، والميكانيكيين، والمزارعين المستقلين، الذين أصبحوا بالطبيعة وبالتدريب الأرستقراطية والقادة بين السود، ولكن بينهم وبين أفضل العناصر بين البيض، ليس هناك تبادل فكرى، فالعنصران يذهبان إلى كنائس منفصلة، ويعيشان فى مناطق منفصلة، وهما منعزلان بشكل قاطع فى كل الاجتماعات العامة، وهما يسافران منفصلين، بل وقد بدأ يقرآن صحفًا وكتبًا مختلفة، وفى معظم المكتبات، والمحاضرات، وحفلات الموسيقى، والمتاحف، إما أن الزنوج لا يسمح لهم بدخولها أصلا، أو يسمح لهم بشروط تمس كرامة نفس الطبقات التى كان يمكن أن تجتذب إليها، والجريدة اليومية تسرد وقائع العالم الأسود عن بعد، بدون اهتمام كبير بالدقة، وهلم جرا، فى كل وسائل الاتصال الفكرى - المدارس، والمؤتمرات، والجهود التى تبذل من أجل التقدم الاجتماعى، وما إلى ذلك - وغالبًا ما يكون الوضع أن نفس ممثلى العنصرين، اللذين ينبغى من أجل المصلحة المتبادلة أن يكونوا على تفاهم كامل وتعاطف عميق، غرباء عن بعضهم البعض بحيث يتصور أحد الجانبين أن كل البيض ضيقو العقول ومتحيزون، ويتصور الجانب الآخر أن الزنوج المتعلمين خطرون ووقحون، والأكثر من ذلك، فى بلد يسوده تسلط الرأى العام وعدم التسامح مع الانتقاد، وذلك لأسباب تاريخية واضحة بشكل خاص فى الجنوب، فإن هذا الوضع يكون من الصعب للغاية تصحيحه، فالرجل الأبيض، شأن الزنجى، مقيد ومحتجز وراء خط اللون، وكثيراً ما وضعت مشاريع لتحقيق الصداقة وعمل الخير من جانب بعض ذوى العقول المتفتحة والسعى لإقامة نوع من الإخاء بين الجانبين، ولكنها فشلت وماتت فى مهدها لأن بعض العناصر دفعت بمسألة اللون إلى المقدمة وحركت القوة الهائلة للقانون غير المكتوب الذى يحرم التجديد.

وما أظن أنى بحاجة لأن أضيف كثيراً بشأن الاتصال الاجتماعى بين العنصرين، فلم يأت شىء ليحل محل ذلك التعاطف الرقيق والحب الذى كان قائمًا بين بعض السادة وخدم المنازل، تلك المشاعر التى أدت الأفكار المتطرفة وغير المتسامحة عن

تعميق خط اللون فى السنوات القريبة إلى دفع تلك المشاعر للاختفاء، وفى العالم الذى يعنى فيه الكثير أن تأخذ بيد إنسان وتجلس إلى جانبه، أن تنظر فى عينيه نظرة صريحة وتشعر بقلبه ينبض بدم أحمر، فى عالم تعنى فيه سيجارة مودة وكوب من الشاى أكثر مما تعنيه قاعات المجالس التشريعية ومقالات الصحف والخطب، يستطيع المرء أن يتصور نتائج الغياب الكامل تقريبًا لهذه اللقاءات الاجتماعية بين العنصرين المتباعدين، واللذين يمتد انفصالهما حتى إلى الحدائق وسيارات الأوتوبيس .

هنا لا يمكن أن يحدث ذلك التقارب الاجتماعى الذى يمتد إلى الشعب العادى انفتاح القلب من جانب الأفضل وامتداده إلى الأسوأ، والاعتراف السخى بالإنسانية المشتركة والمصير المشترك، ومن جانب آخر، فحتى فى مسائل إعطاء الحسنات، حيث لا يمكن أن تكون هناك مسألة اتصال اجتماعى، ومن أجل معاونة كبار السن والمرضى، نجد أن الجنوب يتحرك مدفوعًا بالشعور بسوء الأوضاع فى داخله، فيلجأ إلى الكرم، فالمتسول الأسود لا يمكن أن يمضى بدون أن يحصل على شىء أكثر من لقمة خبز، وعندما توجه الدعوة لمساعدة التعساء فإنها تلقى استجابة سريعة، وإنى أذكر– فى ليلة باردة فى أتلانتا– عندما رفضت الاستجابة للمساهمة فى صندوق عام لإغاثة الفقراء خوفًا من أن يتم التمييز ضد الزنوج، أنى سألت فيما بعد أحد الأصدقاء: "هل تلقى أحد من السود المساعدة ؟" أجاب "ألم تعرف، لقد كانوا كلهم من السود" .

ومع ذلك فإن هذا لا يمس جوهر المشكلة، إن التقدم البشرى ليس مجرد مسألة الإحسان أو الصدقة، بل مسألة التعاطف والتعاون بين الطبقات التى لا تحفل بالإحسان، وهاهنا نرى بلداً نجد فيه فى المراتب العليا للحياة، وفى كل المساعى الرفيعة من أجل الخير والصدق والجمال، يقف خط اللون ليفصل بين الأصدقاء الطبيعيين والعاملين فى نفس الميدان، فى حين نجد فى قاع المجتمع، فى قاعة القمار وبيت الدعارة، أن ذلك الخط نفسه يتضاءل ويختفى .

لقد حاولت أن أرسم صورة للمتوسط السائد فى العلاقات الحقيقية بين أبناء السيد والمسود فى الجنوب، ولم أتغاض عن بعض المسائل بسبب السياسة، لأنى أخشى أننا سرنا فى هذا الاتجاه أكثر مما ينبغى، ومن ناحية أخرى، فقد سعيت

بإخلاص ألا أسمح بأية مبالغات ظالمة لأن تتسلل إلى حديثى، ولست أشك فى أن الأوضاع فى بعض المجتمعات الجنوبية أفضل مما أشرت إليه، ولكنى أيضًا على ثقة من أن الأوضاع فى مجتمعات غيرها أسوأ بكثير.

كما أن التناقض والخطر الماثل فى هذه الأوضاع ليس بعيداً عن اهتمام وقلق أفضل الضمائر فى الجنوب، ولما كان عامة البيض من المؤمنين شديدى الإيمان، ومن الآخذين بالديمقراطية، فهم يشعرون شعوراً قويًا بالوضع الزائف الذى تعرض به مشاكل الزنوج، وهؤلاء الناس الذين هم فى معظمهم أمناء وكرماء لا يمكن أن يستشهدوا بمبادئ المسيحية التى تستبعد العنصرية، أو يؤمنوا بتكافؤ الفرص للجميع، بدون أن يزدادوا شعوراً جيلا بعد جيل بأن الوضع الحالى لخط اللون يتعارض تعارضًا تامًا مع كل معتقداتهم وأفكارهم، ولكنهم غالبا عندما يصلون إلى هذه النقطة، يجدون أن الأوضاع الاجتماعية الحالية للزنوج تمثل خطرًا ونذيراً حتى فى رأى أكثر أصحاب العقول تفتحًا، فهم يقولون إذا لم يكن هناك شىء يلام عليه الزنجى فيما عدا سواد بشرته وغير ذلك من الخصائص البدنية، لكانت المشكلة سهلة نسبيًا، ولكن ماذا نقول عن جهله، وكسله، وفقره، وميله للجريمة؟ وهل تستطيع أية جماعة تحترم نفسها أن تشعر إلاّ بأقل قدر من التآخى مع مثل هؤلاء الأشخاص وتكتب لها الحياة؟ وهل سنسمح لمشاعر عابرة بأن تجتاح ثقافة آبائنا أو أمل أبنائنا؟ وهذه الحجج عندما توضع بهذا الشكل تكتسب قوة هائلة، ولكنها ليست أقوى من الحجج التى يقول بها السود: فهم يقولون إننا نسلم بأن أوضاع جموعنا سيئة، فهناك على وجه اليقين أسباب تاريخية لذلك، وشواهد لا تخطئها العين على أن عدداً غير قليل منا قد ارتفع إلى مستوى الحضارة الأمريكية، على الرغم من العقبات الهائلة التى قامت فى طريقهم، وعندما يوضع نفس هؤلاء الزنوج - نتيجة للتحيز والتعصب - فى نفس الفئة ويعاملون نفس المعاملة مثل أدنى فئات شعبهم، لا لسبب غير أنهم زنوج، فإن هذه السياسة لا تثبط فقط الاجتهاد والذكاء بين السود، بل إنها تدفع مباشرة إلى نفس تلك الأشياء التى تشكون منها : عدم الكفاءة والجريمة، وقوموا برسم خطوط للجريمة، ولانعدام الكفاءة، وللخطيئة، ولتجعلوها متشددة وغير متسامحة بقدر ما تشاءون، لأن هذه الخطوط يجب أن ترسم، ولكن خط اللون لا يحقق هذا الغرض بل إنه يتعارض معه .

وفى مواجهة هاتين الحجتين المتقابلتين، يتوقف مستقبل الجنوب على قدرة ممثلى هذين الرأيين المتعارضين على رؤية وفهم وجهة نظر الطرف الآخر والتعاطف معها أى أن يدرك الزنوج بعمق أكبر الحاجة إلى رفع مستوى جموع شعبهم، وأن يدرك البيض بوضوح أكبر مما فعلوا حتى الآن الأثر القاتل والمهلك للتعصب اللونى الذى يضع هيليس ويتلى وسام هوز(*) فى نفس الفئة المستهجنة .

ولا يكفى أن يعلن الزنوج أن التعصب اللونى هو المصدر الوحيد لوضعهم الاجتماعى، ولا يكفى للبيض فى الجنوب أن يردوا بأن وضعهم الاجتماعى هو السبب فى التعصب، فكلا العاملين سبب ونتيجة للآخر، ولن يؤدى التغيير فى أحدهما إلى إحداث الأثر المطلوب، فكلاهما يجب أن يتغير، وإلاّ فلن يحدث تحسن كبير، فالزنوج لا يستطيعون أن يتحملوا الميول الرجعية الراهنة والاستمرار فى رسم خط اللون بلا نهاية، وحالة الزنوج هى الذريعة التى تتخذ لاستمرار التمييز، ولا يمكن للعدالة والحق أن ينتصرا فى هذه الفترة الحاسمة فى حياة الجمهورية إلاّ بالالتقاء بين الذكاء والتعاطف عبر خط اللون .

" إن التوافق بين العقل والنفس، ربما يصنع موسيقى كالتى كانت تعزف فى الماضى، ولكن نغماتها أكثر سرعة " .

(*) هيليس ويتلى ١٧٥٣ -.٨٤ شاعرة أمريكية سوداء انتقلت إلى أمريكا فى سنة ١٧٦١ ، وتعتبر أول كاتبة أمريكية سوداء مهمة فى الولايات المتحدة ، وقد كانت من عبيد أحد تجار بوسطون وهو الذى تولى تعليمها، ويبدو أن سام هوز مجرم معروف (المترجم) .

الفصل العاشر

عن إيمان الآباء

حدث ذلك فى الريف ، بعيدا عن البيت الذى رعانى ، فى ليلة يوم أحد مظلمة ، وكان الطريق يصعد من مسكننا المصنوع من جذوع الأشجار على امتداد القاع الصخرى لمجرى من مجارى الماء ، عبر حقول القمح والذرة ، حتى كنا نستطيع أن نسمع عبر الحقول نغمات إيقاعية لأغنية ناعمة ، مثيرة ، قوية ، أخذت تتردد ثم ماتت حزينة فى آذاننا ، كنت فى ذلك الوقت معلمًا فى مدرسة ريفية ، قادمًا لتوى من الشرق ، ولم أكن قد رأيت قط نهوضًا لزنوج الجنوب ، ولا شك فى أننا فى بيركشاير لم نكن متشددين ورسميين كما كان الحال فى سافولك فى الأيام السابقة ، ومع ذلك فقد كنا هادئين ومنكمشين ، ولست أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث فى صباح أيام الصلاة تلك لو أن أحداً قاطع الموعظة بصرخات مفاجئة ، أو اقتحم الصلاة الطويلة بأن رفع صوته بكلمة آمين ! ولذا لفت نظرى وأنا اقترب من القرية والكنيسة الصغيرة البسيطة الجاثمة فى موقع منفرد ، جو الإثارة الشديدة التى انتابت ذلك الجمع من الأهالى السود ، وكان معلقًا فى الهواء نوع من الفزع المكتوم وبدا أنه يتملكنا نوع من الجنون ، والالتباس الشيطانى ، أعطى واقعًا مفزعًا للأغنية والكلمة ، فالهيكل الأسود الضخم للواعظ كان يذهب ويجيء بينما تتزاحم الكلمات على شفتيه وهو يهاجمنا ببلاغة نادرة ، وكان الناس يتجمعون ويتفرقون ، وعلى حين غرة قفزت المرأة جميلة الخدين البنية اللون الجالسة بجانبى وصرخت كأنها روح ضائعة ، بينما ارتفعت من حولها الولولات والصيحات ، وانطلق مشهد للانفعال البشرى لم أشهد مثله من قبل .

ومن لم يشهد هذا الهياج الذى يصيب بعض الزنوج فى الغابات العميقة التى لم تمس فى الجنوب ، لا يمكن أن يدرك بوضوح المشاعر الدينية للعبد ، وكما ذكرت فإن هذا المشهد يبدو غريبًا ومضحكًا ، ولكن عندما تحضره فإنه مشهد مفزع . وهناك ثلاثة أشياء تميز هذا التدين لدى العبد : الواعظ ، والموسيقى ، والانفعال الحاد . فالواعظ هو الشخصية الفريدة والحماس المتأصل ، الحنكة والقدرة الفائقة كانت هى التى تمنحه امتيازه وتساعده على الاحتفاظ به ، ويختلف النوع بطبيعة الحال تبعا للزمان والمكان ، من الأنديز الغربية فى القرن السادس عشر إلى نيوإنجلاند فى القرن التاسع عشر ، ومن أعماق المسيسيبى إلى مدن مثل نيو أورليانز أو نيويورك .

وموسيقى الزنجى الدينية هى ذلك النغم الإيقاعى الشاكى ، مع النبرات الصغيرة المؤثرة التى ما زالت بالرغم من التشويه والكاريكاتير ، أكثر الأنغام التى ولدت على التربة الأمريكية حتى الآن تعبيراً عن الحياة والأشواق البشرية ، لقد خرجت من الغابات الأفريقية ، حيث لا تزال نغمات شبيهة تسمع حتى الآن ، وطوعت ، وغيّرت ، وازدادت كثافة نتيجة للحياة الروحية المفجعة للعبيد ، حتى أصبحت ، تحت ضغط القانون والسوط ، التعبير الصادق الوحيد عن حزن شعب ، ويأسه ، وأمله .

وأخيراً فإن الوجد أو الصياح ، عندما تمر روح الرب قريبًا منه وتتملك المؤمن ، تجعله يفقد صوابه بفرح فوق الطبيعة ، وكانت هذه هى السمة الأساسية الأخيرة فى دين الزنوج وموضع إيمانهم العميق ، وكان التعبير عن ذلك يتفاوت من الهدوء الصامت على القسمات ، أو التمتمة الخافتة ، إلى الانغماس المطلق فى الحمية البدنية : الدبدبة بالأقدام والصراخ والصياح ، والانطلاق من جانب إلى آخر ، وتحريك الذراعين بلا هدف ولا نظام ، والبكاء و الضحك ، والسكون والخمول ، وليس شىء من هذا كله جديداً فى العالم ، بل هو قديم قدم الأديان ، كما كان فى ديلفى (*) وأندور ، وكانت قبضتها قوية على الزنوج بحيث كانت أجيال عديدة تعتقد أنها بدون هذه الرؤية البشرية للرب لا يمكن أن يكون هناك ارتباط حقيقى باللامرئى .

(*) ديلفى مدينة قديمة فى وسط اليونان وبها معبد لأبوللو (المترجم) .

كانت هذه خصائص الحياة الدينية للزنجى حتى جاء وقت " التحرير " ، ولما كانت هذه الخصائص فى ظل الظروف المميزة لبيئة الرجل الأسود ، فقد كانت هى التعبير الوحيد عن حياته العليا ، وهى موضوع اهتمام عميق لمن يدرس تطوره الاجتماعى والنفسى على السواء ، وعديدة هى الخطوط الجذابة للبحث التى تتجمع فى هذا المجال ، فماذا كانت العبودية تعنى للأفريقى الهمجى ؟ ماذا كان موقفه من العالم والحياة ؟ ماذا كان يبدو له خير وشر ، إله وشيطان ؟ إلى أين كانت تمضى أشواقه ومساعيه ، وماذا كان يثير رغباته وأين تتحطم أحلامه ؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة لا تأتى إلاّ من دراسة دين الزنوج فى صورته المتطورة ، فى تغيراته التدريجية من الوثنية فى شاطىء الذهب إلى الكنيسة الزنجية المؤسسية فى شيكاغو .

يضاف إلى ذلك أن النمو الدينى للملايين من الأشخاص ، حتى وإن كانوا عبيداً ، لا يمكن إلا أن يكون له أثر محسوس على معاصريهم ، والميثوديون والمعمدانيون فى أمريكا مدينون بكثير من أوضاعهم للتأثير الصامت ولكنه قوى للملايين من الزنوج الذين اعتنقوا عقائد تلك الطوائف ، وهذا مُشاهد بشكل خاص فى الجنوب ، حيث اللاهوت والفلسفة الدينية متخلفة كثيراً عنها فى الشمال ، وحيث دين البيض الفقراء نسخة طبق الأصل من أفكار الزنوج وأساليبهم ، والتراتيل الدينية التى انتشرت فى الكنائس الأمريكية وأفسدت شعورنا بالغناء تتألف فى معظمها من محاكاة سيئة لنغمات الزنوج ، صنعتها آذان التقطت الخشخشة ولم تلتقط الموسيقى ، الجسد وليس الروح ، ومن هذا يتضح أن دراسة دين الزنوج ليست فقط جزءاً جوهرياً من تاريخ الزنوج فى أمريكا ، بل إنها جزء له مكانه فى التاريخ الأمريكى .

وكنيسة الزنوج الحالية هى المركز الاجتماعى لحياة الزنوج فى الولايات المتحدة ، وهى أكثر التعبيرات تمثيلاً للشخصية الأفريقية ، ولنأخذ كنيسة نموذجية فى مدينة صغيرة فى ولاية فرجينيا : إنها " المعمدانية الأولى " مبنى فسيح مبنى بالطوب يتسع لخمسمائة شخص أو أكثر ، تشطيبه حسن الذوق بأخشاب صنوبر جورجيا ، وسجاد ، وأرغن صغير ، ونوافذ بالزجاج المعشق ، وفى الأسفل قاعة اجتماع بها مقاعد طويلة ، وهذا المبنى هو النادى المركزى

لجماعة تتألف من ألف من الزنوج أو أكثر ، وهناك هيئات عديدة تجتمع هنا : الكنيسة الأصلية ، ومدرسة يوم الأحد ، وجمعيتان أو ثلاثة للمساعدة الاجتماعية والجمعيات النسائية ، والجمعيات السرية ، واجتماعات جماهيرية مختلفة الأشكال ، وتعقد بها حلقات السمر ، وتقام حفلات العشاء ، والمحاضرات ، إلى جانب خمس أو ست خدمات دينية منتظمة كل أسبوع ، ويجرى جمع وإنفاق مبالغ كبيرة من المال ، ويتم هناك العثور على عمل للعاطلين ، والتعارف مع الغرباء ، وتنشر الأخبار وتوزع الصدقات ، وفى الوقت نفسه فإن هذا المركز الاجتماعي والفكرى والاقتصادى هو مركز دينى له نفوذ كبير ، فالحرمان ، والخطيئة ، والخلاص ، والجنة والنار ، يتم الحديث عنها مرتين فى يوم الأحد بحماسة شديدة ، وتجرى الاحتفالات فى كل سنة بعد جمع الحصاد ، ولا يوجد غير القليلين من أبناء المجتمع الذين لا يخضعون لكل هذه العادات ، ووراء هذا الدين الشكلى أو الرسمى تقف الكنيسة غالبًا كمحافظ على الأخلاق ، ومدافع عن حياة الأسرة ، وباعتبارها المرجع الأخير بشأن الخير والحق .

وهكذا يمكن للمرء أن يرى فى الكنيسة الزنجية اليوم ، فى صورة مصغرة ، كل ذلك العالم الذى انفصل عنه الزنجى بالتعصب اللونى والوضع الاجتماعى ، ويلاحظ نفس الاتجاه فى كنائس المدن الكبرى ، ويجرى تأكيده فى جوانب متعددة ، فكنيسة كبيرة مثل كنيسة " بيتل أوف فيلادلفيا " تضم أكثر من ١١٠٠ عضو ، ومبناها يتسع لجلوس ١٥٠٠ شخص ، وتقدر مقتنياتها بمائة ألف دولار ، وميزانيتها السنوية خمسة آلاف دولار ، وبها هيئة تتألف من قس رئيس له عدد من المساعدين المحليين ، ومسؤول تنفيذى ومجلس تشريعى وهيئة مالية وأشخاص يجمعون الضرائب ، وتعقد جلسات كنيسة عامة لوضع القوانين ، وتقسم المجموعات إلى أقسام لكل منها قائد مسؤول ، وفرقة ميليشيا ، و ٢٤ جمعية فرعية ، ونشاط كنيسة كهذه متعدد الجوانب وبعيد المدى ، والقساوسة الذين يشرفون عل هذه المنظمات فى كل أنحاء البلد هم من بين أقوى الحكام الزنوج فى العالم .

وهذه الكنائس هى فى الواقع حكومات ، وبقليل من البحث يتبين أن كل زنجى أمريكى ، فى الجنوب على الأقل ، هو عضو فى كنيسة ، وبعضهم بطبيعة الحال ليسوا مسجلين بصورة نظامية ، وقليلون لا يحضرون الخدمات الدينية بصورة منتظمة ، ولكن فى الواقع العملى فإن كل من يتعاملون معًا يجب أن يكون لهم مركز اجتماعى ، وهذا المركز لهؤلاء الناس هو كنيسة الزنوج ، وقد بين تعداد سنة ١٨٩٠ وجود مايقرب من ٢٤ ألف كنيسة زنجية فى الولايات المتحدة ، ويبلغ إجمالى المنتمين إليها أكثر من مليونين ونصف المليون ، أى عشرة أعضاء فى الكنيسة من بين كل ٢٨ شخصا ، وتبلغ النسبة فى بعض ولايات الجنوب واحداً من كل شخصين ، وإلى جانب هؤلاء هناك العدد الكبير الذى يحضر ويشارك فى كثير من أنشطة الكنيسة ، وإن كانوا ليسوا من الأعضاء المسجلين بها ، وهناك كنيسة زنجية منظمة لكل ٦٠ أسرة زنجية ، وفى بعض الولايات لكل أربعين أسرة ، وهى تملك فى المتوسط ممتلكات تبلغ قيمتها ألف دولار لكل منها ، أى ما يقرب من ٢٦ مليون دولار فى المجموع .

هذا إذن هو التطور الكبير الذى شهدته الكنيسة الزنجية منذ " التحرير " ، والسؤال الآن هو : ماذا كانت الخطوات المتتابعة لهذا التاريخ الاجتماعى وما هى الاتجاهات الراهنة ؟ أولاً : يجب أن ندرك أنه ما كان لمؤسسة مثل كنيسة الزنوج أن تزدهر بدون أن يكون لها أساس تاريخى ، ونحن نستطيع أن نجد هذا الأساس إذا تذكرنا أن التاريخ الاجتماعى للزنوج لم يبدأ فى أمريكا ، فقد جيء بالزنوج من بيئة اجتماعية محددة ، حياة العشيرة متعددة الزوجات تحت قيادة الرئيس والنفوذ الواسع للكاهن ، وكان دينهم هو عبادة الطبيعة ، والإيمان العميق بالمؤثرات المحيطة غير المرئية ، الخيرة والشريرة ، وكانت عبادتهم تتم من خلال التعاويذ والتضحيات ، وكان أول تغيير فظ فى هذه الحياة هو سفينة العبيد وحقول القصب فى الويست أنديز ، وحل التنظيم القائم فى المزرعة محل العشيرة والقبيلة ، وحل السيد الأبيض محل رئيس العشيرة مع سلطة أكبر وأكثر استبداداً ، وأصبح العمل الإجبارى والمستمر لساعات طويلة هو قاعدة الحياة ، واختفت الروابط القديمة لعلاقة الدم والقرابة ، وبدلاً من الأسرة ظهرت علاقات تقوم على تعدد الزوجات وتعدد الأزواج وصلت فى

بعض الحالات إلى ما يشبه الإباحة الجنسية ، و كان ذلك انقلاباً اجتماعياً مرعباً ، ومع ذلك تم الاحتفاظ ببعض آثار الحياة الاجتماعية السابقة ، وكانت المؤسسة الرئيسة الباقية هي وجود الكاهن أو الرجل العارف بالطب ، وقد ظهر في وقت مبكر في المزارع فوجد مهمة تنتظره ، وهي علاج المرضى ، وتفسير المجهول ، وتعزية الحزانى ، والدعوى للانتقام للمظلومين ، والشخص الذى يعبر بصورة مرئية عن الأشواق ، وخيبة الآمال ، والرفض من جانب أناس تم اختطافهم واخضاعهم بالقوة ، وهكذا ظهر الواعظ الزنجي ، كطبيب وقاض وكاهن ومغن ، في الحدود الضيقة التي يسمح بها نظام الاستعباد ، وظهرت تحت قيادته أول مؤسسة للأمريكيين الأفارقة ، وهي كنيسة الزنوج ولم تكن هذه الكنيسة في البداية مسيحية بأى حال ، ولا كانت منظمة تنظيماً محكماً ، وإنما كانت تطويعاً ومزجا للطقوس الوثنية بين أعضاء كل مزرعة ، وأدى التعامل مع السادة ، والجهود التبشيرية ودوافع الملاءمة إلى إعطاء هذه الطقوس قشرة مبكرة من المسيحية ، وبعد انقضاء أجيال عديدة أصبحت الكنيسة الزنجية كنيسة مسيحية ، وهناك أمران مميزان يجب ملاحظتهما بشأن هذه الكنيسة ، الأول : أنها أصبحت بكاملها تقريبا معمدانية وميثودية في العقيدة ، والثاني : أنها كمؤسسة اجتماعية سبقت بعشرات السنين البيت الزنجي القائم على الزواج الفردى ، ولظروف نشأتها الأولى كانت الكنيسة مقصورة على المزرعة ، وتتألف في المقام الأول من سلسلة من الوحدات غير المتصلة ، وإن كان قد سمح في وقت لاحق بقدر من حرية الحركة ، ولكن هذا القيد الجغرافي كان دائما قيداً هاماً وكان من أسباب انتشار العقيدة المعمدانية اللامركزية والديمقراطية بين العبيد ، وفي الوقت نفسه فإن الطقس المرئي للعماد كان له تأثير قوى على استعدادهم الغيبي ، واليوم ما زالت الكنيسة المعمدانية هي أكبر الكنائس من حيث الأعضاء بين الزنوج ، ويلتحق بها مليون ونصف مليون عضو ، ثم تأتي في المقام التالي من الشعبية الكنائس التي نظمت بالاتصال مع الكنائس البيضاء المجاورة ، وفي المقام الأول الكنائس المعمدانية والميثودية ، مع وجود عدد قليل من الكنائس الإرسالية **Episcopalian** وغيرها ، ومازالت الكنيسة الميثودية تحتل الموقع الثاني ، ويبلغ عدد أعضائها حوالي المليون ، وكانت عقيدة هاتين الطائفتين أكثر ملاءمة لكنيسة العبيد فيما

توليه من الأهمية للمشاعر الدينية والحماس الديني ، وكان الانتماء الزنجى للطوائف الأخرى ضئيلاً دائمًا وقليل الأهمية نسبيًا ، وإن كان الإرساليون والبريسبتيريانيون يكتسبون أعضاء جدًا بين الطبقات الأكثر تفتحًا اليوم ، وتحقق الكنيسة الكاثوليكية تقدما بين فئات معينة ، وبعد " التحرير " ، وفى وقت أسبق فى الشمال ، قطعت الكنائس السوداء تقريباً ما كان لها من ارتباط بالكنائس البيضاء - سواء كانت راضية عن ذلك أو كارهة - وأصبحت الكنائس المعمدانية مستقلة ، ولكنّ الكنائس الميثودية اضطرت فى وقت مبكر إلى الاتحاد لأغراض توحيد العمل التنظيمى للكنيسة ، وأدى هذا إلى ظهور الكنيسة الميثودية الأفريقية الكبرى ، وهى أكبر تنظيم للزنوج فى العالم ، وإلى ظهور الكنيسة الصهيونية ، والكنيسة الميثودية للملونين ، و المؤتمرات والكنائس السوداء التى تسير فى هذا التيار أو غيره .

الحقيقة الظاهرة الثانية ، هى أن الكنيسة الزنجية سبقت البيت الزنجى ، وذلك يفسر جانبًا كبيرًا مما يبدو متناقضًا فى هذه المؤسسة الدينية وفى أخلاقيات أعضائها ، ولكنها تقودنا على الخصوص إلى النظر إلى هذه المؤسسة على أنها تعبير متميز عن الحياة الأخلاقية الداخلية للشعب ، وذلك بمعنى نادراً ما يصدُق فى أى مجال آخر ، ودعونا ننتقل إذن من التطور المادى الخارجى للكنيسة إلى الحياة الخلقية الداخلية الأكثر أهمية للأشخاص الذين تتألف منهم ، لقد سبق أن وصف الزنجى كثيراً بأنه حيوان دينى كائن له تلك الطبيعة العاطفية العميقة التى تتجه غريزياً نحو ما فوق الطبيعة ، فالأفريقى الذى نقل من بيئته ، والمتمتع بخيال استوائى غنى وشعور قوى ومرهف بالطبيعة ، كان يعيش فى عالم حافل بالآلهة والشياطين ، بالكائنات الخفية والساحرات ، عالم زاخر بتأثيرات غريبة : الخير الذى يطلب والشر الذى يتقى ، وعلى ذلك كان الاستعباد بالنسبة له انتصاراً أسود للشر عليه ، فكل القوى البغيضة فى العالم السفلى تسعى للإضرار به ، وملأ قلبه شعور بالرفض والانتقام ، واستدعى كل موارد الوثنية لتعينه : السحر والشعوذة وعبادة " أوبي " الخفية بطقوسها الهمجية وتعاويذها ، وحتى تضحية الدم ، من حين لآخر فى صورة الضحايا البشرية ، ولجأ الزنوج إلى حفلات منتصف

الليل الداعرة والأساليب الغيبية ، وأصبحت المرأة الساحرة والكاهن المشعوذ مركزًا لحياة الزنجي الجماعية ، وذلك الإيمان الغامض بالخوارق الذى يميز الزنوج غير المتعلمين حتى اليوم ، وقد ازداد عمقا وقوة .

مع ذلك ، وعلى الرغم من النجاح الذى حققته طوائف المارون (*) والسود الهولنديين وغيرها من دعاة العنف ، هدأت روح القوة بالتدريج تحت السيطرة المستمرة والقوة المتفوقة لسادة العبيد ، وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كان العبد الأسود قد سقط ، مع تمتمات مكبوتة ، إلى مكانه فى قاع نظام اقتصادى جديد ، وأصبح بغير وعى مهيئا لقبول فلسفة جديدة للحياة ، ولم يكن هناك ما يناسب وضعه أفضل من عقيدة الخضوع السلبى المتمثلة فى المسيحية التى تعلمها حديثًا ، وأدرك ذلك سادة العبيد فى وقت مبكر ، ورحبوا بنشر الدعاية الدينية فى حدود معينة ، ومال النظام الذى استمر طويلا "لقمع الزنوج" وإذلالهم إلى تأكيد تلك العناصر فى طبيعته التي جعلت منه تابعًا ثمينًا : فالمجاملة أصبحت خضوعًا ، وقوة الأخلاق انحدرت فأصبحت مذلة ، والإدراك الطبيعى للجمال تحول إلى قدرة لا نهائية على المعاناة فى صمت ، وعندما فقد الزنجي المتعة فى هذا العالم ، تمسك بقوة بما طرح عليه من مفاهيم المتعة فى العالم الآخر ، فروح الرب المنتقمة تحتاج إلى الصبر فى هذا العالم فى ظل الحزن والأسى إلى أن يأتى اليوم العظيم الذى سيقود فيه الإله أبناءه السود إلى دارهم ، وأصبح هذا هو حلمه الذى يخفف أحزانه ، وكان الواعظ يكرر نبوءته ، وكانت التراتيل تقول :

" أيها الأبناء ، إننا جميعا سنصبح أحرارًا ، عندما يظهر الرب " .

هذه القدرية الدينية العميقة ، التى رُسمت رسمًا جميلاً فى " العم توم " لم تلبث أن أوجدت – كما يفعل كل إيمان قدرى – الراغب فى المتعة الحسية إلى جانب الشهيد ، وفى ظل الحياة الأخلاقية المتساهلة فى المزرعة ، حيث كان الزواج أضحوكة ، والكسل فضيلة ، والملكية سرقة ، تحول دين القبول

(*) المارون وصف يطلق على جماعة من الزنوج كانوا فى الأصل من العبيد الهاربين الذين يعيشون فى المناطق المهجورة فى الأنديز الغربية وغيانا (المترجم) .

والخضوع ، فى العقول غير المتشددة ، إلى فلسفة الاستمتاع والجريمة ، والكثير من الخصائص السيئة لدى عامة الزنوج اليوم ترجع جذورها إلى هذه الفترة من النمو الأخلاقى للعبيد ، وهنا دُمر " البيت " تحت ظل الكنيسة ، البيضاء والسوداء ، وهنا نبتت جذور اللامبالاة ، وحل اليأس المطبق محل الجهد المبنى على الأمل .

ومع بداية حركة الإلغاء (*) والنمو التدريجى لطبقة من الزنوج الأحرار حدث تغيير ، ونحن كثيراً ما ننسى تأثير الرجل الذى أحرز حريته قبل الحرب ، بسبب قلة أعداده والوزن الضئيل الذى كان له فى تاريخ الأمة ، ولكننا يجب ألا ننسى أن تأثيره الرئيس كان داخلياً فقد مارسه على العالم الأسود فى ذاته ، وكان هو القائد الأخلاقى والاجتماعى ، وبالرغم من أن جموع الرجال الذين تحرروا تكدست فى مراكز قليلة مثل فيلادلفيا ونيويورك ونيو أورليانز ، فقد سقطت فى وهدة الفقر واللا مبالاة ، ولكن ذلك لم يكن حالهم جميعًا ، وسرعان ما ظهر القائد الزنجى المتحرر ، وكانت سمته الرئيسة الحماسة الزائدة والشعور العميق بشأن قضية العبودية ، فالحرية أصبحت لديه حقيقة واقعة وليست حلمًا ، وأصبح دينه أكثر اصطباغا باللون الأسود وأكثر كثافة ، وإلى أخلاقياته تسللت نغمة من الانتقام ، وإلى أغانيه إشارات إلى يوم الحساب القريب ، ولم يعد " مجىء الرب " مرتبطًا بالموت بل أصبح شيئا مأمولا فى الحاضرة ، ومن خلال العبيد الهاربين والمناقشات المتدفقة أصبحت هذه الرغبة فى الحرية أمل ملايين السود الذين مازالوا فى قيود الاستعباد ، وغدت هى مثلهم الأعلى الوحيد فى الحياة ، واكتسبت أغانى السود نغمات جديدة ، بل وتجاسرت أحيانا على أن تغنى .

" أيتها الحرية ، أيتها الحرية ، ! إنى قبل أن أكون عبداً سيكونون قد وارونى التراب ، وسأذهب إلى بيت أبى ، وأصبح حرا " .

وعلى امتداد خمسين عاما تغير طابع دين الزنوج وتوحد مع حلم إلغاء

(*) حركة ظهرت فى الولايات المتحدة ودول أخرى ترمى إلى إلغاء العبودية ، وقد نشرت الكثير من الصحف والمجلات والكتب ومن بينها القصة المعروفة " كوخ العم توم " (المترجم) .

العبودية ، إلى أن أصبح ما كان موجة راديكالية فى الشمال الأبيض ومؤامرة فوضوية فى الجنوب الأبيض دينًا للعالم الأسود ، وعلى ذلك فعندما جاء " التحرير " فى نهاية المطاف بدا للعبد الذى تحرر " مجيئا للرب " حرفيًا ، وقد أثير خياله المحموم كما لم يحدث من قبل ، على صوت خطوات الجنود ، والدم والغبار فى المعارك ، ودوامة التغيير الاجتماعى ، لقد وقف فاغرًا فاه وبلا حركة أمام الدوامة الكاسحة : فماذا يفعل بها ؟ أليست من صنع الله ، أليست رائعة فى عينيه؟ وإذ شعر بالغبطة والحيرة إزاء ما حدث، وقف ينتظر أعاجيب أخرى، إلى أن جاء عصر الردة الحتمى واجتاح الأمة، وجاء معه بالأزمة الراهنة .

ومن الصعب أن نصف بوضوح المرحلة الحالية الحرجة فى دين الزنوج ، فأولاً : يجب أن نتذكر أنه من خلال العيش فى اتصال وثيق مع الأمة الحديثة العظيمة كما يفعل الزنوج ، والمشاركة - وإن كانت ليست كاملة - فى الحياة الروحية لتلك الأمة، كان لابد لهم أن يتأثروا - بشكل مباشر بدرجة أو أخرى - بكل القوى الدينية والأخلاقية التي تحرك الولايات المتحدة اليوم ، ولكن كل هذه الأسئلة والحركات لم تلبث أن أزاحتها وقللت من حجمها المسألة باللغة الأهمية (لهم) مسألة وضعهم المدنى والسياسى والاقتصادى فهم يجب أن يناقشوا بلا توقف " مشكلة الزنوج " يجب أن يعيشوا فيها ، ويتحركوا فيها ، ويكون وجودهم بها ، ويفسروا كل شيء غيرها على ضوئها أو عتمتها ، ومع هذا تأتى أيضا مشاكل خاصة بحياتهم الداخلية ، خاصة بمركز المرأة ، وحماية "البيت" وتعليم الأطفال ، وجمع الثروة ، ومنع الجريمة ، وكل هذا لابد أن يعنى البناء الأخلاقى المكثف ، والفحص الدينى للقلب ، والقلق الفكرى ، ومن الحياة المزدوجة التى لا مفر لأى زنجى أمريكى من أن يعيشها ، كزنجى وكأمريكى ، باعتباره مدفوعًا بتيار القرن التاسع عشر بينما لا يزال يناضل فى أحابيل القرن الخامس عشر ، من هذه الحياة لابد أن ينشأ وعى مؤلم بالذات ، شعور يكاد يكون مرضيا بالشخصية ، وتردد معنوى كفيل بقتل الثقة بالنفس ، إن العالمين داخل " حجاب اللون " وخارجه آخذان فى التغير ، والتغير السريع ، ولكن ليس بنفس المعدل ، وليس بنفس الطريقة ، ولابد أن ينتج عن ذلك ألم خاص للروح ، شعور خاص بالشك والحيرة ، فهذه الحياة المزدوجة ، بأفكار

مزدوجة ، وواجبات مزدوجة ، وطبقات اجتماعية مزدوجة ، لابد أن تؤدى إلى ظهور كلمات مزدوجة ومثل عليا مزدوجة ، وتغرى العقل بالتظاهر أو الاعتراض ، بالنفاق أو التطرف .

وفى بعض هذه الكلمات والعبارات المتشككة يستطيع المرء أن يصور بوضوح التناقض الأخلاقى الخاص الذى يواجه الزنجى اليوم والذى يلون ويغير حياته الدينية ، فهو إذ يشعر بأن حقوقه وأعز مثله تداس بالأقدام ، وأن الضمير العام يزداد صمماً ولا يستمع إلى ندائه العادل ، وأن كل قوى الرجعية المتمثلة فى التعصب والجشع والانتقام تزداد قوة فى كل يوم وتكتسب حلفاء جدداً ، فإن الزنجي يواجه معضلة لا يحسد عليها ، وهو إذ يعى عجزه ، ويغلب عليه التشاؤم كثيراً ما يغلب عليه الشعور بالمرارة والرغبة فى الانتقام ، وبدلا من أن يكون دينه عبادة فإنه يتحول إلى شكوى ولعنة ، صرخة ألم بدلاً من صيحة أمل ، وفخ بدلا من إيمان ، ومن ناحية أخرى ، هناك نوع آخر من العقول ، أكثر ذكاء وحرصًا ، وأكثر عذابًا أيضًا ، ترى فى قوة الحركة المناهضة للزنوج علامة ضعفها ، ولا تجد اعتبارات أخلاقية تحول دون السعى إلى تحويل ضعف الرجل الأسود إلى قوة ، وهكذا نجد خيارين للفكر وللسعى الأخلاقى يصعب التوفيق بينهما ، وخطر أحدهما يتمثل فى الفوضى وخطر الآخر يتمثل فى النفاق ، فالنوع الأول من الزنوج يقف وكأنه على استعداد لأن يلعن الإله ويموت ، وكثيراً ما يتبين أن الآخر خائن للحق وجبان أمام القوة ، الأول متشبث بمثل نائية ، متقلبة ، وربما مستحيلة التحقق ، والآخر ينسى أن الحياة ليست مجرد طعام وأن الجسد ليس مجرد رداء ، ولكن أليس هذا فى نهاية الأمر هو الألم الممض فى هذا العصر وقد ترجم إلى اللون الأسود ، هو انتصار الأكاذيب الذى يواجه اليوم بثقافته الزائفة ، بشاعة السفاح الفوضوى ؟

إن هاتين المجموعتين من الزنوج ، واحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، تمثلان اليوم هذين الاتجاهين الأخلاقيين المختلفين ، الأول يميل إلى التطرف ، والآخر يميل إلى الحلول الوسط القائمة علي النفاق ، وليس من المستغرب أن البيض فى الجنوب يأسفون على فقد زنوج الزمن الماضى ؛

الزنجى الصريح ، الأمين ، الخادم القديم البسيط الذى مثل العصر الدينى السابق القائم على الخضوع والتواضع ، فرغم ما كان يتسم به من كسل وافتقار لكثير من عناصر الرجولة الحقة ، كان على الأقل ذا قلب مفتوح ، مخلصا وأمينا ، أما اليوم فقد ذهب ، ولكن من الملوم على ذهابه ؟ أليس هم نفس هؤلاء الأشخاص الذين يتحسرون عليه ؟ أليس هو الاتجاه ، الناتج عن " إعادة البناء " والرجوع إلى الوراء ، الرامى إلى إقامة مجتمع مبنى على انعدام القانون والخداع ، والتلاعب بالنسيج الخلقى لأناس هم بطبيعتهم أمناء ومستقيمون إلى حد أن يصبح البيض مستبدين لا ضابط لهم ويصبح السود مجرمين ومنافقين ؟ إن الخداع هو الدفاع الطبيعى للضعيف فى مواجهة القوى ، وقد استخدمه الجنوب لسنوات طويلة ضد غزاته ، وهو اليوم يجب أن يستعد ليرى فقراء السود يوجهون إليه نفس السلاح ذى الحدين ، وهذا أمر طبيعى ! وقد أثبت موت دنمارك فيشى ونات تيرنر للزنوج منذ أمد طويل ألا جدوى من الدفاع المادى ، والدفاع السياسى لم يعد متاحًا لدرجة أكثر فأكثر ، والدفاع الاقتصادى لم يحقق حتى الآن غير فاعلية محدودة ، ولكن ثمه دفاع قوى ومتاح : الدفاع بالخداع والتملق ، بالمداهنة والكذب ، وهو نفس الدفاع الذى استخدمه الفلاحون فى القرون الوسطى ، والذى ترك بصمته على شخصياتهم لسنوات طويلة ، واليوم فإن الشاب الزنجى فى الجنوب ، الذى يرغب فى النجاح ، لا يمكن أن يكون صريحًا ومعلنًا لرأيه ، أمينًا ومتمسكًا بوجهة نظره ، بل إنه يجد إغراء كل يوم لأن يظل صامتًا ومحاذرًا ، مداهنًا وماكرًا إنه مضطر لأن يتملق ويتظرف ، وأن يتقبل الرهانات البسيطة بابتسامة ، وأن يغمض عينيه عن الخطأ ، وهو فى حالات كثيرة يرى مكسبًا شخصيًا إيجابيًا فى الخداع والكذب ، أما أفكاره الحقيقية ، وآماله الحقيقية ، فيجب أن يخفيها وألا يعبر عنها إلاّ بهمسة ، لا يجوز له أن ينتقد ، ولا يحق له أن يشكو ، إن الصبر ، والخضوع ، والمداهنة يجب أن تحل لدى هؤلاء الشبان السود محل النوازع الحقيقية ، والرجولة ، والشجاعة ، وبهذه التضحية تتاح للشاب فرصة فى مجال الاقتصاد ، وربما يحصل على السلام وقدر من الرخاء ، وبغير ذلك

هناك الشغب ، أو الهجرة ، أو الجريمة ، وليس هذا الوضع خاصاً فى الولايات المتحدة الجنوبية ، أو ليس هذا هو الأسلوب الوحيد الذى كسبت به الشعوب المقهورة حقها فى المشاركة فى الثقافة الحديثة ؟ إن ثمن الثقافة هو " كذبة " .

من ناحية أخرى ، الاتجاه فى الشمال هو تأكيد التطرف لدى الزنجى ، فهو إذ يطرد من مكان مولده فى الجنوب نتيجة لوضع يرفضه كل وتر فى جسده بطبيعته الصريحة ، يجد نفسه فى أرض لا يكاد يستطيع أن يكسب فيها حياة كريمة فى ظل المنافسة الشرسة والتمييز اللونى ، وفى الوقت نفسه فإنه ، عن طريق المدارس والصحف والدوريات ، والمناقشات والمحاضرات ، يجرى تحريك ذهنه وإيقاظه ، إن الروح التى طال ضغطها وحبسها فى قمقم تتفتح على حين غرة وتتسع فى ظل الحرية التيى اكتسبت حديثًا ، أى غرابة فى أن تكون كل الاتجاهات هى اتجاهات متطرفة : الشكوى المتطرفة ، والعلاجات المتطرفة ، الرفض المرير أو الصمت الغاضب ، البعض يغرقون والبعض يرتفعون ، المجرم والجارى وراء الشهوات يهجران الكنيسة فيلجآن إلى جحيم القمار وبيت الدعارة ، يملآن عشوائيات شيكاغو بلتيمور ، أما الطبقات الأفضل فتتجمع خارجة من حياة الجماعة للبيض والسود على السواء ، وتشكل أرستقراطية ، مثقفة ولكنها متشائمة ، نقدها المرير يلسع ولكنه لا يشير إلى طريق للهرب ، إنهم يحتقرون الخضوع والخنوع من جانب زنوج الجنوب ، ولكنهم لا يطرحون وسيلة أخرى تستطيع بها الأقلية الفقيرة المضطهدة أن تعيش جنبا إلى جنب مع السادة ، إنهم يشعرون بعمق وبشدة بالاتجاهات والفرص التى يتيحها العصر الذى يعيشون فيه ، تشعر أرواحهم بالمرارة للمصير الذى يحول دونه " الحجاب " ، ولما كانت هذه المرارة طبيعية ولها ما يبررها فذلك لا يزيدها إلا كثافة ويجعلها أكثر مدعاة للغيظ والجنون .

وبين هذين النوعين المتطرفين من المواقف الأخلاقية التي حاولت أن أصفها تتردد جموع الملايين من الزنوج ، فى الشمال والجنوب ، وحياتهم الدينية ونشاطهم العقائدى يمثل هذا الصراع الاجتماعى الدائر داخل صفوفهم ، وقد بدأت كنائسهم تتمايز فبعض الجماعات تتخذ موقفًا هادئًا شأن المؤمنين

التقليديين ، والذين لا شيء يميزهم عن أمثالهم من جماعات البيض فيما عدا لون الجلد ، وهناك مؤسسات اجتماعية وعملية كبيرة تسعى لتحقيق رغبة أعضائها فى الراحة والاسترخاء ، تعمل بحرص على تجنب المسائل غير المريحة سواء داخل العالم الأسود وخارجه ، ودعوتها فى الواقع إن لم يكن فى الكلام : فليحفظنا اللّه وليرحمنا .

ولكن وراء كل هذا مازال يظهر صامتًا الشعور الدينى العميق للقلب الزنجى الحقيقى ، تلك القوة المثيرة المنطلقة للنفوس البشرية القوية التي فقدت نجم الماضى الذى كانت تهتدى به وتبحث فى الليل الفسيح عن مثل دينى جديد ، وفى يوم من الأيام ستأتى " اليقظة " عندما تندفع القوة الكامنة فى عشرة ملايين إنسان وتنطلق بقوة لاراد لها نحو " الهدف " ، خارجة من وادى شبح الموت إلي حيث كل ما يجعل الحياة تستحق أن نحياها - الحرية ، والعدالة ، والحق - وستدمر اللافتة التى كتب عليها " هذا من أجل البيض وحدهم " .

الفصل الحادى عشر

عن موت أول الأبناء

" لقد ولد لك طفل" هكذا كانت العبارة على قطعة من الورق الأصفر تخفق فى غرفتى فى صباح يوم هادئ من أيام أكتوبر، وبعد ذلك اختلط الخوف من مسؤولية الأبوة ببهجة الخلق، واحترت كيف يكون شكله وكيف يكون ملمسه، ما لون عينيه، وكيف يتجمع شعره ويتجعد حول نفسه، وفكرت بها فى جزع، هى التى عانت الموت لتنتزع طفلاً من تحت قلبها، بينما كنت أنا أكاد أكون غائباً عن الوعى، وأسرعت إلى زوجتى وطفلى، وأنا أردد لنفسى متعجبا "الزوجة والطفل؟ الزوجة والطفل؟" وطرت أسرع من السفينة ومن الزورق البخارى، ومع ذلك يجب أن أنتظرهما بفارغ الصبر، بعيداً عن المدينة أجشة الصوت، بعيداً عن البحر الخضم، وفى مكانى فى بركشاير هيلز التى تقبع حزينة فى حراسة بوابات ماسوشستس .

قفزت الدرجات مسرعًا إلى الأم المرهقة والرضيع الذى يئن، إلى المعبد الذى على مذبحه وجدت حياة بناء على طلبى وهى الآن تطلب أن تعيش، وقد عاشت، ما هذا الشىء الصغير الذى لا شكل له، ما هذا العويل المولود حديثًا من عالم مجهول كله رأس وصوت؟ أحمله بين يدى مستغرباً، وأراقب حائراً غمزات عينيه وتنفسه وعطفه، إننى لم أحبه عند ذاك، بدا لى شيئًا من المضحك أن يُحب، ولكنها هى أحببتها، الفتاة الأم، التى رأيتها الآن تتجلى كروعة الصباح المرأة التى تغير كيانها .

من خلالها أحببت هذا الشىء الضئيل، مع نموه واكتسابه قوة، ومع تكشف روحه فى الغمغمة والصياح والكلمات المتكسرة، وعندما بدأت عيناه تلتقطان أشعة الحياة وأضوائها، وكم كان جميلاً فى لحمه الذى بلون الزيتون ودوائر شعره الذهبية القاتمة، وعينيه اللتين تمزجان بين الأزرق والبنى، وأطرافه الصغيرة المكتملة الاستدارة القوية

الناعمة التى وضعها دم أفريقيا فى قسماته ! حملته بين ذراعى، بعد أن سارعنا بعيداً إلى مسكننا الجنوبى، حملته وتطلعت إلى التربة الحمراء الحارة فى جورجيا والمدينة المختنقة بين مائة تل، وشعرت بقلق غامض، لماذا شعره مصبوغ بالذهب؟ لقد كان الشعر الذهبى فألاً سيئًا فى حياتى، لماذا لم يسحق اللون البنى فى عينيه الأزرق ويقضى عليه؟ لأن البنى كان لون عينى أبيه، وعينى أبى أبيه، وهكذا رأيت، فى أرض خط اللون، ظل "الحجاب" وهو يسقط على وليدى .

قلت لنفسى لقد ولد داخل الحجاب وهناك فى داخله سوف يعيش زنجيًا وابن زنجى، وهو يحمل فى رأسه الصغير هذا – ويا للمرارة ! – الكبرياء الذى لا ينحنى لجنس مطارد، ويتمسك بيده الصغيرة المغضنة – ويا لضعفها! – بأمل ليس ميئوسًا منه لكنه بعيد عن الأمل، ويرى بهاتين العينين البراقتين المتسائلتين اللتين تتطلعان إلى روحى، حريتنا فيها خداع وانطلاقنا أكذوبة، رأيت ظل "الحجاب" وهو يمر على وليدى، رأيت المدينة الباردة تطل بأبراجها على الأرض الحمراء كالدم، ووضعت وجهى إلى جانب خده الصغير، وأريته أطفال النجوم والأضواء المتراقصة عندما بدأت ترسل أشعتها .

وقد نما قويًا ومتمكنًا، ذاخرًا بالحياة المضطرمة، كاشفًا عن حكمة غير منطوقة فهو لم يتجاوز بعد ثمانية عشر شهراً، أفلم يكن قد مضى علينا وقت طويل ونحن نحتفى بهذا التجلى للخالق، زوجتى وأنا، لقد بنت حياتها نفسها وشكلتها تبعًا للطفل، بل إنه شكل أحلامها وجعل من كل جهد لها مثلاً أعلى، لا يجوز لأى أيد غير يديها أن تلمس تلك الأطراف الصغيرة وتنظفها، لا يجوز أن تمسه أردية أو ملابس لم تتعب فى صنعها أصابعها، لا صوت غير صوتها يحمله هانئًا إلى دنيا الأحلام، وهى وهو يتكلمان معا لغة ناعمة مجهولة وفيها يكمن الاتصال، وكنت أفكر أيضا وأنا منحن فوق الفراش الأبيض الصغير، رأيت قوة ذراعى ممتدة إلى الأمام عبر العصور من خلال هذه القوة الجديدة المتمثلة فى الصغير، رأيت حلم آبائى السود يترنح خطوة إلى الأمام فى وهم العالم الصاخب، وسمعت فى صوته الصغير صوت النبى الذى ارتفع داخل "الحجاب".

وهكذا حلمنا وأحببنا وخططنا فى الخريف والشتاء، وكل زهوة الربيع الجنوبى الطويل، إلى أن بدأت الرياح الساخنة تهب من الخليج(*) النتن، حتى اقشعرت الورود وأرسلت الشمس القاسية الساكنة قوة ضوئها على تلال أتلانتا، ثم حدث ذات مساء أن مضت القدمان الصغيرتان بمشقة إلى الفراش الصغير الأبيض، وارتعشت اليدان الصغيرتان، وأخذ الوجه الدافئ المحمر يتقلب فوق الوسادة، وعرفنا أن الطفل مريض، عشرة أيام ظل راقداً هناك : أسبوع طويل وثلاثة أيام لا نهاية لها، يصيبه الهزال، ويزداد نحافة كل يوم، فى الأيام الأولى أخذت أمه تمرضه مبتهجة، كانت تضحك للعينين الصغيرتين اللتين كانتا تردان لها الابتسام، ثم أخذت تحوم حوله بحنان، إلى أن غابت البسمة وأخذ الخوف يرقد إلى جانب الفراش الصغير.

ثم جاء يوم لا ينتهى، وجاء ليل كان رعباً بلا أحلام، وانقضت البهجة وذهب النوم، وإنى أسمع الآن ذلك الصوت فى منتصف الليل ينادينى من غفوة قاتمة وغير حالمة يصيح "إنه شبح الموت ! شبح الموت !" وخرجت تحت ضوء النجوم، لأوقظ الطبيب، شبح الموت، شبح الموت، ومضت الساعات تترنح، والليل يصغى، وتسلل الفجر القبيح كشىء متعب عبر نور المصباح، ثم كنا نحن الاثنين وحدنا ننظر إلى الطفل وهو ينظر نحونا بعينين متسعتين ويمد يدينا كالأوتار : شبح الموت ! ولم نقل كلمة، وتحولنا بعيدا.

مات فى غبشة المساء، عندما ترقد الشمس كأنها حزن مخيم فوق التلال الغربية، تظلل الوجوه بأشعتها، عندما لا تتحدث الرياح، عندما كانت الأشجار - الأشجار الكبيرة الخضراء التى أحبها - تقف بلا حراك، لقد رأيت نفسه يزداد سرعة، ثم يهدأ، ثم قفزت روحه الصغيرة كنجم يرحل فى الليل ويترك عالماً من الظلمة وراءه، لم يتغير اليوم، وأطلت بعض الأشجار العالية من النوافذ، ونما العشب الأخضر نفسه فى الشمس الغاربة. فقط فى غرفة الموت يتلوى أحق شىء بالعطف فى الوجود أم فقدت طفلها .

(*) فى داخل الولايات المتحدة يقصد به خليج المكسيك، وتطل عليه ولايات فلوريدا، ألاباما، مسيسيبى، لويزيانا، تكساس (المترجم) .

أنا لا أتهرب، أنا أتوق للعمل، أنا أتشوق لحياة مليئة بالنضال، أنا لست جبانًا، أنكمش أمام الاندفاع الصاخب للعاصفة، ولا أرتعد حتى أمام الظل المرعب لـ "الحجاب"، ولكن هاهو الموت ! أليست حياتى هذه قاسية بما يكفى، أو ليست الأرض الخواء التى تمد خيوطها القاسية حولى باردة بما يكفى، أليس العالم كله خارج هذه الجدران الأربعة الصغيرة قاسيًا بما يكفى، حتى تأتى أنت أيضًا وتدخل هنا : أنت، أيها الموت؟ حول رأسى كانت العاصفة المرعبة تدوى كصوت بلا قلب، وكانت الغابة المجنونة تنبض بلعنات الضعاف، ولكن ماذا يعنينى أنا، داخل بيتى إلى جانب زوجتى وابنى الرضيع؟ هل حسدتنا إلى هذا الحد على هذه القطعة الصغيرة من السعادة حتى تدخل إلى هنا : أنت، أيها الموت؟

لقد كانت حياته حياة كاملة، كلها بهجة وحب، والدموع تجعلها أكثر بريقا عذبة كيوم من أيام الصيف فى حضن الجبل، لقد أحبه العالم، وكانت النساء يقبلن خصلات شعره، والرجال ينظرون بحزن فى عينيه البديعتين، والأطفال يحلقون ويرفرفون حوله، وأستطيع أن أراه الآن وهو يتغير كالسماء من الضحك المتلألئ إلى التجهم والقتامة، ثم إلى التأمل والتطلع وهو يراقب العالم، إنه لم يعرف خطا للون هذا الصغير العزيز، ولم يعرف "الحجاب" وإن كان قد أظله، لم يكن قد أظلم بعد نصف شمسه، كان يحب راعيته البيضاء، ويحب ممرضته السوداء، وفى عالمه الصغير لم تكن تمشى الأرواح، بلا لون ولا ملبس، إنى – بل وكل الرجال – بت أكبر وأنقى فى الاتساع اللانهائى لتلك الحياة الصغيرة الواحدة، لقد صاحت تلك التى تمتد رؤيتها البسيطة الواضحة إلى ما وراء النجوم عندما انطلق إلى الفضاء "إنه سيكون سعيداً هناك، لقد أحب دائما الأشياء الجميلة"، وأنا – بجهلى وبعمى بصيرتى الذى أنسجه بنفسى – أجلس وحيدا أغزل الكلمات وأتمتم "إذا كان لا يزال موجودا، إذا كان موجودا هناك، وإذا كان هناك هناك، فلتجعله سعيداً، أيها القدر!".

كان صباح دفنه بهيجًا، حافلاً بالطيور والأغانى والزهور ذكية الرائحة، كانت الأشجار تهمس للأعشاب، ولكن الأطفال جلسوا بوجوه واجمة، ومع ذلك بدا يوما جهمًا بعيداً عن الواقع، إنه شبح الحياة. بدا كأننا نسير فى طريق مجهول وراء حزمة بيضاء صغيرة من الزهور، وظل أغنية يتردد فى آذاننا، وكانت المدينة الصاخبة تطن

حولنا، لم يقولوا شيئًا كثيراً، أولئك الرجال والنساء المتعجلون شاحبو الوجوه، لم يقولوا شيئًا كثيرا، كانوا ينظرون ولا ينطقون إلاّ بعبارة واحدة "إنهم زنوج!".

لم نستطع أن نواريه التراب هناك فى جورجيا، لأن التراب أحمر بشكل غريب، ولذا حملناه نحو الشمال، بزهوره ويديه الصغيرتين وقد وضعت إحداهما عبر الأخرى، عبثًا، عبثًا! ، لأنه أين، يا إلهى، تحت سمائك الزرقاء الواسعة يرقد ابنى الصغير الأسمر فى سلام حيث توجد الرحمة والخير والحرية غير المقيدة؟ .

كل ذلك النهار وكل ذلك الليل استقر فى قلبى سكون مدهش، ولا تلوموني إذا رأيت العالم مظلمًا إلى هذا الحد من خلال "الحجاب"، وروحى تهمس لى دائمًا قائلة "لم يمت، لم يمت، بل هرب، ليس مقيداً، بل هو حر"، ليس هناك صغار مرير سيؤلم قلبه الطفل إلى أن يموت وهو على قيد الحياة، ليس هناك تعيير جازم سيؤله فى صباه، لقد كنت أحمق إذ فكرت أو تمنيت أن تنمو هذه الروح الصغيرة مخنوقة أو مشوهة داخل الحجاب! وكان ينبغى أن أعرف أنه هناك فى تلك النظرة العميقة التى ليست من هذا العالم والتى مرت يومًا أو سبحت أمام عينيه كانت تنظر بعيداً إلى ما وراء هذا الحاضر الضيق، وفى هدأة رأسه الصغيرة المتوجة بالتجاعيد ألم يسكن كل ذلك الكبرياء النافر الذى لم يكد أبوه ينجح فى سحقه فى قلبه هو؟ وما الذى يريده حقًا زنجى ذو كبرياء فى وسط إذلال مدروس ومرسوم لخمسين مليونًا من البشر؟ حسنا عجلت يا ولدى، قبل أن يسمى العالم طموحك تبجحًا، وقبل أن ترى مثلك مستحيلة التحقيق، وقبل أن يعلموك أن تذل وتنحنى، إنه لمن الأفضل لى هذا الخواء الذى لا اسم له والذى يوقف حياتى، عن بحر من الحزن كنت ستغرق فيه .

كلمات جوفاء، فهو ربما قد حمل عبئه بشجاعة أكثر منا، أجل وربما وجده أخف حملاً، فى يوم من الأيام، ومن المؤكد، من المؤكد أن هذه ليست النهاية، من المؤكد أنه سيطلع صباح جليل يرفع "الحجاب" ويطلق السجناء أحراراً، ليس من أجلى – فأنا سأموت فى الأغلال – بل من أجل أرواح شابة طازجة لم تعرف الليل وتستيقظ على الصباح، الصباح الذى لن يسأل فيه الناس عن العامل "هل هو أبيض ؟" بل يسألون "هل يستطيع أن يعمل؟" وعندما لا يسأل الناس الفنانين "هل هم سود البشرة؟" بل "هل هم يعرفون؟" قد يمر قبل مجىء هذا الصباح سنوات طويلة وسنوات، ولكن عويلها،

على ذلك الشاطئ المعتم داخل الحجاب، سيكون نفس الصوت العميق القائل "عليك أن تغفر!" ولقد نسيت كل شيء إزاء هذه الوصية، ودون شكوى ، كل شيء سوى ذلك الشكل الصغير الجميل الذى يرقد بارداً مقترنًا مع الموت فى العش الذى بنيته.

إذا كان لابد لأحد أن يذهب، فلم لست أنا؟ لماذا لا أرتاح أنا من هذا القلق، ولماذا لا أنام من هذه اليقظة المفعمة؟ ألم تكن أداة تطهير العالم، "الوقت"، فى يديه الصغيرتين، وهل ليس وقتى فى سبيله للانتهاء؟ وهل العاملون كثيرون فى حقل الكرم هذا حتى يمكن التخلى بسهولة عن الوعد الصادق الذى قدمه هذا الجسد الصغير ؟ إن البؤساء من جنسى الذين ينتشرون فى حوارى الأمة يجلسون يتامى الأب والأم، ولكن "الحب" جلس إلى جانب مهده، وإلى جانب أذنه جلست الحكمة تنتظر لتتكلم، ولعله عرف الآن أن "الكل محبة" ولم يعد بحاجة لأن يكون حكيمًا، ارقد إذن يا ولدى ارقد إلى أن يحين موعدى وأستيقظ على صوت طفل، وعلى الدبدبة التى لا تتوقف لأقدام صغيرة فوق "الحجاب" .

الفصل الثانى عشر

عن ألكسندر كروميل

هذا تاريخ قلب إنسانى، حكاية صبى أسود ربما بدأ منذ سنوات طويلة يقارع الحياة حتى يعرف العالم ويعرف نفسه، وتعاقبت عليه ثلاث غوايات فى تلك الكثبان المعتمة والتى ترقد مغبرة كئيبة أمام عينى الطفل المندهشتين: غواية "الكراهية" التى قامت فى مواجهة الفجر الأحمر، وغواية "اليأس" التى أظلمت رائعة النهار، وغواية "الشك" التى تتسلل دائما فى الضوء الكابى، وقبل كل شىء، يجب أن تسمع عن الواديين اللذين اجتازهما : وادى الذل، ووادى ظل الموت .

رأيت ألكسندر كروميل أول مرة فى بداية الموسم فى مؤسسة ويلبر فورث(*) فى وسط الضجة والزحام، كان طويلاً، نحيلاً، أسود، يحيطه كبرياء بسيط وجو لا تخطئه العين للتربية الطيبة، تكلمت معه على انفراد، حيث لا تستطيع الكلمات الغاضبة للخطباء الشبان أن تعوق حديثنا، تحدثت إليه حديثًا مهذبًا، ثم مستطلعًا، ثم متحمسًا، عندما بدأت أشعر بروعة شخصيته، مجاملته الهادئة، وعذوبة قوته، ومزجه المعتدل بين الأمل وحقيقة الحياة، وانحنيت غريزيًا أمام هذا الرجل، كما ينحنى المرء أمام أنبياء العالم، بدا كأنه عراف، آت ليس من الماضى القرمزى ولا من "المقبل" الرمادى بل من "الآن" النابض بالحياة، هذا العالم الساخر الذى بدا لى مضيئًا ومظلمًا فى الوقت نفسه، رائعًا وخسيسًا، وقد طاف ثمانين عامًا بهذا العالم نفسه الذى أعيش فيه، داخل "الحجاب".

(*) نسبة إلى ويليام ويلبر فورث ١٧٥٩-١٨٣٣ سياسى بريطانى تمكن من إصدار قانون لإلغاء تجارة العبيد (فى ١٨٠٧) وعمل لإلغاء الاستعباد فى الإمبراطورية البريطانية (المترجم) .

لقد ولد فى وقت "اتفاق الميسورى"[*] ورقد يعانى الموت بين أصداء مانيلا وألكانى[**] : كانت أياماً مثيرة عند الحياة فيها، وأياماً مظلمة عند الرجوع إليها، وأكثر إظلاماً عند التطلع لحدوثها، وكان الفتى الأسمر الوجه الذى كان يلعب فى الطين والحصى قبل سبعين عاماً يرى مشاهد محيرة وهو يتطلع إلى العالم، كانت سفينة العبيد لا تزال تشق طريقها عبر الأطلنطى، وصيحات خافتة تثقل نسيم الجنوب، والأب الأسود الكبير يهمس بحكايات لا تصدق عن القسوة فى تلك الآذان الفتية، ومن خلال الباب المنخفض كانت الأم تراقب ابنها صامتة وهو يلعب، وعندما يحل الظلام تبحث عنه قلقة حتى لا تحمله الأشباح بعيداً إلى أرض العبيد.

وهكذا عمل عقله الناشئ وجفل ووضع رؤية غريبة للحياة ، وفى وسط تلك الرؤية يقف دائماً شخص؛ يقف وحيدا دائماً له سمات ذلك الأب الساخط بقسماته الصلبة، وهيئة تتحول إلى طيات عريضة لا شك لها، وهكذا نمت غواية "الكراهية" وغطت على عقل الطفل، وتسللت بهدوء إلى ضحكته، واختفت فى لعبه، واستولت على أحلامه بالنهار والليل بقوة خشنة وغليظة، ولذا وجه الصبى الأسود للسماء والشمس والزهور السؤال الذى لم يجد إجابة أبدا: لماذا؟ وهو عندما كبر لم يرتح، لا للعالم، ولا لأساليب العالم الخشنة.

وقد ترى تلك غواية غريبة على طفل، ومع ذلك ففى هذه البلاد الفسيحة يوجد اليوم آلاف وآلاف من الأطفال السود يتعرضون لنفس تلك الغواية ويشعرون بأذرعتها الباردة والمقشعرة، كانوا يرون، ربما فى يوم من الأيام سيأتى شخص ويرفع "الحجاب" ، سيأتى بحنان وابتهاج إلى تلك الحيوات الصغيرة ويمسح الكراهية المتجهمة بعيداً، تماما كما فعل "بريا جرين" فى حياة ألكسندر كروميل، وأمام الرجل

(*) اتفاق الميسورى (١٨٢٠-٢١) تدابير أقرها الكونجرس الأمريكى لإنهاء أول مجموعة من الأزمات المتعلقة بامتداد العبودية.وبمقتضى الاتفاق سمح لولاية مين بدخول الاتحاد كولاية حرة ولولاية ميسورى كولايـــة تسمح بوجود العبيد، وحظرت العبودية فى لويزيانا شمال خط ٣٦ درجة وظل هذا الاتفاق قائماً حتى سنة ١٨٥٤ عندما صدر قانون كنساس نيبراسكا الذى ألغى اتفاق ميسورى (المترجم) .

(**) مانيلا عاصمة الفلبين أسست فى ١٥٧١ وطورها الإرساليون الأسبان، واستولت عليها الولايات المتحدة فى الحرب الأسبانية الأمريكية (١٨٩٨) وأثناء الحرب العالمية الثانية احتلتها اليابان (المترجم) .

جافى الطبع طيب القلب بدا الظل أقل قتامة، كانت لدى بريا جرين مدرسة فى مقاطعة أونيدا بولاية نيويورك بها بضع عشرات من الصبيان المشاكسين، وقد قال بريا جرين "سوف أحضر هنا الصبيان السود ليتعلموا" وهى قولة ما كان يمكن أن يقولها غير شخص متطرف ومن دعاة إلغاء العبودية، وقد ضحك الأولاد "اوهو!". وقالت زوجته "أجل"، وجاء ألكسندر، فى مرة سابقة، كان الصبى الأسود قد سعى إلى التعليم، وسافر – جائعا ومقروراً – ٤٠٠ ميل إلى ولاية نيوهامبشاير الحرة، إلى الجنة، ولكن المزارعين الكرماء فرضوا على مدرسة دعاة الإلغاء غرامة ٩٠ ثور وجذبوها إلى وسط المستنقع، وهرب منها الصبى الأسود .

كان القرن التاسع عشر أول قرن للتعاطف البشرى، العصر الذى بدأنا فيه نرى فى الآخرين، بشىء من الاستغراب، تلك الشرارة المقدسة التى يسميها كل منا "نفسى"، عندما كان الشحاذون والفلاحون والصعاليك واللصوص وأصحاب الملايين و – أحياناً – الزنوج كائنات تنبض بالحياة، وحياتهم الحارة تمسنا عن قرب بحيث إذا نظرنا إليهم باستغراب نقول "وأنتم أيضا! ألم تروا أنتم الحزن والمياه الراكدة لليأس ؟ ألم تعرفوا أنتم الحياة؟ " ثم عمدنا جميعًا إلى التطلع بيأس إلى تلك العوالم الأخرى، وتفجعنا قائلين "يا عالم العوالم، كيف سيستطيع الإنسان أن يجعلك عالمًا واحداً؟".

وهكذا، فى تلك المدرسة الصغيرة فى أونيدا، جاءت لأولئك التلاميذ شعاعات فكر وتطلع تحت الجلود السوداء، شعاعات لم يكونوا يحلمون بها من قبل، وإلى الصبى الشاعر بالوحدة جاء فجر جديد من العطف والأمل، وذلك الشىء المظلم الغامض – غواية الكراهية، التى كانت تقف بينه وبين العالم– أصبح أقل كثافة وأقل شراً، إنه لم يختف تماما ولكنه انتشر وتجمعت كثافته عند الحواف، ومن خلال ذلك رأى الطفل لأول مرة ما فى الحياة من أزرق وذهبى ، الطريق الذى تضيئه الشمس والذى يمتد بين السماء والأرض حتى يلتقيان عند نقطة بعيدة وضعيفة ومترددة، يلتقيان وتقبّل إحداهما الأخرى، ولدى الصبى الناشئ أتت رؤية للحياة غامضة ومدهشة، فرفع رأسه، ونصب قامته، وجذب نفساً عميقًا من الهواء النقى الجديد، فهناك، وراء الغابات، سمع أصواتا غريبة، ثم من خلال الأشجار رأى، على مبعدة، على بعد سحيق، أبناء أمته ينادون بصوت ضعيف، ثم بصوت مرتفع، وسمع الصليل البغيض لأغلالهم، وشعر بهم

ينكمشون ويزحفون على بطونهم، وعند ذلك نشأ فى داخله احتجاج ونبوءة، وكرس نفسه للسير فى طريق العالم .

صوت ورؤية دعواه لأن يكون كاهنًا، عرافًا يقود من لم تصلهم الدعوة بعد للخروج من بيت العبودية، ورأى الكتلة المتلاطمة تتجه نحوه كَسَيل من المياه الغاضبة ومد يديه متحمسًا، ولكن حتى ويديه ممتدتين، عبرت الرؤية فجأة غواية "اليأس" .

لم يكن أولئك رجالاً أشرارًا – فمشكلة الحياة ليست مشكلة الأشرار – لقد كانوا هادئين طيبين، قساوسة الكنيسة الرسولية، وكانوا يسعون نحو الحق والعدل، كانوا يقولون ببطء "كل هذا طبيعى بل وإنه مقبول، ولكن المجلس اللاهوتى العام للكنيسة الرسولية لا يستطيع أن يقبل زنجيًا"، وعندما كان ذلك الرجل النحيل غريب المنظر يستمر فى طرق أبوابهم كانوا يضعون أيديهم برقة، وبشىء من الحزن، على كتفيه ويقولون "إننا بطبيعة الحال نعرف مشاعرك بشأن ذلك، ولكنك ترى إن الأمر مستحيل إنه .. سابق لأوانه، ونحن على ثقة : على ثقة تماما من أنه فى وقت ما فإن كل هذه الأشكال من التمييز سوف تتضاءل، ولكن العالم الآن هو كما هو" .

وكانت هذه غواية اليأس، وقد قاتلها الشاب بقوة ، ومضى كما لو كان شبحًا مظلمًا، يجتاح تلك القاعات، يناشد، ويناقش، ويطلب الدخول شبه غاضب، حتى جاءت "اللا" الأخيرة، عندما بدأ الرجال يطردون الرجل المزعج، ويصمونه بأنه أحمق، وغير معقول، وطائش، وأنه ثائر بلا جدوى على قانون الله، وعند ذلك تضاءل ببطء كل مجد تلك الرؤية الرائعة، وترك وراءه أرضًا غبراء قاسية تتدحرج فوق يأس مطبق، حتى الأيدى الرحيمة التى امتدت نحوه من أعماق ذلك الصباح الكئيب بدت وكأنها أجزاء من الظلال القرمزية، نظر إليهم ببرود وسأل "لماذا يجب أن أشعر برعاية خاصة فى حين أن طريق العالم مغلق أمامى؟" ومع ذلك فإن أيادى أخرى ظلت تحثه : أيدى "جون جاى" الشاب، الابن الشجاع لذلك الأب الشجاع، وأيدى الناس الطيبين فى بوسطون، تلك المدينة الحرة، ومع ذلك، فعندما انفتح الطريق إلى الكهنوتية الكنسية أمامه أخيراً، ظلت السحابة قائمة، وحتى عندما أحاط القس المحترم بكنيسة سان بول الشماس الأسود بذراعيه الأبيضين حتى عند ذلك لم يرفع العبء عن ذلك القلب، لأن الأرض فقدت أحد أمجادها .

ومع ذلك فإن النار التى احترق ألكسندر كروميل بلهيبها لم تذهب هباء، فقد عاد ببطء بمزيد من التعقل إلى ممارسة خطته فى الحياة، وقام بدراسة الوضع بصورة أكثر تفهمًا، ففى الأعماق تحت عبودية واستعباد الأهالى السود رأى ضعفهم الأساسى، وهو الضعف الذى أكدته سنوات طويلة من سوء المعاملة، تمثل ذلك الضعف فى ندرة الخلق القوى، والاستقامة التى لا تنحنى، وكان ذلك فى رأيه هو عيبهم الأساسى، ومن هنا سوف يبدأ، فهو سيجمع أفضل من فى شعبه فى كنيسة أسقفية (إيبيسكوبال) صغيرة، وهناك يقودهم ويعلمهم ويلهمهم، إلى أن تنتشر الدعوة، وإلى أن يكبر الصغار، وإلى أن يستمع العالم، وإلى، وإلى ...، وعند ذلك لمع عبر حلمه ضوء خافت من رؤيته الأولى المشرقة فى الشباب ضوء خافت، لأن مجدًا كان قد ضاع من الأرض .

فى أحد الأيام وكان ذلك فى ١٨٤٢، والربيع يناضل سعيدا مع رياح مايو فى نيوإنجلاند، وقف أخيرًا فى كنيسته الخاصة فى بروفيدنس، كاهنًا للكنيسة، ومرت الأيام مسرعة، والقس الأسمر الشاب يمارس عمله، يكتب المواعظ بعناية، ويمارس صلواته بصوت هادئ عميق، وكان لا يكف عن ملاحقة رعاياه فى الشوارع ويناقش المارة، يزور المرضى، ويركع إلى جانب المحتضرين، كان يعمل ويكدح، أسبوعًا بعد أسبوع، ويومًا بعد يوم، وشهرًا فى إثر شهر، ومع ذلك فشهرًا بعد شهر كان أتباعه يتناقصون، وأسبوعًا وراء أسبوع يتردد الصدى بين الجدران الخالية بصوت أكثر حدة، ويومًا بعد يوم صارت الدعوات تأتى أقل فأقل، ويومًا بعد يوم باتت الغواية الثالثة أكثر وضوحًا، وبالذات أكثر وضوحًا داخل "الحجاب"، هادئة ومبتسمة، وليس هناك غير ظل خفيف من السخرية فى نغمات صوتها، كانت فى البداية تأتى فى فترات متباعدة فى نبرات منغمة: "أجل، إنك تخاطب الملونين؟ " أو ربما بطريقة أكثر مواجهة: "ترى ما الذى تتوقعه؟" وفى الصوت والإشارة يرقد الشك، غواية "الشك"، وكم كان يبغضه، ويطارده بغضب! كان يصيح "هم يستطيعون بطبيعة الحال، ويستطيعون أن يتعلموا وأن يجاهدوا وينجزوا بطبيعة الحال، وبطبيعة الحال تضيف الغواية بنعومة "إنهم لا يفعلون شيئًا من ذلك" ومن بين الغوايات الثلاثة، كانت هذه هى التى وصلت إلى الأعماق، الكراهية؟ لقد تجاوز هذا الأمر الطفولى، اليأس؟ لقد قوى ذراعه الأيمن ضدهم، وقاتله بقوة العزيمة، أما أن يشك فى قيمة العمل الذى كرس له حياته، أن يشك فى مصير وقدرة الجنس الذى أحبه لأنه جنسهم، أن يجد تراخيًا ولا مبالاة بدلاً من

الجهد الحريص، أن يسمع شفتيه نفسهما تهمسان "إنهم لا يهتمون، إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا، إنهم ماشية تساق بلا صوت، لماذا تلقى بالألىء أمام الخنازير؟ " هذا، وهذا بالذات بدا أكثر مما يستطيع أن يتحمله، فأغلق الباب، وأقعى على درجات المدخل، وألقى رداءه على الأرض وتلوى ألمًا .

كانت أشعة شمس المساء قد دفعت الغبار للرقص فى الكنيسة المظلمة عندما أفاق، طوى ملابسه، وأبعد كتب التراتيل، وأغلق "الكتاب المقدس" الكبير، وخرج إلى غبشة المساء، وألقى نظرة على المنبر الصغير الضيق وعلى شفتيه ابتسامة ضعيفة، وأغلق الباب ثم سار مسرعًا إلى الأسقف، وقال له شيئا كان الأسقف يعرفه من قبل، قال ببساطة "لقد فشلت"، ثم أكسبه هذا الاعتراف شجاعة فقال "إن ما أحتاجه هو جمهور أوسع، فعدد الزنوج هنا قليل نسبيا، وربما لا يكونون من أفضلهم. يجب أن أذهب حيث المجال أوسع، وأحاول مرة أخرى"؛ ولذا أرسله الأسقف إلى فيلادلفيا، ومعه رسالة إلى الأسقف أوندر دونك.

وكان الأسقف أوندردونك رجلاً سمينًا، أحمر الوجه ومؤلفًا لعدد من الكتابات المثيرة عن حياة القديسين، وكان الوقت بعد العشاء، وقد أعد الأسقف نفسه لفترة من التأمل، عندما دق الجرس عدة دقات، ولابد أن الأسقف تلقى الرسالة ثم تبعها زنجى نحيل متخلع الحركة، قرأ الأسقف الرسالة بسرعة وقطب وجهه، ولحسن الحظ أن ذهنه كان واضحًا بشأن هذه المسألة، فأزال تقطيبته ورفع عينيه إلى كروميل، ثم قال ببطء وبشكل مؤكد: "سأستقبلك فى هذه الكنيسة بشرط واحد: لن يجلس كاهن زنجى فى نطاق كنيستى، ولا يجوز لكنيسة سوداء أن تطلب تمثيلها هنا".

ويخيل لى أحيانًا أنى أستطيع أن أرى تلك اللوحة: الجسد الأسمر النحيل، وهو يقلب قبعته بعصبية أمام الكرش الهائل للأسقف أوندر دونك، وقد ألقى رداءه على دواليب الكتب الخشبية القاتمة، حيث توجد كتب فوكس "حياة الشهداء" جنبًا إلى جنب مع كتاب "كل واجبات الإنسان"، ويخيل لى أنى أرى عيون الزنجى الواسعتين تحومان خلف مكان الأسقف إلى الموقع الذى تلمع فيه الأبواب الزجاجية المتأرجحة لغرفة الأسقف وهى تتألق فى ضوء الشمس، وهناك ذبابة زرقاء صغيرة تحاول أن تعبر من ثقف المفتاح، وهو يعبر إلى الباب مسرعًا، ويتطلع إلى الهوة مستغربا، ويفرك يديه

متفكراً، وكأنه يقيس أعماقها، وعندما يجد أنها بلا قاع فهو يتراجع مرة أخرى، ويجد القس أسود الوجه نفسه يتساءل عما إذا كانت الذبابة أيضًا قد واجهت "وادى المذلة" وما إذا كانت ستلقى بنفسها فيه، وعند ذلك – ويا للعجب! – إنها تبسط أجنحتها الضئيلة وتطن مبتهجة عائدة، وتترك مراقبها وحيداً وبلا جناح .

وعند ذلك وقع الوزن الكامل لعبئه على كتفيه، انزاحت الحوائط الثمينة، وانفتح أمامه المرعى الخشن البارد، وقد قصمته الربوة الجرانيتية السمكية إلى قسمين، هنا "وادى المذلة" وهنا "وادى شبح الموت". ولست أدرى أيهما أكثر عتمة ، لا، لست أنا، لكنى أعرف الآتى: فى وادى الودعاء ذاك يقف الآن مليون من الرجال الأشداء، الذين على استعداد .

" ... أن يتحملوا سياط الزمن وسخرياته، ومظالم المستبد، وسخريات المتغطرس، وعذاب الحب المحتقر، وتأخر العدالة، وسفاهة الموظفين، والوقاحة التى يتحملها الصبورون ممن لا يستحقون" كل هذا وأكثر منه يتحملونه فقط لو أنهم علموا أن تلك تضحية وليست شيئًا زهيداً، هكذا ترددت الأفكار فى ذهن ذلك الرجل الأسود الوحيد، وتنحنح الأسقف، وتذكر أنه ليس هناك حقا شىء يقال، فاكتفى بأن لم يقل شيئا، ولكنه ظل يضرب الأرض بقدمه بقلق، وغير أن ألكسندر كروميل قال، ببطء ولكن بثقة: "إنى لن أدخل قط مجال سلطتك بهذه الشروط"، وبعدما قال ذلك، أدار ظهره ومضى إلى "وادى ظل الموت"، وربما ما كنت لتلاحظ غير الموت الجسدى، الكيان الممزق والسعال الذى يرتج له البدن، ولكن فى تلك الروح كان هناك موت أعمق من ذلك، لقد وجد كنيسة فى نيويورك، كنيسة أبيه، عمل من أجلها فى ظل الفقر والجوع، ولقى السخرية من جانب زملائه الكهنة، وفى شىء أشبه باليأس، طاف عبر البحار، متسولاً يمد يديه إلى الناس، وقد صافحهما الرجال الإنجليز، ولبر فورث وستانلى، ثيرول وإنجلين، وحتى فرود وماكولى، ودعاه السير بنيامين برودى لأن يرتاح لفترة من الزمن فى "كوينز كولدج" فى كمبردج، وهناك أقام، يناضل من أجل صحة الجسد والعقل، حتى حصل على درجته فى سنة ٥٣، ولكنه ظل قلقًا وغير راض، فانتقل إلى أفريقيا، وعلى امتداد

سنوات طويلة ووسط نسل من كانوا يهربون العبيد، سعى للعثور على مرفأ جديد وأرض جديدة .

هكذا كان الرجل يتلمس طريقه نحو الضوء، ولم تكن تلك كلها "حياة" بل كانت جولات الروح الساعية للتعرف على ذاتها، مكابدات شخص يسعى عبثًا إلى مكانه فى العالم، مطاردًا دائما بشبح موت هو أكثر من الموت : هو انتقال روح لم تقم بواجبها، طوال عشرين عامًا وهو هائم، عشرين عامًا وأكثر، ومع ذلك ظل السؤال الصعب يتردد داخله "لماذا، بحق الله، أنا موجود على ظهر الأرض؟"، فى أبرشية نيويورك الضيقة كانت روحه تبدو مكبوتة ومختنقة، وفى الهواء النقى العريق للجامعة البريطانية كان يسمع الملايين يعولون عبر البحر، وفى المستنقعات الملعونة بالحمى فى غرب أفريقيا كان يقف وحيداً، بلا حول ولا قوة.

ولا يجوز لك أن تعجب لرحلته الموحشة، أنت الذى فى دوامة الحياة السريعة، وفى تناقضاتها الباردة ورؤاها الرائعة، قد واجهت الحياة وصافحت لغزها وجهًا لوجه، وإذا رأيت أن ذلك اللغز يصعب قراءته، تذكر أن ثمة صبيًا أسود يجده أكثر صعوبة، إذا كان من الصعب عليك أن تعثر على واجبك وتواجهه، فإنه أصعب بدرجة ما بالنسبة إليه، وإذا كان قلبك يهن فى غبار المعركة ودمها، فتذكر أن الغبار بالنسبة إليه أكثر كثافة والمعركة أشد شراسة، لا عجب فى أن يسقط الهائمون! لا عجب فى أننا نشير إلى اللص والقاتل، وإلى البغى التى تطارد عملاءها، والدعاء الذى لا ينتهى للموتى غير التائبين! إن "وادى ظل الموت" يعيد قليلاً من حجيجه إلى العالم .

ولكنه أعاد ألكسندر كروميل، لقد خرج من غواية الكراهية واحترق بنار اليأس، وتغلب على الشك، وتصلب عوده بالتضحية فى مقابل الإذلال، فعاد آخر الأمر إلى داره عبر البحار، متواضعًا وقويًا، رقيقًا ثابت العزم، لقد واجه كل أشكال التهكم والتعصب، وكل أشكال الكراهية والتمييز، بتلك الدماثة النادرة التى هى درع الأرواح النقية، لقد قاتل الأدنياء والجشعين والأشرار، بتلك الاستقامة التى هى سيف العادلين، لم يتردد أبدًا، ونادراً ما كان يشكو. كان ببساطة يعمل، ويلهم الشباب، ويعاتب الكبار، ويساعد الضعاف، ويوجه الأقوياء .

هكذا نما، وأدخل فى نطاق نفوذه الواسع كل ما هو أفضل لدى من يعيشون داخل "الحجاب"، أما من يعيشون خارجه فلم يعرفوا بل ولم يحلموا بتلك القوة الكامنة داخله، ذلك الإلهام القوى الذى قدر ألا يعرفه معظم أصحاب النظرة المحدودة، والآن وقد مضى، فإنى أنزع "الحجاب" بعيداً وأبكى، وللأسف، فإنى لا أستطيع أن أحمل لتلك الذكرى العزيزة غير هذا الثناء القليل، وأستطيع أن أرى وجهه الساكن، الأسمر بخطوطه الواضحة تحت شعره الأبيض كالثلج. يضىء ويظلم، الآن بإلهام من أجل المستقبل، والآن فى ألم البراءة إزاء بعض شرور البشر، والآن مع الحزن لذكرى قاسية من الماضى، وكلما زاد لقائى مع ألكسندر كروميل زاد شعورى بما فقده هذا العالم الذى لم يعرف عنه غير القليل، فى عصر آخر ربما كان سيجلس بين كبار السن فى رداء موشى بالأرجوان، وفى بلد آخر ربما كانت الأمهات ستتغنين به لأبنائهن فى المهد .

لقد أدى عمله، وأداه بشرف وعلى خير وجه، ومع ذلك فإنى آسف لأنه كان يعمل وحده، ولا يحظى إلاّ بذلك القدر القليل من التعاطف الإنسانى، واسمه اليوم، فى هذا العالم الفسيح، لا يعنى الكثير، ويأتى إلى ٥٠ مليون إذن محملاً بغير عبير من الذكرى أو القدوة، وفى هذا تكمن مأساة العصر: ليس أن الناس فقراء، فكل الناس يعرفون قدراً من الفقر، وليس أن الناس أشرار، فمن هو الطيب؟ وليس أن الناس جهلة، فما هى الحقيقة؟ لا ، بل إن الناس لا يعرفون عن الناس إلاّ القليل.

لقد جلس ذات صباح يتطلع نحو البحر، ابتسم وقال "إن الباب أصابه الصدأ عند المفصلات"، وفى تلك الليلة عندما صعدت النجوم جاءت ريح تعوى مقبلة من الغرب لتدفع الباب على مصراعيه، وعند ذلك هربت الروح التى أحببتها كأنها لهب عبر البحار، وفى أعماقه كان يجلس الموت .

وإنى لأتساءل أين هو اليوم ؟ أتساءل عما إذا كان فى ذلك العالم الغامض البعيد، الذى جاء منه بدون أن نشعر، يجلس على عرش شاحب اللون أحد الملوك : شخص أسود بعينين نفاذتين، يعرف خبايا الملعونين فى الأرض، ويقول لأولئك الذين أتعبوا أنفسهم فى العمل "لقد أحسنتم" بينما تجلس حوله نجوم الصباح وهى تغنى .

الفصل الثالث عشر

عن عودة " جون "

يمر شارع كارليسل إلى الغرب من مركز مدينة جونستاون، عبر كوبرى أسود كبير، ويهبط تلاً ثم يرتفع مرة أخرى، وعلى جانبيه دكاكين صغيرة وبائعو لحوم، عبر مساكن مؤلفة من طابق واحد، إلى أن يتوقف فجأة عند التقائه بحديقة خضراء فسيحة، وهى مكان عريض مريح، يحده من ناحية الغرب مبنيان ضخمان، وعندما تأتى فى المساء الرياح من ناحية الشرق، وتحلق الغيمة الكبيرة من دخان المدينة كسلانة فوق الوادى، عند ذلك يلتمع الغرب الأحمر كأنه من أراضى الأحلام على امتداد شارع كارليسل، وعندما تدق أجراس العشاء تمر أشباح التلاميذ وتشكل سيلويت داكنًا خلفيته السماء، وهم يسيرون، طوالاً وسود اللون، متباطئين وتبدو أشباحهم كأنما تعبر أمام المدينة وكأنها أشباح منذرة، وهم ربما يكونون كذلك، لأن هذا هو "معهد ويلز" وهؤلاء الطلاب السود ليس لهم تعامل يذكر مع المدينة البيضاء الممتدة مع الشارع .

وإذا وجهت انتباهك سترى، ليلة بعد أخرى، شكلاً مظلماً واحداً يسرع فى خطاه بعد الآخرين، متجهًا نحو الأضواء المتلألئة فى قاعة "سوين"، لأن جونز يتأخر دائمًا عن موعده، وهو فتى طويل القامة، شعره قاس وبنى اللون، يبدو كأنه ينمو متجاوزًا ملابسه، ويسير بخطوات فيها شىء من الاعتذار، وكان من عادته دائما أن يشيع فى قاعة الغداء الهادئة موجات من الابتهاج، وهو يتسلل إلى مكانه بعد أن يكون الجرس قد دق للصلاة، كان يبدو غريباً من كل النواحى، ولكن نظرة واحدة إلى وجهه تدفع المرء لأن يغفر له الكثير، تلك الابتسامة العريضة الطيبة التى لا تنطوى على شىء من التصنع أو المجاملة، بل تبدو كأنها صادرة من طبيعته البسيطة ورضاه الصادق عن العالم .

لقد جاء إلينا من "التاماها"، من ذلك المكان المحاط بأشجار السنديان في جورجيا الجنوبية الشرقية، حيث يداعب البحر كثبان الرمال وتستمع الرمال لوشوشته حتى تكاد تغرق تحت الماء، ولا ترتفع إلاّ هنا وهناك في جزر طويلة منخفضة، وكان الأهالي البيض في التاماها يرون أن جون فتى طيب يجيد العمل على المحراث، ويحسن التصرف في حقول الأرز، وموجود في كل مكان، ودائما منشرح ومحترم، ولكنهم هزوا رؤوسهم عندما أرادت أمه أن تبعث به إلى المدرسة، كانوا يقولون "إنها ستفسده، ستقضي عليه"، وكانوا يقولون ذلك وكأنهم يعلمون، ولكن ما يقرب من نصف سكان القرية السود تبعوه إلى المحطة فخورين، وحملوا صندوقه الصغير الغريب والربطات العديدة التي أراد أن يأخذها معه، وهناك تصافحت الأيدي مرة بعد مرة، وقبلته الفتيات خجلات وطبطب الصبيان على ظهره، ثم جاء القطار، فصافح أخته الصغيرة بود، ووضع ذراعيه الطويلين حول رقبة أمه، ثم انطلق مع زفير القطار وزئيره إلى العالم الأصفر الذي يثور ويتحلق حول هذه الرحلة المختلف بشأنها، واندفع القطار بجوار الساحل، وعبر مربعات ومثلثات السافانا، وخلال حقول القطن وفي أعماق الليل المرهق، إلى ميلفيل، وجاء في الصباح إلى أصوات جونستاون وضجيجها .

أما أولئك الذين بقوا في القرية، ذلك الصباح في التاماها، وراقبوا القطار وهو يحمل بصخبه زميلهم في اللعب وشقيقهم وابنهم بعيداً إلى العالم، فقد كانت لديهم بعد ذلك كلمة واحدة تتردد دائما "عندما يعود جون"، فعند ذلك ستقام احتفالات، كما ستلقى كلمات في الكنائس، وسيوضع أثاث جديد في الغرفة الأمامية بل ربما تبنى غرفة أمامية جديدة، وسيقام بيت جديد للمدرسة، ويكون جون هو المعلم، وربما يقام حفل زواج كبير، كل هذا وأكثر، عندما يعود جون، ولكن الأهالي البيض كانوا يهزون رؤوسهم .

وفي البداية قيل إنه سيأتي في وقت الكريسماس ولكن تبين أن الإجازة قصيرة للغاية، ثم قيل، في الصيف المقبل ولكن الأحوال المالية لم تكن طيبة والمدرسة عالية التكاليف، ولذا فبدلاً من أن يعود للقرية اشتغل في المدينة، وهكذا تأجلت عودته إلى الصيف التالي، وإلى الذي يليه وأثناء ذلك تفرق زملاء اللعب، واكتسب شعر أمه اللون الرمادي، وذهبت أخته إلى بيت القاضي لتعمل في المطبخ، ومع ذلك استمرت الأسطورة "عندما يعود جون" .

وفى بيت "القاضى" كانوا يحبون هذه العبارة، لأنهم هم أيضًا كان لديهم جون : صبى أشقر الشعر ناعم الوجه، كثيرًا ما لعب فى أيام الصيف الطويلة مع سمّيه الأسود، وكان القاضى عريض المنكبين والذى اكتسى شعره اللون الرمادى يقول فى كل صباح عند ذهابه إلى مكتب البريد "نعم، إن جون موجود الآن فى برينستون، ويرى اليانكى ما يستطيع السيد الجنوبى أن يفعل"، ويعود إلى بيته حاملاً رسائله وصحفه، وفى البيت الكبير كانوا يقضون وقتًا طويلاً فى قراءة الرسالة الواردة من برينستون، القاضى وزوجته النحيلة وشقيقته وبناته اللاتى يتقدمن فى العمر، وكان القاضى يقول "إن هذه الدراسة ستجعل منه رجلاً، فالجامعة هى المكان المناسب"، ثم يسأل خادمته الصغيرة الخجول "حسنًا ياجينى، ما أخبار جونكم أنتم؟" ثم يضيف متفكرًا " من المؤسف جدا، من المؤسف أن أمك أرسلته بعيدا ذلك سوف يفسده" وكانت الفتاة لا تقول شيئًا .

وهكذا، فى القرية الجنوبية البعيدة كان العالم ينتظر، بنصف وعى، عودة شابين صغيرين، ويحلم بطريقة غير واضحة بأشياء جديدة سوف تعمل وأفكار جديدة سيفكر فيها الجميع، ولكن كان من الملفت للنظر أنه لم يكن هناك من يفكر فى الفتيين ؛ لأن الأهالى السود كانوا يفكرون فى جون واحد، وهو أسود اللون: والأهالى البيض يفكرون فى جون آخر، وهو أبيض اللون، ولم يكن أحد العالمين يفكر فيما يفكر فيه العالم الآخر، إلاّ بقلق غامض .

أما فى جونستاون، فى "المعهد" فقد تحيرنا كثيرًا بشأن حالة جون جونز، فلفترة طويلة بدا أن الصلصال غير صالح لأى نوع من التشكيل، وهو عالى الصوت كثير الحركة، دائم الضحك والغناء، ولا يستطيع قط أن يعمل بطريقة منظمة فى أى مجال، لم يكن يعرف كيف يستذكر دروسه، ولم تكن لديه أية فكرة عن الجد والاجتهاد، وبسبب تأخره الدائم، ولا مبالاته، وميله الاستثنائى للمزاح، تملكتنا الحيرة معه، وفى إحدى الليالى اجتمع مجلس المعهد، يساوره القلق والحيرة، لأن جونز وقع فى المتاعب مرة أخرى، وهذه المرة كان الأمر خطيرًا، ولذا اجتمع رأينا على "أن جونز، بسبب تكرار إهماله وعدم اهتمامه بعمله، سيوقف عن الدراسة فى الفترة الباقية من الفصل الدراسى .

وظهر لنا كأنما الحياة بدت لجون لأول مرة كما لو كانت شيئًا جديًا حقًا، وذلك عندما أبلغه عميد المعهد أن عليه أن يغادر المدرسة، فقد نظر إلى الرجل ذى الشعر الرمادى نظرة فارغة بعينين مشدوهتين، وتلعثم قائلا "لماذا ؟ لماذا؟ ولكنى لم أتخرج بعد !" وعند ذلك شرح له العميد ، ببطء ووضوح ، وذكّره بتأخره عن المواعيد وإهماله واجباته، وعدم انتباهه لدروسه وإهماله لعمله، وللضجة التى يثيرها والفوضى المحيطة به، إلى أن أحنى الفتى رأسه مضطربًا، ثم قال مسرعا "ولكنك لم تبلغ أمى وأختى ، لن تكتب لأمى، هل ستفعل ذلك؟ لأنك إذا لم تفعل سوف أذهب إلى المدينة وأعمل، وأعود فى الفصل الدراسى المقبل وسوف ترى نتائجى"، وعلى ذلك وعده العميد وعداً مخلصًا، وحمل جون صندوقه الصغير، ولم يوجه كلمة ولا نظرة إلى الفتيان الذين أخذوا يتضاحكون، وأخذ مساره فى شارع كارليسل إلى المدينة الكبيرة، بعينين مفتوحتين ووجه جاد ومصمم.

ولعلنا توهمنا ذلك، ولكن بشكل ما بدا لنا أن النظرة الجادة التى تسللت إلى وجهه الصبيانى فى عصر ذلك اليوم لم تتركه بعد ذلك قط، فعندما عاد إلينا مضى إلى العمل بكل قوته المهوشة، وكان نضالاً صعبًا، لأن الأمور لم تكن تأتى إليه بسهولة، فالقليل من الذكريات المتزاحمة عن حياته المبكرة وتعليمه كانت تأتى لمساعدته فى طريقه الجديد، ولكن كل العالم الذى يسعى إليه كان من صنعه الخاص، وهو كان يبنى ببطء ومشقة، وعندما أشرق الفجر على مهل على مخلوقاته الجديدة، كان يجلس مشدوهًا وصامتًا أمام ما يرى، أو يهيم وحده فى الفناء الأخضر متطلعا إلى ما وراء عالم الناس إلى عالم من الأفكار، وفى بعض الأحيان كانت الأفكار تحيره أشد الحيرة، فهو لا يرى السبب فى أن الدائرة ليست مربعًا، وقد نقلها ستًا وخمسين نقطة عشرية فى إحدى الليالى، وكان على استعداد لأن يواصل المحاولة لولا أن المشرف على عنبر النوم أطفأ الأنوار، وقد أصيب بنوبات برد شديدة بسبب رقاده على ظهره فى العراء بعض الليالى، يحاول أن يتفهم المجموعة الشمسية، وكانت لديه شكوك عميقة بشأن أخلاقيات "سقوط روما" وكانت لديه شكوك قوية فى أن الألمان لصوص وحقراء، بالرغم مما يرد فى كتبه المدرسية، وكان يفكر طويلاً فى كل كلمة يونانية جديدة، ويتساءل لماذا تحمل هذه الكلمة ذلك المعنى، ولماذا لا تعنى شيئًا آخر، وكيف كان المرء سيشعر لو فكر فى كل شىء باللغة اليونانية، هكذا كان يفكر وحده ويحتار ويتوقف متسائلا

حيث يمر الآخرون بسهولة، وكان يسير بثبات فى الصعوبات حيثما يتوقف الآخرون ويستسلمون .

وهكذا نما جسداً وروحاً، وبدا أن ملابسه كانت تنمو معه وترتب نفسها . فأكمام السترة تغدو أطول والأساور تظهر، والياقات أصبحت أقل قذارة، ومن وقت لآخر كان حذاؤه يلمع، وتتسلل إلى مشيته كبرياء جديدة، ونحن الذين كنا نرى فى كل يوم نزعة إلى التأمل والتفكير تظهر فى عينيه بدأنا نتوقع شيئًا من هذا الفتى الذى يتقدم بصعوبة، وهكذا أكمل سنوات الدراسة الإعدادية وانتقل إلى الدراسة الثانوية ونحن الذين كنا نتابعه، شهدنا أربع سنوات أخرى من التغيير، أحدثت تحولاً يكاد يكون تاماً فى هذا الرجل الطويل الجاد الذى كان ينحنى لنا عندما يرانا فى أول الصباح، لقد غادر عالم أفكاره الغريب وعاد إلى عالم الحركة والناس، وأصبح الآن ينظر لأول مرة إلى ما حوله نظرة يقظة، ويعجب لكونه لم ير من قبل غير ذلك القدر الضئيل، وكان نموه بطيئًا بحيث بدا إحساسه كأنما لأول مرة بـ "الحجاب" الذى يقف بينه وبين العالم الأبيض، فهو الآن يتنبه لأول مرة للاضطهاد الذى لم يكن يبدو له اضطهاداً من قبل، وللاختلافات التى كانت تبدو له طبيعية، وللقيود والإهانات التى كانت تمر فى أيام صباه دون أن يلاحظها أو يستقبلها بضحكة خفيفة، أما الآن فإنه يغضب إذا لم يناده الناس بكلمة "سيد" **Mister** وكان يغضب لرؤية سيارات "جيم كرو"، ويغضب من خط اللون الذى يعوقه ويعوق أقرانه، وتسللت إلى كلامه نبرة سخرية، وتسللت إلى حياته مرارة غامضة، وكان يقضى ساعات طويلة يتأمل ويبحث عن طريقة لتجنب هذه الأشياء البغيضة، وفى كل يوم كان يجد نفسه يتذمر من الحياة الضيقة والمخنوقة فى قريته الأصلية، ومع ذلك كانت خطته دائما أن يعود إلى التاماها ، يخطط دائمًا لأن يعمل هناك، ومع ذلك، فكلما اقترب يوم العودة كان يتردد، يعتريه خوف لا يستطيع أن يصفه، وحتى فى يوم التخرج قبل بحماسة ما عرضه عليه عميد المعهد من إرساله إلى الشمال مع فرقة الموسيقى فى إجازة الصيف، ليغنى باسم المعهد، ها هى فترة استنشاق للهواء قبل القفز فى الماء، هكذا قال لنفسه فيما يشبه الاعتذار.

وكان عصراً مشرقًا من عصارى شهر سبتمبر، وكانت شوارع نيويورك تتدفق بالرجال الرائحين والغادين، وقد ذكّروا جون وهو يجلس فى الميدان ويراقبهم، وهم

يتغيرون بصورة لا تتغير، بينهم البيض والسود، المهمومون والفرحون، وكان يتأمل ملابسهم الغنية والتى بلا عيب، ويرقب طريقة تحريك أيديهم، وشكل قبعاتهم، ويدقق فى العربات المسرعة، وبعد ذلك ارتمى بظهره إلى الوراء وقال وهو يتنهد "هذا هو العالم"، وعلى حين غرة تملكته فكرة أن يرى إلى أين يمضى العالم، نظراً لأن كثيرين من الأغنياء واللامعين كان يبدو أنهم يسرعون فى اتجاه واحد، وهكذا فعندما مر أمامه شاب طويل أشقر الشعر وسيدة صغيرة الحجم كثيرة الكلام، قام من مكانه مترددا وتبعهما، مضيا صاعدين فى الشارع، عبر المحلات والدكاكين المضاءة، وعبر ميدان فسيح، إلى أن دخلا مع مئات غيرهما المدخل العالى لمبنى كبير .

واندفع مع الآخرين نحو مكان لبيع التذاكر، وفتش فى جيبه بحثا عن ورقة الخمسة دولارات الجديدة التى كان قد احتفظ بها، وبدا له حقا أن ليس ثمة وقت للتردد، ولذا أخرج الورقة بشجاعة، وقدمها للموظف المشغول، وتسلم تذكرة فقط ولم يتسلم أية نقود باقية، وعندما أدرك فى نهاية الأمر أنه دفع خمسة دولارات ليدخل مكانا لا يعرف ما هو، وقف ذاهلاً وكأنما أصابته صدمة، وسمع صوتا خافتا وراءه يقول "حاسب أنت لست مضطراً لسحل الرجل المهذب الملون لمجرد أنه يقف فى طريقك" ورأى فتاة صغيرة تتعلق بعينيها بعينى زميلها ذى الشعر الأشقر، ومر ظل من الاستياء على وجه ذلك الزميل وقال فى شىء من الضيق وكأنه يواصل حديثًا سابقًا "أنت لن تفهمينا نحن أبناء الجنوب، فمع كل مهارتكم نحن لا نرى أبداً فى الشمال تلك العلاقات الودية والحميمة بين البيض والسود فيما يحدث حولنا فى كل يوم، بل إنى أتذكر أقرب الأطفال الذين كنت ألعب معهم فى الصبا وهو زنجى صغير يحمل نفس اسمى، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك اثنان متقاربان حسنًا !" وتوقف الرجل عن الكلام فجأة واحمر وجهه حتى منابت شعره، لأنه رأى إلى جانبه تماماً فى مقاعد الأوركسترا يجلس ذلك الزنجى الذى كاد يصطدم به فى المدخل، وبدا عليه التردد ثم شحب وجهه بالغضب، ونادى العامل الذى يقود الزبائن إلى مقاعدهم وأعطاه بطاقته، مع بضع كلمات تحذيرية، ثم جلس متباطئا . وعملت السيدة بلباقة على تغيير الموضوع .

كل هذا لم يره جون، لأنه جلس نصف مأخوذ يتطلع إلى المشهد المحيط به، الجمال الرقيق للقاعة، والعطر الخفيف، والسيل المتحرك من الرجال، والملابس الغنية،

والطنين المنخفض للحديث، بدت كلها جزءًا من عالم يختلف تماما عن عالمه، عالم أكثر جمالا بشكل غريب من أى شىء عرفه حتى الآن، إنه ليجلس فى أرض الأحلام، وانزعج عندما ارتفع – بعد سكون – صوت موسيقى عالية وواضحة من موسيقى بجعة لوهنجرن(*)، وكان الجمال اللانهائى للموسيقى يتغلغل فى كل عضلة من عضلات جسده، ويجعله كله تابعا للنغم. أغلق عينيه وأمسك بمسندى المقعد، ولمس عن غير قصد ذراع السيدة، وجذبت السيدة ذراعها، ونبع فى قلبه شوق للارتفاع مع تلك الموسيقى الواضحة ليبتعد عن غبار وقذارة تلك الحياة المنحطة التى تقيده سجينًا ومظلومًا، آه لو أنه يستطيع أن يسمو إلى الهواء الطلق الذى تغنى فيه الطيور ولا تحمل الشموس الغارية لمسة من الدم! من الذى دعاه ليكون عبدا وهزئة للجميع؟ وإذا كان هناك من دعاه فأى حق له فى أن يدعوه فى حين أن هناك عالم كهذا متاح للناس ؟

ثم تغيرت الحركة، وانطلقت هارمونية أكثر امتلاء وقوة، وعبر بنظره متفكرًا عبر القاعة، وتساءل لماذا تبدو السيدة الجميلة شيباء الشعر فاترة الهمة إلى هذا الحد، وماذا يمكن أن يكون ما يهمس به فى أذنها الرجل قصير القامة؟ وجال بخاطره أنه لا يريد أن يكون فاتر الهمة ولا عاطلاً، لأنه شعر مع الموسيقى بحركة القوة داخله، وآه لو أن لديه عملاً رائعًا، واجبًا يكرس له حياته، وعملاً شاقا؛ أجل، شاقًا للغاية، ولكن بدون استعباد قاس وممرض، بدون ذلك الجرح المهين الذى يرفضه قلبه ونفسه، وعندما تسلل فى النهاية حزن ناعم عبر آلات الكمنجة، أتت إليه رؤية البيت البعيد وعينا شقيقته الواسعتان، والوجه الأسمر المسحوب لأمه، وسقط قلبه تحت المياه، تماما كما تسقط رمال البحر على شواطئ التاماها، ولكنه عاد ليرتفع مرة أخرى مع الصيحة الأثيرية الأخيرة للبجعة التى ارتجفت واختفت فى طيات السماء .

وظل جون صامتًا ومأخوذًا لدرجة أنه لم يلاحظ لبعض الوقت يد الموظف الذى يقود الزبائن إلى مقاعدهم وهو يدق بخفة على كتفه ويقول بأدب "هل تغادر من هذا

(*) لوهنجرن من الأساطير الألمانية، ابن برسيفال وأحد فرسان المائدة المقدسة، وهو ينقذ الأميرة إيلسا ثم يتزوجها، ولكن يكتب عليه هجرها، وقد كتبت قصيدة ملحمية (١٢٨٥–١٢٩٠) منسوبة إلى ولفرام فون أيشنباخ تروى القصة، واعتمد عليها ريتشارد فاجنر فى كتابة ليبرتو لأوبرا لوهنجرن (١٨٥٠) على أساس ذلك المصدر (المترجم) .

الجانب من فضلك يا سيدى؟" وكأنما فوجئ، قام من مقعده مسرعًا وتحرك ليغادر مقعده، ونظر نظرة كاملة فى وجه الشاب ذى الشعر الأشقر، ولأول مرة تعرف الشاب على زميل صباه الأسود، وعرف جون أن الآخر هو ابن القاضى، وشعر جون الأبيض بالانزعاج، ورفع يده، ثم تجمد فى مقعده، وابتسم جون الأسود ابتسامة خفيفة، ثم تجهم ثم تبع الموظف عبر الممر، وأبدى المدير أسفه، أسفه البالغ، وشرح أنه قد حدث خطأ إذ بيع للسيد مقعد محجوز من قبل، وهو على استعداد لرد النقود بطبيعة الحال وهو يأسف للغاية لما حدث، وما إلى ذلك، وقبل أن ينهى كلامه كان جون قد مضى، يسير مسرعًا عبر الميدان على امتداد الطرق العريضة، وعندما مر بالحديقة أغلق أزرار المعطف وقال "يا جون جونز، لقد ولدت أحمق بالطبيعة"، ثم ذهب إلى مسكنه وكتب خطابا، ثم مزقه، وكتب آخر، ثم ألقى به فى النار، ثم انتزع قطعة ورق وكتب : "عزيزتى أمى وأختى إنى عائد ، جون" .

قال جون، وهو يستريح فى جلسته فى القطار "ربما أكون أنا الملوم لأنى أكافح ضد مصيرى الواضح لمجرد أنه يبدو شاقًا وغير مريح، وهاهو واجبى نحو التاماها واضح أمامى، ولعلهم سيسمحون لى بأن أساعد فى تسوية مشكلات الزنوج هناك ولعلهم لن يسمحوا . وسأفعل كل ما أستطيع، حتى ولو لم يكن مطابقًا للقانون، وإذا قضيت نحبى، قضيت نحبى"، ثم أخذ يفكر ويحلم، ويضع خطة لعمل حياته، وظل القطار يسرع نحو الجنوب .

وهناك فى التاماها، وبعد سبع سنوات طوال، كان العالم كله يعرف أن جون قادم، كانت البيوت قد نظفت وجمِّلت وقبلها كلها بيت معين، وارتدت الحدائق والأحواش أناقة غير مألوفة واشترت جينى جونلة جديدة، وبقدر من اللباقة والتفاوض أمكن إقناع كل الميثوديين والبريسبتاريين السود بالاشتراك فى ترحيب شامل فى الكنيسة المعمدانية، وعندما اقترب اليوم دارت مناقشات حارة فى كل ركن بشأن الحجم الدقيق لما أنجزه جون، وكان الوقت ظهرًا فى يوم رمادى مملوء بالسحاب عندما جاء، وسارعت المدينة السوداء إلى المحل، مع قليل من البيض عند الحواف وكانت هناك ضجة سعيدة يتم خلالها تبادل عبارات صباح الخير، وكيف الحال ؟ وبعض الضحكات والنكات والمزاح، وجلست الأم فى النافذة ترقب، ولكن الشقيقة جينى وقفت أمام الباب تعبث

أصابعها بردائها بعصبية ؟ طويلة ونحيلة، بشرتها ناعمة بنية اللون، وعينان محبتان تطلان من وسط تيه من الشعر، نهض جون مقطبًا عندما وقف القطار، لأنه كان يفكر فى عربة "جيم كرو"، وخطا نحو الرصيف، وتوقف: هاهى محطة صغيرة قذرة، وتجمّع أسود يرتدى ألوانًا مزركشة وغير نظيفة، ونصف ميل من الأكواخ المتهدمة على امتداد مجرى من الطين، وتملكه شعور طاغ بقسوة وضيق الأمر كله، وعبثًا بحث بناظريه عن أمه، وقبّل ببرود الفتاة الطويلة الغريبة التى تدعوه أخاها، وتكلم كلمات جافة قصيرة هنا وهناك، ولم يجد ميلاً للمصافحة بالأيادى ولا للثرثرة، فمضى صامتًا على الطريق، يكتفى برفع قبعته لبعض القريبات، ويستمع إلى عبارات الدهشة من أفواههن الفاغرة، وكان من الواضح أن الأمر يحير الأهالى تمامًا، فهذا الرجل الصامت البارد؛ هل هذا جون؟ وأين ذهبت ابتسامته وقبضة يده المحبة؟ قال الواعظ الميثودى متفكرا "يبدو أنه متعب بحيث إنه ليس قادراً على أن يتكلم" وشكت شقيقة معمدانية "يبدو أنه لم يجد ما كان يتوقعه"، ولكن رئيس مكتب البريد الأبيض، من حافة الجمع، عبّر عن رأى الجميع بصراحة حيث قال "إن هذا الزنجي الملعون قد ذهب إلى الشمال وملأ رأسه بأفكار حمقاء، ولكنها لن تنفعه فى التاماها" وذاب الجمع شيئًا فشيئًا .

وكان حفل الترحيب الذى أقيم فى الكنيسة المعمدانية فاشلاً، فالمطر أفسد الباربكيو، والرعد قلب اللبن فى الآيس كريم، وعندما بدأ الكلام فى الليل ازدحم المكان بأكثر من طاقته، وكان الواعظون الثلاثة قد أعدوا أنفسهم للحدث إعداداً خاصاً، ولكن سلوك جون ألقى غطاء على كل شىء، بدا بارداً ومشغولاً، وحوله جو غريب من التحفظ بحيث إن الأخ الميثودى لم يستطع أن يبعث الحرارة فى كلماته، ولم يحصل من الجمهور على كلمة "آمين" واحدة، ولم تلق الصلاة البريسبتيرية غير استجابة ضعيفة، وحتى الواعظ المعمداني، وإن كان قد أثار قدراً بسيطًا من الحماسة، بدت الأمور مختلطة فى عباراته المفضلة لدرجة أنه أنهى كلمته قبل ١٥ دقيقة كاملة من الوقت الذى كان محدداً لها، وتململ الأهالى بقلق فى مقاعدهم عندما قام جون ليرد على الكلمات التى قيلت، تكلم ببطء وبطريقة رسمية، قال إن العصر يحتاج إلى أفكار جديدة، وأننا الآن نختلف كثيراً عن الناس الذين عاشوا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ولدينا أفكار أرحب عن الإخاء البشرى ومصير الإنسان، ثم تحدث عن انتشار الأعمال الخيرية والتعليم العام، وخاصة عن انتشار الثروة والعمل، ثم أضاف متفكرا، وهو

يتطلع إلى السقف المنخفض غير الملون، هو الدور الذى ينبغى لزنوج هذا البلد أن يقوموا به فى القرن الجديد، ورسم بخطوط عامة المدرسة الصناعية الجديدة التى يمكن أن تنشأ بين أشجار الصنوبر هذه، وتكلم بإسهاب عن العمل الخيرى الذى يمكن أن ينظم، والنقود التى يمكن أن تدخر لإنشاء بنوك وإدارة أعمال، ودعا فى الختام إلى الوحدة وندد على الأخص بالخلافات الدينية والمنازعات الطائفية، وقال وهو يبتسم "إن العالم اليوم لا يهتم كثيراً بما إذا كان المرء معمدانياً أو ميثودياً، أو حتى ممن يترددون على الكنيسة أصلاً، مادام رجلاً طيباً وأميناً، وأى فارق هناك بين أن يكون الرجل قد تعمد فى نهر أو فى طشت للغسيل، أو لم يتعمد أصلاً؟ دعونا نبتعد عن هذه الصغائر وننظر إلى ما هو أعلى"، وبعد ذلك، إذ لم يجد شيئا آخر يقوله، جلس ببطء، وتملكت ذلك الجمع المزدحم حالة سكون ممتزج بالألم، فهم لم يفهموا غير قليل مما قال، لأنه كان يتكلم بلسان مجهول لديهم، فيما عدا كلمته الأخيرة عن العماد، وهذا أمر يعرفونه، وظلوا جالسين بلا حراك بينما كانت الساعة تصدر صوتاً خافتاً، وفى النهاية سمع صوت مكتوم من أحد الأركان، وقام رجل منحن كبير فى السن، وسار بين المقاعد، ثم صعد إلى المنبر، كان وجهه مجعداً وأسود، وشعره قليل رمادى، وكان صوته ويداه ترتجفان كما لو كان مصاباً بالشلل، ولكن على وجهه تلك النظرة المستغرقة التى تميز المتطرفين الدينيين، قبض بيديه الضخمتين الخشنتين على الكتاب المقدس، ورفعه بينهما مرتين دون أن يقول شيئا، ثم انفجر يتدفق بالكلمات، بفصاحة جافية ومخيفة، كان يرتجف، ويترنح، وينحنى، ثم يقف شامخاً فى كبرياء، حتى أخذ الأهالى يتأوهون ويبكون، ويولولون ويصيحون، وارتفعت صيحات منفلتة من الأركان التى تجمعت فيها المشاعر المضغوطة وانطلقت فى الهواء، ولم يعرف جون بوضوح ماذا قال الرجل المسن، ولكنه شعر بأنه أصبح مادة للسخرية واللوم بتهجمه على صحيح الدين، وأدرك بشىء من الدهشة أنه دون قصد وضع يدين قاسيتين جافيتين على شىء يراه هذا العالم الصغير مقدساً، وقف صامتاً، ومضى إلى الخارج فى الظلام، وانحدر نحو البحر، على ضوء النجوم المتقلب، غير منتبه للفتاة التى سارت وراءه فى خجل، وعندما وصل فى النهاية إلى حافة الماء، التفت إلى شقيقته الصغيرة ونظر إليها بحزن، متذكرا بألم مفاجئ كيف أنه لم يفكر فيها إلاّ قليلاً. وضع ذراعه حولها وتركها تطلق العنان لدموعها على كتفه .

وقفا طويلاً معًا، يتطلعان إلى المياه الرمادية التى لا تكف عن الحركة .

قالت : "هل يا جون يصبح كل إنسان بعيداً عن السعادة، عندما يتعلم ويعرف أشياء كثيرة عن كل شيء ؟ "

تمهل وابتسم وقال : "أخشى أن ذلك ما يحدث".

"وهل أنت يا جون سعيد لأنك تعلمت ؟"

أجابها "نعم" ببطء ولكن بثقة

وراقبت الفتاة الضوء المتقلب على صفحة الماء، وقالت متفكرة "أتمنى أن أفقد السعادة، وأن .... أن" ووضعت ذراعيها حول عنقه "وأن أتعلم شيئًا".

ومضت عدة أيام قبل أن يتجه جون إلى بيت القاضى ليطلب السماح له بالتعليم فى مدرسة الزنوج، ولقيه القاضى بنفسه عند الباب الأمامى، ووجه إليه نظرة حادة، وقال بحدة "اذهب إلى باب المطبخ يا جون وانتظر هناك"، وجلس جون على درجات المطبخ، وحدق فى حقول الذرة، وتملكته حيرة شديدة، ترى ماذا أصابه؟ كل خطوة يتخذها تسيء إلى أحد الأشخاص، وقد عاد لينقذ أهله، وقبل أن يغادر المكان الذى تجمعوا فيه للقائه أساء إليهم، وحاول أن يعلمهم شيئًا فى الكنيسة، وأثار أعمق مشاعرهم، وقد تعلم حتى يكون محترمًا لدى القاضى، ولكنه أخطأ عند الذهاب إلى بابه الأمامى، وفى كل الأحوال كانت نواياه حسنة، ومع ذلك، وبطريقة ما، وجد من الصعب والغريب أن يتلاءم مع محيطه القديم مرة أخرى، وأن يجد مكانه فى العالم المحيط به، ولم يستطع أن يتذكر أنه كان يواجه أية صعوبة فى الماضى، عندما كانت الحياة سهلة وسعيدة، وكان العالم يبدو وقتها ناعمًا ومتسامحًا، ربما، ولكن شقيقته جاءت إلى باب المطبخ فى تلك اللحظة بالذات وقالت إن القاضى فى انتظاره .

كان القاضى جالسا فى غرفة الطعام وحوله رسائل الصباح، ولم يطلب من جون أن يجلس، ودخل مباشرة فى الموضوع، قال "أعتقد أنك جئت من أجل المدرسة، وأنا أريد أن أتحدث معك بصراحة، فأنت تعرف أنى صديق لأهاليكم، وقد ساعدتك وساعدت أسرتك، وكان فى نيتى أن أفعل المزيد لو لم تدخل فى ذهنك فكرة الذهاب، والآن فإنى صديق للأهالى الملونين، وأتعاطف مع كل طموحاتهم المعقولة، ولكنك أنت

وأنا نعرف كلانا يا جون أنه فى هذا البلد لابد للزنجى أن يبقى خاضعًا، وألا يتوقع أبدًا أن يكون مساويًا للرجل الأبيض، وفى مكانهم فإن أهلك يمكن أن يكونوا أمناء ومحترمين، والله يعلم أنى سأفعل كل ما فى وسعى لمساعدتهم، ولكنهم عندما يريدون أن يعاندوا الطبيعة، وأن يحكموا الرجال البيض، وأن يتزوجوا النساء البيض، وأن يجلسوا فى صالونى، فعند ذلك والله فإننا سنعمل على تعريفهم مكانهم حتى لو اضطررنا إلى سحل كل زنجى فى البلد، والآن السؤال يا جون هو، هل أنت بما حصلت عليه من تعليم وأفكار شمالية، ستقبل هذا الوضع وتعلم الفتيان السود أن يكونوا خدمًا مخلصين وعمالاً مطيعين كما كان آباؤك ؟ لقد عرفت أباك يا جون وكان ملكًا لأخى، وكان زنجيًا طيبًا، هل ستكون مثله، أم أنك ستحاول أن تضع أفكاراً حمقاء فى أذهان هؤلاء الناس عن النهوض والمساواة، تجعلهم ساخطين وتعساء؟ ".

وأجاب جون، بإيجاز لم يفت على الرجل المسن اليقظ "سوف أقبل الوضع يا حضرة القاضى هندرسون"، فتردد القاضى لحظة ثم قال بإيجاز "حسن جدا ، سوف نجربك لفترة من الزمن، طاب صباحك".

ومضى شهر كامل بعد افتتاح مدرسة الزنوج عندما جاء جون الآخر إلى القرية، طويلاً، مرحًا، وقوى البنية، وبكت الأم، وغنت الشقيقات، وكانت المدينة البيضاء كلها فى فرح وابتهاج، وكان القاضى رجلاً يميل إلى الفخر، وكان مشهداً جميلاً أن نرى الرجلين يسيران معًا عبر الطريق الرئيس، ومع ذلك فإن الأمور لم تجر بينهما بسلاسة، لأن الرجل الأصغر سنًا لم يكن يخفى احتقاره للمدينة الصغيرة، وكان قد عقد العزم على التوجه إلى نيويورك، بينما كان الأمل المرتجى للقاضى أن يرى ابنه عمدة لالتاماها، وممثلاً لها فى الجهاز التشريعى و – من يدرى؟ – حاكمًا لجورجيا. وهكذا كان الجدل يحتدم بينهما فى أوقات كثيرة، كان الشاب يقول بعد العشاء، وهو يشعل سيجاراً ويقف إلى جانب المدفأة "من المؤكد يا والدى أنك لا تتوقع من شاب مثلى أن يستقر بصورة دائمة فى هذه – هذه المدينة التى نسيها الرب وليس بها شىء غير الطين والزنوج ؟" ويجيب القاضى بلهجة حزينة "ولكنى أنا قد فعلت"، وفى هذا اليوم بالذات بدا من الجو العاصف المقبل أنه على وشك أن يضيف شيئًا أكثر حدة، ولكن الجيران كانوا قد بدأوا يتوافدون لإبداء إعجابهم بابنه، وسار الحديث فى اتجاه آخر .

تطوع ناظر البريد بعد لحظة صمت بأن قال : " يبدو أن ذلك الجون يعقّد الأمور في مدرسة السود" وسأل القاضى بحدة "ماذا يفعل الآن؟ "

"لا شيء بوجه خاص، وإنما هناك ذلك التعالى من جانبه، وأعتقد أنى سمعت شيئًا عن أنه يتكلم عن الثورة الفرنسية، والمساواة، وأشياء كهذه، إنه الشيء الذى أسميه الزنجى الخطر" .

" هل سمعته يقول شيئا بعيداً عن المألوف ؟ " .

" لا ولكن سالى، فتاتنا، قالت لزوجتى أشياء كثيرة، وكنت فى ذلك الوقت أيضا لست راغبًا فى الاستماع، فالزنجى الذى لا يريد أن يقول كلمة سيدى للرجل الأبيض، أو .... " .

" وتدخل الابن فى الحديث "من هذا الجون ؟ " .

" إنه جون الأسود الصغير، ابن بيجى الذى كان يلعب معك فى الطفولة " .

واحمر وجه الشاب بالغضب، ثم ضحك وقال : "إنه ذلك الأسود الذى حاول أن يقحم نفسه فى مقعد إلى جانب السيدة التى كانت معى فى إحدى الحفلات" .

ولكن القاضى هندرسون لم ينتظر ليسمع المزيد، لقد صبر طول اليوم، أما الآن فقد قام من مقعده وعلى شفتيه عبارات وعيد غير واضحة، وأخذ قبعته وعصاه، وسار مباشرة إلى مبنى المدرسة .

وبالنسبة لجون، احتاج الأمر إلى عمل طويل وشاق لإصلاح الأمور فى ذلك المبنى القديم المتهدم الذى يؤوى المدرسة، وانقسم الزنوج إلى مجموعتين إحداهما تؤيده والأخرى تعارضه، وكان الأهالى غير مبالين، والأطفال غير منتظمين وغير نظيفين، وكانت المدرسة تفتقر إلى الكتب والأقلام وألواح الإردواز، ومع ذلك فقد استمر يناضل آملاً، وبدا أنه بدأ أخيراً يرى بصيصًا من الضوء، لقد زاد عدد الحضور وأصبح الأطفال أنظف قليلاً هذا الأسبوع، وحتى الفصل المبتدئ فى القراءة حقق قدراً مريحًا من التقدم، ولذا عاد جون إلى العمل بصبر متجدد عصر ذلك اليوم .

قال مبتهجًا : "الآن ياماندى، لقد أصبحت أفضل ولكن يجب ألا تفرقى بين كل كلمة وكلمة إلى هذا الحد، فحتى شقيقك الصغير لن يروى قصة بهذه الطريقة، هل يفعل ذلك؟ " .

– كلا بالتأكيد، لأنه لا يستطيع أن يتكلم .

– فليكن. والآن فلنجرب مرة ثانية: إذا ذهب الرجل ...

" جون ! "

أخذت المدرسة كلها على غرة، وقام المدرس من مقعده، عندما ظهر الوجه الأحمر الغاضب للقاضى من خلال الباب المفتوح .

جون، " لقد أغلقت هذه المدرسة، ويستطيع تلاميذك أن يذهبوا إلى بيوتهم ويشغلوا أنفسهم بالعمل، فالأهالى البيض فى التاماها لا ينفقون أموالهم على السود من أجل حشو رؤوسهم بالبجاحة والأكاذيب، فلتخرجوا ! وسوف أغلق الباب بنفسى " .

وعند المسكن الكبير ذى الأعمدة، ظل الابن الشاب الطويل يتجول بلا هدف بعد مغادرة الوالد المفاجئة لبيته، ولم يكن فى البيت شىء كثير يثير اهتمامه، فالكتب عتيقة وبلا مذاق، والجريدة المحلية ليس فيها ما يثير، والنساء توجهن إلى غرفهن يشكين الصداع أو يقمن بالحياكة، وحاول أن يغفو قليلاً، ولكن الجو كان حارا لا يسمح بذلك، ولذا خرج يتجول فى الحقول وأخذ يشكو : "يا إلهى العظيم : إلى متى سيستمر هذا الحبس ؟ " وهو لم يكن فتى سيئا كل ما فى الأمر أنه مدلل إلى حد ما، ولا يهتم بشىء غير نفسه وهو عنيد مثل أبيه المتكبر، وبدا شابًا يرتاح النظر إليه، وهو يجلس على جذع الشجرة الأسود الكبير على حافة أشجار الصنوبر، ويؤرجح ساقيه ويدخن، وغمغم "بل إنه ليست هناك فتاة تستحق مغازلة محترمة"، فى تلك اللحظة رأت عيناه شخصًا طويلاً منحنيًا يسرع إلى حيث يجلس فى الممشى الضيق، نظر باهتمام فى البداية، ثم انفجر ضاحكا وهو يقول "الأرجح أنها جينى، خادمة المطبخ الصغيرة تلك، إنى لم ألاحظ من قبل أبدا جسمها الصغير المشوق، أهلاً يا جنى! لقد لاحظت أنك لم تقبلينى منذ عودتى إلى البيت" قال ذلك بمرح، وحدقت فيه الفتاة باستغراب واضطراب

وتمتمت بشيء غير مسموع، وحاولت أن تمر، ولكن نزعة مفاجئة استولت على الفتى المتململ، وقبض على ذراعها، وجذبت نفسها مذعورة، ولكنه استدار وركض وراءها خلف أشجار الصنوبر المرتفعة .

ومن هناك، من اتجاه البحر، في نهاية المشى، جاء جون متباطئًا ورأسه منكسة، كان في طريقه عائدًا مرهقًا من مبنى المدرسة، وعند ذلك فكر في أن يحمي أمه من الضربة التي أصابته، ومضى ليلتقي بشقيقته عند عودتها من العمل ليبلغها بنبأ فصله، قال ببطء "إني سأذهب بعيدًا، سأذهب بعيدًا وأجد عملاً، ثم أرسل ليحضرا إليّ، لم أعد أستطيع أن أعيش هنا"، وعند ذلك ارتفع في حلقه الغضب الشرس المكبوت، طوح ذراعيه وسارع مغضبًا عبر المشى .

كان البحر الهائل بني اللون صامتًا، وكان الهواء يهب بالكاد، وكان اليوم المحتضر يغسل ويطوي أشجار السنديان والصنوبر ويغمرها باللونين الأسود والذهبي، ولم يأت من الرياح أي إنذار، ولا همسة من السماء الصافية، لم يكن هناك غير رجل أسود يمضي في طريقه بغصة في قلبه، لا يرى شمسًا ولا بحرًا، ولكنه قفز كأنما يستيقظ من حلم وهو يسمع صيحة مذعورة توقظ شجرات الصنوبر، ويرى شقيقته السمراء تصارع بين يدي رجل طويل أشقر الشعر .

لم يقل كلمة، لكنه قبض على غصن ساقط وضربه بكل ما في ذراعه الأسود القوي من كراهية مكبوتة، ورقد الجسد أبيض وساكنا تحت أشجار الصنوبر، مستحما في أشعة الشمس وفي الدم، ونظر جون إلى المشهد كأنه في حلم، ثم سار عائدًا إلى البيت مسرعا، وقال بصوت هادئ "أمي، إني راحل، راحل لأكون حرًا".

وحدقت فيه وتمتمت "إلى الشمال يا حبيبي، هل أنت ذاهب إلى الشمال مرة أخرى ؟ "

نظر إلى الخارج حيث كانت نجمة الشمال تلمع شاحبة فوق المياه وقال " نعم يا أمي، سأذهب إلى الشمال" .

وبعد ذلك، وبدون كلمة أخرى، خرج إلى الحارة الضيقة، مارًا بأشجار الصنوبر المستقيمة، إلى نفس المشى الملتف، وجلس على جذع الشجرة المقطوع الأسود

الضخم، ونظر إلى الدم في المكان الذى رقد فيه الجسد، هناك فى الماضى الرمادى كان يلعب مع ذلك الفتى الميت، ويتحاوران معا فى ظل الأشجار الصامتة، وتعمق الليل، وفكر فى الفتيان فى جونستاون، وتساءل ماذا حل ببراون، وكيرى؟ وجونز ؛ جونز؟ إنه هو جونز، وتساءل عما سيقولونه جميعًا عندما يعرفون، عندما يعرفون، فى غرفة الطعام الطويلة تلك التى تضم المئات من العيون الضاحكة، وبعد ذلك، وبعد أن وصل إليه شعاع مسروق من نور النجوم، فكر فى السقف المذهب لقاعة الموسيقى الواسعة تلك، واستمع إلى الموسيقى العذبة الخافتة لأوبرا البجعة تتسلل عائدة إليه، ولكن فليستمع ! هل كانت تلك موسيقى، أم هم رجال مسرعون ويتصايحون؟ أجل، بالتأكيد! ارتفع النغم واضحًا وعاليًا وعذبًا، وارتجف كأنه شيء حى، حتى أن الأرض نفسها ارتجفت كما لو كان فوقها وقع أقدام جياد ودمدمة رجال غضاب .

ارتاح بظهره إلى الوراء وابتسم فى اتجاه البحر، حيث ارتفع النغم الغريب، مبتعداً عن الظلال القاتمة حيث يوجد صوت الجياد المندفعة، والمندفعة دائما، وبذل جهدا حتى يقوم، وانحنى إلى الأمام، وألقى نظرة فاحصة على الممشى وهو يغمغم بصوت منخفض "أغنية العرس" .

ومن بين الأشجار، وفى ضوء الصباح الخافت، راقب أشباحهم ترقص وسمع جيادهم ترعد مقبلة نحوه، إلى أن جاءوا فى النهاية يكتسحون ما أمامهم كالعاصفة، ورأى فى مقدمتهم الرجل الأشعث ذا الشعر الأبيض، والذى كانت عيناه تومضان باللون الأحمر من الغضب، وياله كم رثا له - رثا له - وتساءل عما إذا كان معه الحبل الملفوف القوى، وعند ذلك، عندما انفجرت العاصفة حوله، نهض ببطء ووجه عينيه المغمضتين نحو البحر .

وأخذ العالم يصفر فى أذنيه.

الفصل الرابع عشر

عن الأغاني الحزينة

كان الذين يسيرون فى الظلمة يغنون فى الأيام الماضية أغانى الحزن لأن قلوبهم كانت متعبة، ومنذ طفولتى كانت هذه الأغانى تحرك مشاعرى لدرجة غير عادية كانت تأتى إلى من الجنوب الذى لا أعرفه، واحدة بعد أخرى، ومع ذلك كنت أعرفها كما لو كانت أغانى وكما لو كنت كاتبها، وبعد ذلك بسنوات طويلة عندما أتيت إلى ناشفيل رأيت الصحن الهائل المبنى من هذه الأغانى يحلق فوق المدينة الشاحبة، وكانت صالة الاحتفالات تظهر لى لو كانت مصنوعة من الأغانى نفسها، وتبدو لى حجارتها حمراء بالدم وغبار الكدح، ومن خلالها كان يتبدى لى الصباح، والظهيرة، والليل، كأنها انبعاثات لأنغام رائعة، حافلة بأصوات اخوتى وإخواتى، ذاخرة بأصوات الماضى .

ولم تعط أمريكا العالم شيئًا من الجمال فيما عدا العظمة الخام التى وضع الله نفسه بصمتها على صدرها، وقد عبرت الروح البشرية فى هذا العالم الجديد عن نفسها بقوة وذكاء ولكن ليس بجمال، ولذا، وبالمصادفة البحتة، غدت الأغانى الفلكلورية الزنجية – الصيحة الإيقاعية للعبيد – هى اليوم ليست مجرد الموسيقى الأمريكية الوحيدة فقط، بل إنها أيضًا أجمل تعبير عن التجربة البشرية التى ولدت على هذا الجانب من المحيط، لقد أهملت، وقد احتقرت تقريبا ولا تزال، وكانت قبل كل شيء لا تفهم على وجهها الصحيح، ومع ذلك فإنها تظل التراث الروحى الوحيد للأمة، والمنحة الكبرى للأهالى السود .

ومنذ عهد بعيد يرجع إلى الثلاثينات كانت أنغام أغانى العبيد هذه تثير الأمة، ولكن الأغانى لم تلبث أن نُسيت أو كادت، فأغنية مثل "بالقرب من البحيرة حيث تدلت

أغصان الصفصاف" دخلت فى أنغام أغان أخرى شائعة ولكن مصدرها علاه النسيان، وأغان أخرى استمدت منها نماذج كاريكاتورية فى مسرح "تقليد الزنوج" وماتت ذكراها، ثم فى سنوات الحرب جاءت تجربة "بورت رويال" الفريدة: فبعد الاستيلاء على "هيلتون هيد" وربما لأول مرة واجه الشمال عبيد الجنوب وجهًا لوجه وقلبًا لقلب بدون شاهد ثالث، وكانت جزر البحار فى كارولينا، حيث التقيا، حافلة بأناس من السود من النوع البدائى، لم يمسهم ويقولبهم العالم المحيط بهم كما مس غيرهم خارج الحزام الأسود، وكان منظرهم جافيًا، ولهجاتهم مضحكة، ولكن قلوبهم كانت طيبة وحرّك غناءهم الناس بقوة هائلة، وسارع توماس وينتويرس هجنسون بالحديث عن هذه الأغانى، وقامت ميس ماكيم وآخرون بتنبيه العالم إلى جمالها النادر، ولكن العالم استمع إليهم نصف مصدق، إلى أن جاء مغنو "فيسك اليوبيلى" فأنشدوا أغانى العبيد غناءً عميقا فى قلب العالم بحيث لم يعد يستطيع أن ينساها تمامًا مرة أخرى .

وكان هناك فى يوم من الأيام ابن حداد ولد فى كاديز بنيويورك، قام فى يوم من الأيام بالتعليم فى مدرسة أوهايو، وساعد فى حماية سينسناتى من كيربى سميث، ثم قاتل فى شانصليروزفيل وجيتسبيرج، ثم خدم فى نهاية المطاف فى مكتب الرجال المحررين فى ناشفيل، وهنا أنشأ فصلاً لمدرسة الأحد من الأطفال السود فى سنة ١٨٦٦، وغنى معهم، وعلمهم الغناء، وبعد ذلك قاموا هم بتعليمه الغناء، وعندما دخل مجد أغانى "اليوبيل" إلى روح جورج وايت، عرف أن عمل حياته هو أن يدع هؤلاء الزنوج يغنون للعالم كما غنوا له، وهكذا بدأت فى ١٨٧١ رحلة "مغنى فيسك اليوبيليين"، وقد اتجهوا إلى الشمال من سينسناتى : أربعة فتيان سود بأسمال بالية وخمس فتيات : يقودهم رجل لديه قضية وهدف، توقفت الجماعة فى ويلبرفورث، أقدم مدارس الزنوج، حيث باركهم أسقف أسود، ومن هناك واصلوا طريقهم نحو الشمال، يقاتلون البرد والجوع، وترفض الفنادق قبولهم، ويسخر الكثيرون منهم، وظل سحر غنائهم يطرب القلوب، إلى أن قوبلوا بتصفيق فى "المجلس الكنسى فى أوبرلين" فقدمهم إلى العالم، وجاءوا إلى نيويورك، وتجاسر هينرى وارد بيتشر على الترحيب بهم، على الرغم من أن صحف نيويورك اليومية سخرت من هؤلاء "المغنين الزنوج" ونجحت أغانيهم فغنوا فى كل أنحاء البلد وعبر البحار، أمام "الملكة" و "القيصر"، فى

اسكتلندا وأيرلندا، وفى هولندا وسويسرا، واستمروا يغنون سبع سنوات، وأحضروا معهم مائة وخمسين ألف دولار وأنشأوا "جامعة فيسك".

ومن يومها ظهر آخرون يقلدونهم تقليداً جيداً أحياناً، على يد مغنى هامبتون وأتلانتا، وأحيانا تقليداً سيئاً على يد الفرق الناشئة، وسعى الكاريكاتير مرة أخرى إلى إفساد الجمال الغريب لهذه الموسيقى، وملأ الجو بأنغام عديدة منحطة وهى أنغام نادراً ما تتمكن الآذان غير المرهفة من التمييز بينها وبين الأنغام الحقيقية، ولكن أغانى الزنوج الفلكلورية الحقة مازالت تعيش فى قلوب من سمعوها تصدح فى قلوب أبناء الشعب الزنجى .

فما هى تلك الأغانى، وماذا تعنى؟ معرفتى بالموسيقى قليلة، ولا أستطيع أن أتكلم بعبارات فنية، لكنى أعرف شيئاً عن الناس، وإنى إذ أعرفهم أعرف أن هذه الأغانى هى رسالة العبيد إلى العالم، فهم يقولون لنا فى هذه الأيام الصعبة إن الحياة كانت بهيجة لدى العبد الأسود، وإنه لم يكن يبالى، وكان سعيدا، وإنى أثق بذلك بالنسبة لبعضها، بل وبالنسبة للكثير منها، ولكن لا يمكن أن يقال إن كل الجنوب السابق، وإن كان قد قام من الموتى، يمكن أن يكون شاهداً على هذه الأغانى المؤثرة، فهى موسيقى شعب غير سعيد، هم أبناء خيبة الأمل، إنها تتحدث عن الموت والمعاناة والتوق الصامت إلى عالم أكثر صدقاً، وعن التجوال فى ظل الضباب، والطرق .

إن الأغانى هى فى الواقع غربلة للقرون، والموسيقى موغلة فى القدم أكثر بكثير من الكلمات، ونستطيع أن نتتبع فيها هنا وهناك مؤشرات على التطور، إن جدة جدى قد قبض عليها تاجر هولندى شرير قبل مائتى سنة، وعندما جاءت إلى وديان الهدسون والهوساتونيك، سوداء صغيرة الحجم خفيفة الحركة، كانت ترتجف فى رياح الشمال العاصفة، وتتطلع بشوق إلى التلال، وكثيراً ما كانت تردد أغنية وثنية للطفل الراقد على ركبتيها.

ولقد أنشد الطفل نفس الأغنية لأبنائه، وهؤلاء غنوها لأبنائهم، وهكذا عبرت مائتى سنة لتصل إلينا ونحن مازلنا نغنيها لأبنائنا، وقلما نعرف كما لم يعرف آباءنا ماذا تعنى كلماتها، ولكننا نعرف تماماً معنى موسيقاها .

كانت هذه موسيقى أفريقية بدائية، وقد نراها فى صورة أشمل فى الأغنية الغريبة التى ترحب بـ "عودة جون" :

" إنك قد تدفننى فى الشرق،

وقد تدفننى فى الغرب،

ولكنى سأسمع صوت النفير فى ذلك الصباح

إنه صوت المنفى" .

عشر أغان أساسية، تزيد أو تنقص، يستطيع المرء أن ينتقيها من هذه الغابة من الأنغام أغان لها أصل زنجى لا شك فيه وانتشار شعبى واسع، وأغان لها بالتحديد خصائص العبيد، واحدة منها أشرت إليها للتو، وأخرى تبدأ كلماتها "لا أحد يعرف الشقاء الذى عرفته"، فعندما واجهت الولايات المتحدة حالة فقر مفاجئ، رفضت أن تفى بوعودها للرجال الذين تحرروا، وتوجه ضابط كبير إلى "الجزر البحرية (*) " ليحمل إليها النبأ، وبدأت امرأة عجوز على حافة المجموعة تنشد هذه الأغنية، وانضم إليها كل الحاضرين، وهم يميلون بأجسامهم يمينًا ويسارًا، وبكى الجندى .

والثالثة هى أغنية المهد للموت التى يعرفها كل الرجال "والتى تبدأ سطورها الأولى بقصة حياة "ألكسندر كروميل"، ثم هناك أغنية المياه الكثيرة "تدفق يا نهر الأردن، تدفق" والتى يغنيها كورس كبير مصحوبًا بموسيقى خافتة، وكانت هناك أغان كثيرة تتحدث عن الهاربين، مثل الأغنية التى تبدأ بعبارة "أجنحة أتلانتا" والأغنية الأكثر انتشارًا "كنت أستمع"، والسابعة هى أغنية البداية والنهاية "يا إلهى، ياله من حزن ! عندما تبدأ النجوم فى السقوط"، وقد وضعت نغمة منها قبل "فجر الحرية"، أما أغنية التطلع والقلق - "طريقى غائم" - فتبدأ بعبارة "معنى التقدم"، والتاسعة هى "يا يعقوب المناضل، إن الفجر بدأ يشرق" وهى تحمل أملاً من وراء النضال، أما الأغنية الكبرى العاشرة فهى "اذهب بعيدا" التى نشأت من "إيمان الآباء" .

(*) مجموعة من أكثر من ١٠٠ جزيرة منخفضة على شاطئ الأطلنطى فى الولايات ساوث كارولينا وجورجيا وشمال فلوريدا (المترجم) .

وهناك الكثير من أغاني الزنوج الأخرى التي لا تقل عن هذه وضوحًا وتعبيرًا، ولا أشك في أن غيري يستطيع أن يقدم اختيارًا آخر على أساس أقرب إلى المبادئ العلمية، كما أن هناك أغاني يبدو لي أنها تبتعد خطوة عن الأنواع البدائية: فهناك الشبيهة بالمتاهة مثل "التلألؤ المضيء" والتي يبدأ أحد سطورها بعبارة "الحزام الأسود"، وأغنية عيد الفصح "التراب، التراب، والرماد"، وأغنية "إن أمي قد هربت وعادت إلى ديارها"، وتلك المجموعة من الألحان التي أحاطت بأغنية "رحيل المولود الأول" "آمل أن تكون أمي هناك في ذلك العالم العلوي".

وهذه تمثل خطوة ثالثة في تطور أغاني الزنوج التي كانت بدايتها "تستطيع أن تدفن جثماني في الشرق"، ثم تأتي أغان مثل "فلنسر إلى الأمام" و "فلنبتعد" في المقام الثاني، فالأولى موسيقى أفريقية، والثانية أمريكية أفريقية، في حين أن الثالثة هي مزيج من الموسيقى الزنجية والموسيقى التي تسمع في الأراضي المتبناة، ومازالت النتيجة زنجية واضحة وطريقة المزج أصيلة، ولكن العناصر زنجية وقوقازية على السواء، وربما يستطيع المرء أن يمضي درجة أخرى ويجد خطوة رابعة في هذا التطور، حيث تأثرت أغاني أمريكا البيضاء بشكل قاطع بأغاني الزنوج، أو أنها استوعبت جملاً كاملة من الألحان الزنجية مثل "نهر سواني" و "جو الأسود العجوز"، وجنبًا إلى جنب مع النمو مضى الانحطاط والتقليد ، أغاني "المينيستريل" الزنجية، والكثير من التراتيل الكنسية، وبعض أغاني "الكون" Coon المعاصرة خليط من الموسيقى يمكن للمبتدئ أن يتوه فيه بسهولة ولا يجد الألحان الزنجية الحقيقية .

وفي هذه الأغاني، كما ذكرت، يخاطب العبد العالم، وهذه الرسالة مغلفة بطبيعة الحال وليست مباشرة، وقد ضاعت الكلمات والموسيقى إحداها من الأخرى، وحلت كلمات وعبارات جديدة غير واضحة المعنى محل المشاعر القديمة، ومن حين لآخر تقع على أذننا كلمة غريبة من لغة لاهوتية مجهولة مثل "مايو العظيم" الذي يبدو كأنه نهر الموت، ولكن الأغلب أن تكون هناك كلمات بسيطة أو مجرد أصوات تتجمع مع الموسيقى لتكون لها عذوبة فريدة، والأغاني العلمانية الخالصة قليلة العدد، وذلك جزئيًا لأن الكثير منها قد تحولت إلى تراتيل بتغيير الألفاظ، وجزئيًا لأن ما بها من مزاح نادرًا ما يفهمه الغرباء، ولأنهم نادرًا ما كانوا يحسون ما في الأنغام من جمال، ومع

ذلك ففي كل الأغاني تقريبًا تتميز الموسيقى بحزن واضح، فالأغاني الرئيسة العشرة التي أشرت إليها تدور كلماتها وموسيقاها حول العناء والنفي، حول العمل الشاق والاختفاء، وكلها تتطلع إلى قوة غير مرئية، وتتنهد طلبًا للراحة في "النهاية" .

والكلمات التي بقيت لنا ليست بلا أهمية، وإذا نقيت مما علق بها من كدارة واضحة فإنها تخفي الكثير من الشعر الصادق والمعاني القوية وراء العبارات المألوفة والأنغام التي بلا معنى، وشأن كل البدائيين، كان العبيد قريبين من قلب الطبيعة، وكانت الحياة "بحراً قاسيًا متدفقًا" مثل الأطلنطي بني اللون في "جزر البحار"، وكانت "البرية" موطن الرب، و "الوادي المنفرد" مؤديًا إلى طريق الحياة، وكان القول بأن "الشتاء سينتهي قريبا" صورة للحياة والموت في الخيال الاستوائي، لقد كانت أعاصير الجنوب المفاجئة تخيف الزنوج وتشعل خيالهم وكان الرعد يبدو لهم أحيانًا "محزنًا" وأحيانًا مخيفًا :

"إن ربي يناديني

إنه يناديني من خلال الرعد

إن النفير يطلق هذا الصوت في داخلي"

والكدح الرتيب والتعرض للمخاطر مرسوم بوضوح، ويستطيع المرء أن يرى العامل على المحراث في الطقس الحار الرطب يغني :

لن يتجاسر مطر على بلّ جسدك

ولن تتجاسر شمس على إحراقك

امض في طريقك أيها المؤمن

إني أريد أن أعود إلى وطني"

إن الرجل المسن المنحني يصيح:

"يا إلهي، احفظني من الغرق"

وهو يعاتب شيطان الشك الذي يهمس له قائلاً :

"إن المسيح قد مات والرب ذهب بعيدًا"

ومع ذلك فإن جوع الروح قائم، وقلق الهمجى، وعويل الهائم على وجهه، والشكوى تظهر فى عبارة موجزة :

إن روحى بحاجة إلى شىء جديد، شىء جديد

وخلال الأفكار الداخلية للعبيد وعلاقة أحدهم بالآخر، يخيم دائما شبح الخوف، بحيث لا نرى غير لمحات هنا وهناك، ومعها محذوفات ومواقع صمت بليغة، وهناك أغان عن الأم والطفل، ولكن نادراً ما ترد إشارة إلى الأب، فالهارب المتعب الذى يقر له قرار يطلب العطف والحنان، ولكن ليست هناك مغازلة أو زواج، الصخور والجبال معروفة، ولكن البيت مجهول، وهناك مزج غريب بين الحب وعدم القدرة على عمل شىء، وفى موضع آخر نجد صيحة "من بلا أم" و "وداعا، وداعا يا طفلى الوحيد".

وأغانى الحب نادرة، وتنقسم إلى فئتين : الخفيفة والمرحة، والحزينة، أما عن الحب العميق الناجح فهناك صمت مخيف، وفى إحدى أقدم هذه الأغانى نجد عمق التاريخ وغزارة المعنى، وقد قالت امرأة سوداء عن هذه الأغنية : "إنها لا يمكن أن تغنى إلاّ بقلب ملىء وروح مضطربة"، ولم يكن الزنجى يبدى خوفاً من الموت، بل يتكلم عنه كشىء مألوف بل ومرغوب كأنه مجرد عبور للمياه، ربما - من يدرى ؟ - عائداً إلى غاباته العتيقة مرة أخرى. والأيام المقبلة تحوّل إيمانه بالقضاء والقدر، ووسط الغبار والقذر يغنى الكادح :

"أيها الغبار والرماد، فلتحلق فوق قبرى

ولكن الرب سيحمل روحى إلى مقرها" .

ومن الواضح أن الأشياء المقتبسة من العالم المحيط تتعرض لتغيير ذى دلالة عندما تخرج من فم العبد، ويصدق ذلك خاصة على كلمات الكتاب المقدس والتى تتغير بعض ألفاظها لتناسب معاناة الزنجى وحياته الحاضرة .

وكما كان الحال فى الماضى، إن الكلمات فى هذه الأغانى قد ارتجلها بعض كبار المرتلين فى الفرق الدينية، غير أن مناسبات الاجتماع، وألحان الأغانى، والقيود المفروضة على الفكر المسموح به، كانت تقصر الشعر فى معظم الحالات على بيت واحد أو بيتين، ونادراً ما استمرت إلى مقطع رباعى أو أطول، وإن كانت هناك نماذج قليلة على المحاولة، وخاصة فى التنويع على عبارات واردة فى الكتاب المقدس .

وخلال الحزن المتمثل فى "الأغانى الحزينة" يتنفس قدراً من الأمل، إيمان بعدالة الأشياء فى نهاية الأمر، وكثيراً ما تتحول نغمة اليأس إلى انتظار وثقة هادئة، هى أحياناً ثقة بالحياة، وأحياناً ثقة بالموت، وفى بعض الحالات تأكيد للعدالة غير المحدودة فى عالم منصف بعيد، ولكنها أياً كانت، فإن المعنى دائماً واضح : إنه فى وقت ما، فى مكان ما، سوف يحكم الناس على الناس بأرواحهم وليس بلون جلدهم، وهل لهذا الأمل ما يبرره ؟ وهل الأغانى الحزينة صادقة فى توقعاتها ؟ .

إن الافتراض الذى ينمو بصمت فى هذا العصر هو أن اختبار الأجناس قد تم، وأن الأجناس المتأخرة اليوم قد أثبتت عدم كفاءتها، وأنها ليست جديرة بالسعى لإنقاذها، وهذا الافتراض هو نتيجة لغطرسة أشخاص لا يعرفون دور "الزمن" ويجهلون مآثر البشر، ولو وجد مثل هذا الافتراض منذ ألف عام، وهو أمر محتمل تماماً، لكان من الصعب على التيوتون(*) أن يثبتوا حقهم فى الحياة، ولو سادت مثل هذه العقائد قبل ألفين من السنين، وكانت ستلقى الترحيب، لقضت على الفكرة القائلة بأن الشعوب الشقراء ستكون هى قائدة الحضارة، والمعرفة السوسيولوجية من الاضطراب بحيث يتعذر تحديد معنى التقدم، ومعنى "السريع" و "البطىء" فى التحرك البشرى، وحدود الكمال الإنسانى، فهذه طلاسم مغلفة بالحجاب على شواطئ العلم، فلماذا غنى إسخيلوس قبل ألفى عام من ميلاد شكسبير؟ ولماذا ازدهرت الحضارة فى أوروبا، ونمت ثم ازدهرت ثم ماتت فى أفريقيا؟ ومادام العالم يقف صامتاً ومتواضعاً أمام مثل هذه الأسئلة، فهل ستعلن هذه الأمة جهلها وتعترف بتحيزاتها الفارغة بإنكار الفرص المتكافئة على من جاءوا بالأغانى الحزينة إلى كرسى رب العزة ؟ .

تقولون بلدكم؟ كيف أصبح لكم؟ قبل أن يأتى الحجيج كنا هنا، لقد جئنا بعطايانا الثلاث ومزجناها بعطاياكم: عطية الحكاية والأغنية : النغم الناعم المحرك للقلب فى بلد ليس به انسجام ولا أنغام. عطية العودة إلى التيه، وقهر التربة، وإرساء الأساس لهذه الإمبراطورية الاقتصادية الباذخة قبل مائتى سنة وهو ما كانت أيديكم الرخوة تعجز عن أن تفعله. والثالثة عطية الروح، وحولنا تركز تاريخ البلد لمدة ثلاثمائة

(*) أصل الألمان الحاليين (المترجم) .

عام، ومن قلب الأمة دعونا كل خير وأخمدنا كل شر، النار والدم، الصلاة والتضحية، قد أعطيناها لهذا الشعب، وهو لم يجد السلام إلاّ على مذابح "إله الحق"، ولم تكن عطية روحنا سلبية فقط، فقد عملنا بنشاط على نسج أنفسنا في سدى ولحمة هذه الأمة قاتلنا معاركها، وشاركنا أحزانها، وخلطنا دمنا بدمائها وجيلاً بعد جيل ناشدنا شعباً عنيدا لا يبالى ألا يحتقر العدالة، والرحمة، والحق، حتى لا تأتي لعنة تبيد الأمة، وقد منحنا أغانينا، وكدحنا، وتحيتنا، وإنذارنا لهذه الأمة في أخوة للدم، أليست هذه العطايا جديرة بأن تعطى؟ أليس هذا عملاً وجهداً ؟ وهل كانت أمريكا ستغدو أمريكا بدون أهاليها الزنوج ؟ .

ومع ذلك فإن الأمل الذى تردد فى أغانى آبائى كان أملاً عظيمًا، وإذا كان هناك فى هذا الخضم من فوضى الأشياء شيء يسمى "الخير الخالد"، فعند ذلك سيأتى الوقت الطيب الذى تمزق فيه أمريكا "الحجاب" ويتحرر السجناء، سيصبحون أحراراً مثل أشعة الشمس التى تتسلل صباحًا من خلال نافذتى هذه، وتتحرر مثل تلك الأصوات الطازجة التى تصل إلىّ من حوائط الطوب والأسمنت هناك محملة بالأغانى، ذاخرة بالحياة، إن أبنائى، أبنائى الصغار، يغنون لضوء الشمس، وينشدون : فلنحيى السائر المتعب، السائر فى الطريق الطويل إلى السماء" .

وهاهو السائر يتهيأ، ويولى وجهه شطر الصباح، ويمضى فى طريقه .

كلمة أخيرة

هذه هى صيحتى يا صديقى القارئ، ورجائى ألا يولد هذا الكتاب ميتًا فى متاهة العالم، ولتنطلق من أوراقه قوة للفكر وأعمال مدروسة لنجنى حصادًا بديعًا، فلتستمع آذان الشعب المدان للحقيقة، وليتطلع سبعون مليونًا للحق الذى ترتفع به الأمم، فى هذا اليوم البشع الذى يعتبر فيه الإخاء الإنسانى أضحوكة وشركا، ولذا أرجو أن يحول فى زمنك العقل الخالص الأمور المضطربة إلى أمور سوية، وألا يستمر وجود هذه العلامات المشينة على صفحة ورقة قابلة للضياع .

المحتويات

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة — والاس مارتن — ت : حياة جاسم محمد

٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها — بريجيت شيفر — ت : جمال عبد الرحيم

٣٨ – نقد الحداثة — آلن تورين — ت : أنور مغيث

٣٩ – الإغريق والحسد — بيتر والكوت — ت : منيرة كروان

٤٠ – قصائد حب — آن سكستون — ت : محمد عيد إبراهيم

٤١ – ما بعد المركزية الأوربية — بيتر جران — ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد

٤٢ – عالم ماك — بنجامين باربر — ت : أحمد محمود

٤٣ – اللهب المزدوج — أوكتافيو باث — ت : المهدى أخريف

٤٤ – بعد عدة أصياف — ألدوس هكسلى — ت : مارلين تادرس

٤٥ – التراث المغدور — روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين — ت : أحمد محمود

٤٦ – عشرون قصيدة حب — بابلو نيرودا — ت : محمود السيد على

٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٤٨ – حضارة مصر الفرعونية — فرانسوا دوما — ت : ماهر جويجاتى

٤٩ – الإسلام فى البلقان — هـ . ت . نوريس — ت : عبد الوهاب علوب

٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير — جمال الدين بن الشيخ — ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى

٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية — داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى — ت : محمد أبو العطا

٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى — بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل — ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش

٥٣ – الدراما والتعليم — أ . ف . ألنجتون — ت : مرسى سعد الدين

٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح — ج . مايكل والتون — ت : محسن مصيلحى

٥٥ – ما وراء العلم — جون بولكنجهوم — ت : على يوسف على

٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود على مكى

٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى

٥٨ – مسرحيتان — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمد أبو العطا

٥٩ – المحبرة — كارلوس مونييث — ت : السيد السيد سهيم

٦٠ – التصميم والشكل — جوهانز ايتين — ت : صبرى محمد عبد الغنى

٦١ – موسوعة علم الإنسان — شارلوت سيمور – سميث — مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى

٦٢ – لذّة النّص — رولان بارت — ت : محمد خير البقاعى .

٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة) — آلان وود — ت : رمسيس عوض .

٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى — برتراند راسل — ت : رمسيس عوض .

٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية — أنطونيو جالا — ت : عبد اللطيف عبد الحليم

٦٧ – مختارات — فرناندو بيسوا — ت : المهدى أخريف

٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى — فالنتين راسبوتين — ت : أشرف الصباغ

٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين — عبد الرشيد إبراهيم — ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى

٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية — أوخينيو تشانج رودريجث — ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى — داريو فو — ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولا الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حـ
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريدا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٧٥٥ / ٢٠٠١





يصدر هذا الكتاب فى طبعته العربية الأولى بعد مرور قرن كامل على تأليفه عام 1903 بالولايات المتحدة الأمريكية ، حيث كتبه أحد قادة حركة الوحـــدة الأفريقية وراعيها وليم بورجهارت ديبويس W.B.Dubois (1868ـ 1963) وينطق اسمه أحياناً " ديبوا " نتيجة أصول فرنسية لهذا الزنجى الأصيل الذى ق... مؤتمر الوحدة الأفريقية الأول 1900 ، وظل يرعى الحركة حتى مؤتم... الخامس بمانشستر 1945 ، ثم انتقل بها إلى غانا فى مؤتمـر للشـ... الأفريقية على أرض القارة فى أكرا 1958 ، وحتى مات فى نفس عام... منظمة الوحدة الأفريقية بأديس أبابا 1963 .

والكتاب صرخة أحد أبناء الرقيق الذين نقلوا بالملايين إلى أراضى... الجديد فيما عرف بأمريكا ، وإن كان قد كتب عام 1903 بعد حوالى خ... عامًا من إعلان تحرير الرق الأمريكى ، فإن الكتاب يقرأ بعد مائة عام ، ... حقوق الإنسان والشعوب مازالت تعانى من القهر الأمريكى .

حلمى شع...

تصميم الغلاف / مجاهد العرب